خلق المسلم

محمد الغزالي

دار القلم

خُلُقُ المُسْلِمِ

الطبعة السادسة عشرة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

٢١٢
٤ م غ

خلق المسلم

محمد الغزالي

طبعة مُتقنة مُنقحة

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم بها دينه، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعاً.

مهدت لها وعقبت عليها بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الأعصار من انحراف وهبوط، نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل... واكتفيت بما سقت من آيات، وذكرت من أحاديث. فلم أستطرد إلى إيراد الشواهد الأخرى من أقوال الأئمة وحكم العلماء، وعظات العباد والمتأدبين ـ على كثرتها في تراثنا القديم ـ لأني قصدت أن نرجع إلى الشريعة وحدها، وأن أعرض جانب التربية منها على أنه توجيه إلهي، يطالب المسلم بالتزامه، ويعتبر مقصراً في حق الله حين يعرض عنه.

وفرق بين المطالبة بأدب ما على أنَّه خلق عام، وبين التكليف به على أنه دين كسائر العبادات المفروضة في هذا الدين.

* * *

وقد درسنا في مراحل ثقافتنا فلسفة الأخلاق، ومناهج الفلاسفة ومقاييسهم لضبط سلوك البشر...

وأعجبنا بما فيها من فكر عميق، وتَلَمُّسٍ للحقيقة، واستشرافٍ للمثل العليا. ولسنا نغمط فضل أحد نشد الخير للناس، واجتهد في إنارة السبل أمامهم.

بيد أننا نلفت أنظار المصنفين إلى أساليب التربية الناجعة، والأخلاق الرائعة التي جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة، ونقل بها العالم من الغي إلى الرشاد. وسوف يرون أن في الإسلام كنوزاً حافلة بالنفائس، دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان.

قيل لعالم مسلم: هل قرأت أدب النفس «لأرسطو»؟ فقال: بل قرأت أدب النفس

لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. . . !!.

لقد قرأنا أدب النفس لأرسطو ولأمثاله من الفلاسفة، وقرأنا أدب النفس لمحمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فوجدنا ما تخيله الأولون واصطنعوا له بعد العناء صوراً بعضها كامل وبعضها منقوص، وجدناه قد تحول إلى حقائق حية تجسد فيها الكمال وأضحى سيرة رجل، وأدب أمة، وشعائر دين ضخم.

ذلكم هو أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ.

نحمد الله إذ وفقتنا الأقدار الميمونة لدراسة بعض معالمه، وإتاحة عرضها في إطار جديد.

* * *

وهذا الكتاب يعتبر حلقة ثانية بعد كتابنا «عقيدة المسلم».

وقد بدأناه بمقدمة عن الأخلاق في الإسلام، وصلتها بالتعاليم والعبادات الأخرى، وعن طبيعة النفس وآثار البيئة. . . الخ.

ثم ذكرنا ما أمر الإسلام به من فضائل، ولم نقصد إلى ترتيب معين في تقديم فضيلة على أخرى.

وآثرنا في هذا الكتاب أن نذكر مراجع النصوص على عكس ما ألف القارىء منا في الكتب السابقة.

ونحن نستشهد بالأحاديث المنسوبة إلى رسول الله ﷺ، إذا كانت من قبيل «الصحيح» لذاته أو لغيره، و «الحسن» لذاته أو لغيره، كما يقول علماء المصطلح.

وتلك خطة تحريناها، سواء ذكرنا المرجع، أم لم نذكره.

والسنن المنقولة هنا أثبتناها كما اقتبسناها من كتابي «تيسير الوصول» و «الترغيب والترهيب»، واكتفينا بذكر مصدر واحد للحديث إذا كانت مصادره كثيرة.

ولم نبذل جهداً يذكر في هذا التأليف، أكثر من أننا استفدنا كتابة الخير ويسرناه للمطالعين.

وبقي الجهد الأكبر الذي يتحمله الكاتب والقارىء على سواء، وهو حب الخير والسير على سننه القويم.

محمد الغزالي

المقدمة

أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق

لقد حدد رسول الإسلام الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١).

فكأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة.

والعبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً في الإيمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها. كلا، كلا، فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكاً بهذه الأخلاق، مهما تغيرت أمامه الظروف.

إنها أشبه بالتمارين الرياضية التي يقبل الإنسان عليها بشغف، ملتمساً من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة، يكشفان ـ بوضوح ـ عن هذه الحقائق.

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها، فقال:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾(٢).

---

(١) مالك.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

فالإبعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة، وقد جاء في حديث يرويه النبي عن ربه: «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطلْ على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب»[1].

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي - أولاً - غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات.

وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[2].

فتنظيف النفس من أدران النقص، والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى.

ومن أجل ذلك وسع النبي ﷺ في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال: «تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة»[3].

وهذه التعاليم في البيئة الصحراوية التي عاشت دهوراً على التخاصم والنزق تشير إلى الأهداف التي رسمها الإسلام، وقاد العرب في الجاهلية المظلمة إليها.

وكذلك شرع الإسلام الصوم، فلم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائماً من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة.

---

(١) البزار. (٢) التوبة: ١٠٣. (٣) البخاري.

وإقراراً لهذا المعنى قال الرسول ﷺ: «من لم يدع قول الزور، والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[1]!!

وقال: «ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث؛ فإن سابك أحد، أو جهل عليك، فقل: إني صائم»[2].

والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

وقد يحسب الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة ـ الذي كُلِّفَ به المستطيع واعتبر من فرائض الإسلام على بعض أتباعه ـ يحسب الإنسان هذا السفر رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، ومثلاً لما قد تحتويه الأديان أحياناً من تعبدات غيبية. وهذا خطأ، إذ يقول الله تعالى ـ في الحديث عن هذه الشعيرة ـ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ، وَلَا فُسُوقَ، وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[4].

* * *

هذا العرض المجمل لبعض العبادات التي اشتهر بها الإسلام، وعرفت على أنها أركانه الأصيلة، نستبين منه متانة الأواصر التي تربط الدين بالخلق.

إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها، ولكنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول ﷺ في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

فالصلاة والصيام والزكاة والحج، وما أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام، هي مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها. ولهذه السجايا الكريمة ـ التي ترتبط بها أو تنشأ عنها ـ أعطيت منزلة كبيرة في دين الله.

---

(١) البخاري.　(٢) ابن خزيمة.　(٣) البقرة: ١٨٣.
(٤) البقرة: ١٩٧.

فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه، وينقي لبه، ويهذب بالله وبالناس صلته، فقد هوى.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ، فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾[1].

ضعف الخُلُق دليل على ضعف الإيمان

الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثَمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم يذكر ـ بَعْدُ ـ ما يُكَلِّفُهُمْ به: ﴿. . اتَّقُوا اللهَ وَكُونوا مَعَ الصَّادِقِيْنَ﴾[2] مثلاً. .

وقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوي يلد الخلق القوي حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته.

فالرجل الصفيق الوجه، المعوج السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد. . يقول رسول الإسلام في وصف حاله: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر!»[3].

والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه!!»[4].

وتجد الرسول ﷺ ـ عندما يعلِّم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهذر ـ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[5].

---

(١) طه: ٧٣ ـ ٧٦. (٢) التوبة: ١١٩. (٣) الحاكم والطبراني.
(٤) البخاري. (٥) البخاري.

وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتي ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله.

* * *

على أن بعض المنتسبين إلى الدين، قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة، ويظهرون في المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم ـ في الوقت نفسه ـ يرتكبون أعمالاً يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق.

إن نبي الإسلام توعد هؤلاء الخالطين، وحذر أمته منهم.

ذلك أن التقليد في أشكال العبادات يستطيعه من لم يُشرب روحها، أو يرتفع لمستواها.

ربما قدر الطفل على محاكاة أفعال الصلاة وترديد كلماتها..

ربما تمكن الممثل من إظهار الخضوع وتصنع أهم المناسك..

لكن هذا وذاك لا يغنيان شيئاً عن سلامة اليقين، ونبالة المقصد.

والحكم على مقدار الفضل وروعة السلوك يرجع إلى مسبار لا يخطىء، وهو الخلق العالي!

وفي هذا ورد عن النبي أن رجلاً قال له: يا رسول الله؛ إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: «هي في النار» ثم قال: يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ـ بالقطع من الجبن ـ ولا تؤذي جيرانها. قال: «هي في الجنة»[1].

وفي هذه الإجابة تقدير لقيمة الخُلُق العالي وفيها ـ كذلك ـ تنويه بأن الصدقة عبادة اجتماعية، يتعدى نفعها إلى الغير، ولذلك لم يفترض التقلل منها كما افترض التقلل من الصلاة والصيام، وهي عبادات شخصية في ظاهرها.

---

(١) أحمد.

إن رسول الإسلام لـم يكتف بإجابة على سؤال عارض، في الإبانة عن ارتباط الخلق بالإيمان الحق، وارتباطه بالعبـادة الصحيحة، وجعله أسـاس الصلاح في الدنيا والنجاة في الأخرى.

إن أمر الخلق أهم من ذلك، ولا بد من إرشاد متصل، ونصائح متتابعة ليرسخ في الأفئدة والأفكار، أن الإيمان والصلاح والأخلاق، عناصر متلازمة متماسكة، لا يستطيع أحد تمزيق عراها.

لقد سأل أصحابه يوماً: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

ذلك هو المفلس: إنه كتاجر يملك في محله بضائع بألف، وعليه ديون قدرها ألفان، وكيف يعد هذا المسكين غنياً؟

والمتدين الذي يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادي الشر، كالح الوجه، قريب العدوان، كيف يحسب امرأً تقياً؟.

وقد روي أن النبي ضرب لهذه الحالات مثلاً قريباً، قال: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل»[2].

فإذا نمت الرذائل في النفس، وفشا ضررها، وتفاقم خطرها، انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ العريان من ثيابه، وأصبح ادعاؤه للإيمان زوراً، فما قيمة دين بلا خلق؟ وما معنى الإفساد مع الانتساب لله؟.

وتقريراً لهذه المبادىء الواضحة في صلة الإيمان بالخلق القويم، يقول النبي الكريم: «ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى وحج واعتمر، وقال إني مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[3].

---

(١) مسلم. (٢) البيهقي. (٣) مسلم.

وقال في رواية أخرى: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

وقال كذلك: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1].

نحو عالم أفضل

ظهر من هذه التعاليم أن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، وأنه اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عدَّ الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه وابتعاداً عنه.

فليست الأخلاق من مواد الترف، التي يمكن الاستغناء عنها، بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين، ويحترم ذويها.

وقد أحصى الإسلام بعدئذ الفضائل، وحث أتباعه على التمسك بها واحدة واحدة.

ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلي بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسِفْر لا يعرف مثله، لعظيم من أئمة الإصلاح.

وقبل أن نذكر تفاصيل هذه الفضائل، وما ورد في كل منها على حدة، نثبت طرفاً من دعوته الحارة إلى محامد الأخلاق، ومحاسن الشيم:

عن أسامة بن شريك قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحب عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: «أحسنهم خلقاً»[2].

---

(١) البخاري. (٢) الطبراني.

وفي رواية: «ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: خلق حسن»[1].

وقال: «إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإنّ أحسن الناس إسلاماً، أحسنهم خلقاً»[2].

وسئل: «أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: أحسنهم خلقاً»[3].

وعن عبدالله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ ـ فأعادها مرتين أو ثلاثاً ـ قالوا: نعم يا رسول الله؛ قال: أحسنكم خلقاً»[4].

وقال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، إن الله يكره الفاحش البذيء. وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[5].

هذا التصريح لو صدر عن فيلسوف يشتغل بشؤون الإصلاح الخلقي فحسب لما كان مستغرباً منه، إنما وجه العجب أن يصدر عن مؤسس دين كبير؛ والأديان ـ عادة ـ ترتكز في حقيقتها الأولى على التعبد المحض.

ونبي الإسلام دعا إلى عبادات شتى، وأقام دولة ارتكزت على جهاد طويل ضد أعداء كثيرين، فإذا كان ـ مع سعة دينه، وتشعب نواحي العمل أمام أتباعه ـ يخبرهم بأن أرجح ما في موازينهم يوم الحساب، الخلق الحسن. فإن دلالة ذلك على منزلة الخلق في الإسلام لا تخفى.

والحق أن الدين إن كان خلقاً حسناً بين إنسان وإنسان، فهو في طبيعته السماوية صلة حسنة بين الإنسان وربه، وكلا الأمرين يرجع إلى حقيقة واحدة.

إن هناك أدياناً تبشر بأن اعتناق عقيدة ما يمحو الذنوب، وأن أداء طاعة معينة يمسح الخطايا.

---

(١) ابن حبان. (٢) الترمذي. (٣) الطبراني.
(٤) أحمد. (٥) أحمد.

لكن الإسلام لا يقول هذا، إلا أن تكون العقيدة المعتنقة محوراً لعمل الخير، وأداء الواجب، وأن تكون الطاعة المقترحة غسلاً من السوء، وإعداداً للكمال المنشود. أي إنه لا يمحق السيئات إلا الحسنات التي يضطلع بها الإنسان، ويرقى صعداً إلى مستوى أفضل.

وقد حرص النبي ﷺ على توكيد هذه المبادىء العادلة، حتى تتبينها أمته جيداً، فلا تهون لديها قيمة الخلق، وترتفع قيمة الطقوس.

عن أنس: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وأشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».

وفي رواية: «إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل وصائم النهار»[2].

وعن ابن عمر: سمعت رسول الله يقول: «إن المسلم المسدد[3] ليدرك درجة الصوّام القوّام بآيات الله، بحسن خلقه وكرم طبيعته»[4].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»[5].

وروى عنه أبو ذر: «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة»[6].

* * *

وحسن الخلق لا يؤسس في المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر والنواهي المجردة، إذ لا يكفي في طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم

---

(١) الطبراني. (٢) أبو داود. (٣) المقتصد في العبادة.
(٤) أحمد. (٥) الحاكم. (٦) ابن حبان.

لغيره: افعل كذا، أو لا تفعل كذا. فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة، ويتطلب تعهداً مستمراً.

ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فالرجل السيء لا يترك في نفوس من حوله أثراً طيباً.

وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه، فيروعها أدبه، ويسبيها نبله، وتقتبس ـ بالإعجاب المحض ـ من خلاله، وتمشي بالمحبة الخالصة في آثاره.

بل لا بد ـ ليحصل التابع على قدر كبير من الفضل ـ أن يكون في متبوعه قدر أكبر، وقسط أجل.

وقد كان رسول الإسلام بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذي يدعو إليه، فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامي، بسيرته العاطرة، قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات.

عن عبدالله بن عمرو قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً»[1].

وعن أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفٍّ قط، ولا قال لشيء: لِمَ فعلت كذا؟ وهلاّ فعلت كذا![2].

وعنه: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، وكان إذا استقبله الرجل فصافحه، لا ينزع يده من يده، حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه، حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه، ولم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له[3] ـ يعني أنه يتحفظ مع جلسائه فلا يتكبر ـ.

وعن عائشة قالت: «ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه. وما انتقم رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري. (٢) مسلم. (٣) الترمذي.

لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم، وما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى»[(١)].

وعن أنس: كنت أمشي مع رسول الله وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله، وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك! فالتفت إليه رسول الله، وضحك، وأمر له بعطاء[(٢)].

وعن عائشة: قال رسول الله: «إن الله رفيق، يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه»[(٣)].

وفي رواية: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه».

وعن جرير أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل لَيُعْطي عَلَى الرفق ما لا يعطي على الخرق ـ الحُمْق ـ وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يُحْرَمون الرفق إلا حرموا الخير كله»[(٤)].

وسئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله يفعل في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله[(٥)] فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة»[(٦)].

وعن عبدالله بن الحارث: ما رأيت أحداً أكثر تَبَسُّماً من رسول الله ﷺ![(٧)].

وعن أنس: كان رسول الله أحسن الناسِ خلقاً، وكان لي أخ فطيم، يُسمى أبا عُمَيْر، لديه عصفور مريض اسمه النُغَير، فكان رسول الله يلاطف الطفل الصغير ويقول له: يا أبا عمير، ما فعل النغير![(٨)].

---

(١) مسلم. (٢) البخاري. (٣) مسلم.
(٤) الطبراني. (٥) أي خدمتهم. (٦) مسلم.
(٧) الترمذي. (٨) البخاري.

والمعروف في شمائل الرسول ﷺ أنه كان سمحاً لا يبخل بشيء أبداً، شجاعاً لا ينكص عن حق أبداً، عدلاً لا يجور في حكم أبداً، صدوقاً أميناً في أطوار حياته كلها.

وقد أمر الله المسلمين أن يقتدوا به في طيب شمائله وعريق خلاله فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾(١).

قال القاضي عياض:

كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله راجعاً، قد سبقهم إليه واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ والسيف في عنقه، وهو يقول: لن تراعوا.

وقال علي رضي الله عنه: إنا كنا - إذا حمي البأس وَاحْمَرَّتِ الْحَدَق - نتقي برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى عدو منه.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: ما سئل النبي ﷺ فقال: لا.

وقد قالت له خديجة: «إنك تحمل الكَلَّ وَتُكْسِب المعدوم، وَتُعِين على نوائب الحق».

وَحُمِلَ إليه سبعون ألف درهم، فَوُضِعَتْ على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً؛ حتى فرغ منها.

وجاءه رجل فسأله، فقال له: ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه! فكره النبي ﷺ ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم ﷺ، وَعُرِف البشر في وجهه، وقال: بهذا أُمِرْتُ.

---

(١) الأحزاب: ٢١.

وكان رسول الله ﷺ يؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم.

ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْرَه ولا خلقه.

يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

من جالسه، أو قاربه لحاجة صَابَرَهُ، حتى يكون هو المنصرف عنه.

ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول.

قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء.

وكان دائم البشر، سهل الطبع، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب؛ ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه قاصده.

وكان دائم البشر، سهل الطبع، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب؛ ولا فحاش، ولا عتَّاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه قاصده.

وعن عائشة رضي الله عنها: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: لَبَّيْكَ.

وقال جرير بن عبدالله رضي الله عنه: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم.

وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحاريهم، ويداعب صبيانهم ويُجْلِسُهُمْ في حِجْرِه.

ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر.

قال أنس: ما التقم أحد أذن رسول الله ناجاه فينحِّي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه المصافحة.

لم يُرَ قَطُّ مادًّاً رجليه بين أصحابه فيضيق بهما على أحد.

يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى.

ويكنِّي أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يجور فيقطعه بانتهاء أو قيام.

وعن أنس: كان النبي ﷺ إذا أتي بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة(١).

وعن عائشة قالت: ما غِرْتُ على امرأة، ما غرت على خديجة، لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها. واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها. ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان.

وكان يصل ذوي رحمه، من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

عن أبي قتادة: لما جاء وفد النجاشي قام النبي ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم.

وعن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله متوكئاً على عصا، فقمنا له فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً.

وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، وكان يركب الحمار، ويُرْدف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس.

---

(١) وقد كان ذلك بعد وفاتها.

وحج رسول الله ﷺ على رحلٍ رَثّ عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم، فقال: اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة.

ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأ رأسه على راحلته حتى كاد يمس قادمته، تواضعاً لله تعالى.

وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ويعرض عمن تكلم بغير جميل.

وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فَصْلاً، لا فضول فيه ولا تقصير.

وكان ضَحِكُ أصحابه عنده التبسم، توقيراً له واقتداءً به.

مجلسه مجلس حلم وخير وأمانة، لا تُرْفَعُ فيه الأصوات، ولا تخدش فيه الحُرُمُ، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير.

وإذا مشى مشى مجتمعاً، يعرف في مشيته أنه غير ضجر ولا كسلان.

قال ابن أبي هالة: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر.

وقالت عائشة: كان يحدِّث حديثاً، لو عدَّه العادُّ أحصاه.

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة؛ ويستعملها كثيراً.

وقد سيقت إليه الدنيا بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها، فأعرض عن زهرتها، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله.

الإنسان بين الخير والشر

الإسلام ـ كسائر رسالات السماء ـ يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يكرس جهوداً ضخمة للتغلغل في أعماقها وغرس تعاليمه في جوهرها حتى تستحيل جزءاً منها.

وما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين إلا لأن (النفس

الإنسانية) كانت موضوع عملها ومحور نشاطها، فلم تكن تعاليمهم قشوراً ملصقة فتسقط في مضطرب الحياة المتحركة، ولا ألواناً مفتعلة تَبْهَتُ على مَرِّ الأيام.. لا.. لقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس، فأصبحت هذه المبادىء قوة تهيمن على وساوس الطبيعة البشرية، وتتحكم في اتجاهاتها.

وربما تحدثت رسالات السماء عن المجتمع وأوضاعه، والحكم وأنواعه، وقدمت أدوية لما يعرو[1] هذه النواحي من علل.

ومع ذلك فالأديان لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المفضَّل لكل إصلاح، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة.

وليس في هذا تهوين ولا غض من عمل الساعين لبناء المجتمع والدولة؛ بل هو تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء.

فالنفس المختلة، تثير الفوضى في أحكم النظم، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلة ويشرق نُبْلُها من داخلها، فتحسن التصرف والمسير، وسط الأنواء والأعاصير.

إن القاضي النزيه يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به، أما القاضي الجائر فهو يستطيع الميل بالنصوص المستقيمة. وكذلك نفس الإنسان حين تواجه ما في الدنيا من تيارات وأفكار، ورغبات ومصالح.

ومن هنا كان الإصلاح النفسي الدعامة الأولى لتغليب الخير في هذه الحياة.

فإذا لم تصلح النفوس أظلمت الآفاق، وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ؛ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[2]. ويقول ـ مُعلِّلاً هلاكَ الأمم الفاسدة ـ : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ

(١) يعرو: يصيب. (٢) الرعد: ١١.

الْعِقَابِ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(١).

والإسلام ـ في علاجه للنفس ابتغاء إصلاحها ـ ينظر إليها من ناحيتين:

أن فيها فطرة طيبة، تَهْفُو إلى الخير، وتُسَرُّ بإدراكه، وتأسى للشر وتحزن من ارتكابه، وترى في الحق امتداد وجودها وصحة حياتها.

وأن فيها ـ إلى جوار ذلك ـ نزعات طائشة، تشرد بها عن سواء السبيل، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر، وَيُسِفُّ بها إلى مُنْحَدَرٍ سحيق.

ولا يهمنا أن نستقصي أصول هذه النزعات السيئة من الناحية التاريخية، لنعرف أهي طارئة على فطرة الإنسان، أم مخلوقة معها، وإنما يهمنا أن هذه وتلك موجودتان في الإنسان، تتنازعان قياده، ومصيرُه معلق بالناحية التي يستسلم لها.

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٢).

وعمل الإسلام هو إسداء المعونة الكاملة للإنسان، كي يدعم فطرته ويجلي أشعتها، ويسير على هديها.

وكي يتخلص ـ كذلك ـ من وساوس الإثم التي تراوده، وتحاول السقوط به.

وقد وصف الإسلام نفسه بأنه دين الفطرة الخالصة من هذه الشوائب جمعاء؛ قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنِيفاً. فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

إن وظيفة العين أن تبصر، ما لم يلحقها عمى، ووظيفة الأذن أن تسمع، ما لم يُصبها صمم، ووظيفة الفطرة أن تستقيم مع الحق، وتتدافع إليه تَدَفُّع الماء

---

(١) الأنفال: ٥٢، ٥٣. (٢) الشمس: ٧ ـ ١٠. (٣) الروم: ٣٠.

من صبب؛ ذلك ما لم يطرأ عليه تشويه، يلوي عنانها ويثنيها عن وجهتها الأولى إلى الكمال والخير والفضيلة.

وهذه الطوارىء المفسدة للفطرة، قد تتكون من رواسب القرون الماضية، أو من تقاليد البيئات الساقطة، أو من كليهما معاً. وهي شديدة الخطر فيما تجره على الفطرة البشرية من علل، وجهاد المصلحين الحقيقي يقوم على كفاحها وكسر حدتها، وإنقاذ الفطرة من غوائلها، حتى تعود إلى صفائها الأصيل وتؤدي وظيفتها الحقة. وقد شرح الإسلام طريق ذلك.

فبعد أن تقرأ في كتاب الله الآية السابقة في أن الدين هو الفطرة، تقرأ قوله تعالى: ﴿... مُنِيبِينَ إِلَيْهِ. وَاتَّقُوهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[1].

الإيمان لا الإلحاد، والتقوى لا الفجور، ووحدة المتدينين على ربهم لا تفرقهم فيه: هذه النصائح هي باب العودة بالإنسان إلى فطرته المستقيمة. وقد كرر القرآن الكريم هذا المعنى في قوله: ﴿لقد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2].

ذلك التقويم الحسن، هو معرفة الحق والاستمساك به، والسير على مقتضاه، هو الولوع بالفضل والنبل، ورعايتهما في منطق المرء مع نفسه ومع الناس. وهو نشدان الكمال في نسقه العالي، وتغليبه على كل شيء في الحياة.

بَيْدَ أن كثيراً من الناس، تثقل بهم أهواؤهم دون هذا المستوى العالي، فيخلدون إلى الأرض، ثم تجمح بهم أهواؤهم المتعبة، فينحدرون إلى مكان سحيق. وذلك هو أسفل سافلين، الذي يردهم الله إليه.

هذا الرد الإلهي، خاضع لقوانين الهداية والإضلال، وهي قوانين عادلة دقيقة، ذكرها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

(١) الروم: ٣١، ٣٢. (٢) التين: ٤ - ٦. (٣) التوبة: ١١٥.

وقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِيْنَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُو عَنْهَا غَافِلِيْنَ﴾[1].

ومن الذي يبقى على تقويمه الحسن، وينجو من الارتكاس في الدنيا السافلة؟ الجواب في الآية: ﴿.. إِلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[2].

وقد علمت أن الخلق الحسن، هو الثمرة الدانية للإيمان الواضح والعمل الصالح.

* * *

ذلكم موقف الإسلام من فطرة الإنسان الطيبة، ونهجه في تدعيمها.

أما عمله مع طبائع المرء الشريرة الأخرى، فهو التنبيه إليها، والعمل على إسلاس قيادها، وجعله خاضعاً لتصريف العقل الرشيد، ومنطق الفطرة الطيبة.

أشار النبي إلى بعض هذه الطباع بقوله: «يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل»[3]. وقوله: «شر ما في الإنسان جبن هالع، وشح خالع»[4] وقوله: «لو أن ابن آدم أعطي وادياً من ذهب أحب إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً أحب إليه ثالثاً، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[5].

وأشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الطباع بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالأَنْعَامِ والْحَرْثِ، ذلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[6].

وأول ما يلفت الإسلام نظر المرء إليه، أن الجري مع الهوى، والانصياع مع وساوسه التي لا تنقضي، لن يشبع النفس، ولن يرضي الحق.

(١) الأعراف: ١٤٦. (٢) التين: ٦. (٣) مسلم.
(٤) أبو داود. (٥) البخاري. (٦) آل عمران: ١٤.

فالنفس كلما ألفت موطناً لشهواتها أحبت الانتقال منه إلى موطن آخر.

وهي في رتعها الدائم لا تبالي بارتكاب الآثام واقتراف المظالم.

ومن ثمَّ حذر القرآن من اتباع هذه الأهواء المحرمة: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(١).

ويقول ـ عن مسالك الكافرين وضرورة معارضتها ـ:
﴿. . . وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ. بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾(٢).

ولا بد من التفريق بين أهواء النفس المحرمة ومطالبها المعقولة المقررة، فإن كثيراً من المتدينين يخلط خلطاً سيئاً بين الأمرين.

وذلك أن الإنسان إذا كانت له مطالب من متاع الحياة وسعتها التي لا حرج فيها، فأُفهِمَ خطأً أن هذه المطالب من الرذائل المحظورة فستكون النتيجة أن يقبل على هذه المطالب المحتومة بضمير من يستبيح الجرائم، ويرضى بالتدلي إليها، وضميره في الحقيقة ضحية خطأ شنيع.

ولكنه ما دام قد فهم أنه أصبح مسيئاً، وأن الرذيلة جزء من حياته، فسينتقل منها إلى عمل منكرات أشد، أي: منكرات حقيقية في هذه المرة!

وقد لاحظ القرآن الكريم هذه الناحية، فنص في صراحة على إباحة الرغائب السليمة للنفس، وترك لها فرصة التوسع الطيب، وعدَّ التدخل بالحظر والتحريم والتضييق على النفس ـ في هذه الدائرة الكريمة ـ قريناً لعمل السوء والفحشاء! لأنه مدرجة إلى عمل السوء والفحشاء.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً، وَلَا

(١) ص: ٢٦.
(٢) المؤمنون: ٧١.

تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

أجل، إن حظرَ الحلال الطيب قولٌ على الله بلا علم، وهو أخو السوء والفحشاء، اللذين يأمر بهما الشيطان.

يكره الإسلام أن تُعالَج الغرائز بالكبت العنيف، وأن تتملق بالإسراف البالغ، ويشرع لها المنهج الوسط، بين الإفراط والتفريط.

* * *

وكما أن ضوابط الفطرة الخيرة في الإيمان والإصلاح، لا في الإلحاد والإباحية؛ فكذلك ضوابط هذه الغرائز النزقة[2].

وفي كلتا الحالين، لن يكون السياج المتين، إلا في الخلق المكين.

فحيث يَصف القرآن الإنسان بالضعف والتردد، والأثرة، يذكر أن النظافة من هذه الرذائل عن طريق الدين ووصاياه فحسب: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً. إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ. وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ. وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ. وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[3] ... إلخ.

والمعروف أن الخُلُقَ لا يتكون في النفس فجأة، ولا يولد قوياً ناضجاً، بل يتكون على مكث وينضج على مراحل.

وهذا سر ارتباط نمائه بأعمال متكررة، وخِلالٍ لها صفة الدوام كالصلاة والزكاة، والتصديق بيوم الجزاء، والإشفاق من عقاب الله.. إلخ.

وإذا كانت الطباع الرديئة دائمة الإلحاح على صاحبها، تحاول العوج بسلوكه بين الحين والحين، فلن يكفكف شرها علاج مؤقت.

---

(١) البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩. (٢) النزقة: الطائشة المستهترة. (٣) المعارج: ١٩ ـ ٢٩.

وإنما يسكن ثوراتها عاملٌ لا يقل قوة عنها، يعيد التوازن على عجل إذا اختل.

* * *

والخلاصة، أن الإسلام يحترم الفطرة الخالصة، ويرى تعاليمه صدى لها. ويحذر الأهواء الجامحة، ويقيم السدود في وجهها. والعبادات التي أمر بها هي تدعيم للفطرة، وترويض للهوى، ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدي رسالتها إلا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالي، والمسلك المستقيم.

الحدود على الجرائم الخلقية

الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن؛ فالحرية النفسية والعقلية أساس المسؤولية.

والإسلام يقدر هذه الحقيقة ويحترمها، وهو يبني صرح الأخلاق.

ولماذا يلجأ إلى القسر في تعريف الإنسان معنى الخير، أو توجيه سلوكه إليه، وهو يحسن الظن بالفطرة الإنسانية، ويرى أن إزاحة العوائق من أمامها كافية لإيجاد جيل فاضل؟.

إن فطرة الإنسان خيرة، وليس معنى هذا أنه ملاك لا يحسن إلا الخير بل معنى هذا أن الخير يتواءَمُ مع طبيعته الأصيلة، وأنه يُؤْثِرُ اعتناقه والعمل به كما يؤثر الطير التحليق، إذا تخلص من قيوده وأثقاله.

فالعمل الصحيح في نظر الإسلام هو تحطيم القيود وإزالة الأثقال أولاً، فإذا جثم الإنسان على الأرض بعدئذ، ولم يستطع سمواً، نظر إليه على أنه مريض، ثم يُسِّرَت له أسباب الشفاء.

ولن يُصْدِرِ الإسلامُ حكماً بعزل هذا الإنسان عن المجتمع إلا يوم يكون بقاؤه فيه مثار شَرٍّ على الآخرين.

في حدود هذه الدائرة يحارب الإسلام الجرائم الخلقية، فهو يفترض ابتداءً أن الإنسان يجب أن يعيش من طريق شريف، وأن يحيا على ثمرات

كفاحه وجهده الخاص أي أنه لا يبني كيانه على السرقة.

ما الذي يحمله على السرقة؟ احتياجه إلى ما يقيم أوده؟ فلْيُوَفَّر له من الضرورات والمرفهات ما يغنيه عن ذلك.

وتلك فريضة على المجتمع، إن قصر فيها فألجأ فرداً إلى السرقة، فالجريمة هنا يقع وزرها على المجتمع المفرِّط، لا على الفرد المضيَّع.

فإن كُفِلَتْ للفرد ضروراته ثم مدَّ بعد ذلك يده، محصت حالته جيداً قبل إيقاع العقوبة عليه، فلعلَّ هناك شبهة تثبت أن فيه عرقاً ينبض بالخير، والإبطاء في العقاب مطلوب ديناً، إلى حد أن يقول الرسول ﷺ: «إن الإمام لأن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقاب».

فإذا تبين مِن تتبع أحوال الشخص أن فطرته الْتَاثَتْ، وأنه أصبح مصدر عدوان على البيئة التي كفلته وآوته، وأنه قابل عطفها وعنايتها بتعكير صفوها وإقلاق أمنها، فلا ملام على هذه البيئة إذا حدَّت من عدوان أحد أفرادها، فكسرت السلاح الذي يؤذي به غيره.

وقد وصف القرآن اللصوصية التي تستحق قطع اليد، بأنها لصوصية الظلم والإفساد وقال في هذا السارق المعاقب: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

فالحدُّ الذي شرعه الإسلام، هو وقاية للجماعة العادلة المصلحة، من ضراوة عضو فيها، يقابل عدالتها بالظلم، ويقابل إصلاحها بالفساد.

* * *

ذلك مثلٌ نسوقه لنبين به أن الحدود على الجرائم الخلقية، لم تشرع إكراهاً على الفضيلة، وإلجاءً للناس - بطريق القسوة - إلى اتخاذ المسالك الحسنة.

فالطريقةُ المُثْلَى لدى الإسلام هي خطاب القلب الإنساني، واستثارة أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال، ورجعه إلى الله بارئه الأعلى، بأسلوب

---

(١) المائدة: ٣٩.

سائغ من الإقناع والمحبة، وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا كله.

ويجب التحكم في ظروف البيئة، التي تكتنف الإنسان حتى تعين على إنضاج المواهب والسجايا الحسنة.

ولا حرج من خلع الْطُفَيْلِيَّات التي لا فائدة منها، فنحن في حقول الزراعات المختلفة نوفر النماء للمحاصيل الرئيسية، باقتلاع كثير من الحشائش والأعشاب!!.

وليست المحافظة على مصلحة الإنسانية العامة بأقل من ذلك خطراً، فلا وجه لاستنكار الحدود التي أقرها الإسلام وسبقت بها التوراة، وَاعْتُبِرَتْ شريعة الأديان السماوية عامة.

* * *

والإسلام يُحَمِّل البيئة قسطاً كبيراً من تَبِعَةِ التوجيه إلى الخير أو الشر، وإشاعة الرذائل أو الفضائل.

واتجاهه إلى تولي مقاليد الحكم يعود ـ فيما يعود إليه من أسباب ـ إلى الرغبة في تشكيل المجتمع على نَحْوٍ يُعِينُ على العفاف والاستقامة.

وقد روى النبي عليه الصلاة والسلام قصة القاتل الذي يبتغي التوبة من جرائمه، وأنه «سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم. فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، من يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»[1].

وفي رواية أنه أتى راهباً فسأله: «هل تجد لي من توبة؟ فقال له: قد أسرفْتَ وما أدري، ولكن ها هنا قريتان، قرية يقال لها: نصرة، والأخرى يقال لها: كفرة؛ فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة، لا يثبت فيها غيرهم،

(١) البخاري.

وأما أهل كفرة فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم، فانطلق إلى أهل نصرة؛ فإن ثبتَّ فيها وعملتَ عمل أهلها، فلا شك في توبتك»[1].

* * *

من هنا يرى الإسلام أن ملاحظة البيئة وتقدير آثارها في تكوين الخلق، عاملٌ ينضم إلى ما سبق تقريره من حراسة الفطرة السليمة، وتهذيب الأهواء الطائشة.

ونظن أن في العناية بهذه النواحي جميعاً ضماناً لإيجاد مجتمعٍ نقيٍّ يَزْخَرُ بأزكى الصفات وَأَعَفِّ السِّيَر.

دائرة الأخلاق تشمل الجميع

قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سِمَات مُمَيِّزة له.

ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة، لا صلة لغيرهم بها.

غير أن التعاليم الخلقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم.. إلخ.

وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْهُم. وقُولُوا: آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾[2].

واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحادّ: ﴿قُلْ: أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾[3].

---

(١) الطبراني. (٢) العنكبوت: ٤٦. (٣) البقرة: ١٣٩.

وحدث أن يهودياً كان له دَين على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْلٌ!! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدِّبَ هذا المُتَطاوِل على مقام الرسول، وهمَّ بسيفه، يبغي قتله.

لكن الرسول ﷺ أَسْكَتَ عمر قائلاً: «أنا وهو أولى منك بغير هذا: تَأْمُرُه بحسن التقاضي، وتأمرني بحسن الأداء».

وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر.

قال عليه الصلاة والسلام: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»[1].

وقال: «دعوة المظلوم ـ وإن كان كافراً ـ ليس دونها حجاب. دع مَا يَريبك إلى ما لا يَريبك»[2].

وبهذه النصوص، منع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة، نحو مخالفيهم في الدين.

ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى، ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[3].

وكذلك أمر الإسلام أن يصل الإنسان رَحِمَهُ، ولو كفروا بدينه الذي اعتنقه، فإن التزامه للحق لا يعني المجافاة للأهل ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

* * *

ذلك من الناحية الشخصية. أما من الناحية العامة، فقد قرر الإسلام أن بقاء الأمم وازدهار حضارتها، واستدامة مَنْعتها، إنما يُكفَل لها، إذا ضُمِنَتْ حياة الأخلاق فيها، فإذا سقط الخلق سقطت الدولة معه..

---

(١) أحمد. (٢) أحمد. (٣) البخاري.
(٤) لقمان: ١٥.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته. فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها.

ولكن النبي أفهمهم ألاَّ دوام لملكهم إلا بالخلق وحده.

فعن أنس بن مالك قال: كنا في بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار، فأقبل علينا رسول الله ﷺ، فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه.. ثم قام إلى الباب فأخذ بعضادتيه[1]، فقال: «الأئمة من قريش ولي عليكم حق عظيم، ولهم ذلك ما فعلوا ثلاثاً. إذا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[2].

هذا الحديث حاسم في أنه لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل في العالم من صفات عالية، وما تحقق من أهداف كريمة.

فلو أن حُكْماً حمل طابع الإسلام والقرآن، ثم نظر الناس إليه فوجدوه لا يعدل في قضية، ولا يرحم في حاجة، ولا يوفي في معاهدة، فهو باسم الإسلام والقرآن قد انسلخ عن مقوماته الفاضلة، وأصبح أهلاً لأن يلعن في فجاج الأرض وآفاق السماء.

وروى الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بقوم خيراً ولَّى أمرهم الحكماء، وجعل المال عند السمحاء، وإذا أراد الله بقوم شراً ولَّى أمرهم السفهاء، وجعل المال عند البخلاء»[3].

من أقوال الإمام ابن تيمية: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة).

* * *

إن الخلق في منابع الإسلام الأولى ـ من كتاب وسنة ـ هو الدين كله، وهو الدنيا كلها. فإن نقصت أمة حظاً من رفعة في صلتها بالله، أو في مكانتها بين الناس فبقدر نقصان فضائلها وانهزام خلقها.

(١) عُضَادَتَيْه: أي مصراعيه. (٢) الطبراني. (٣) أبو داود.

الصّـــدق

إن الله خلق السموات والأرض بالحق، وطلب إلى الناس أن يبنوا حياتهم على الحق، فلا يقولوا إلا حقاً ولا يعملوا إلا حقاً.

وحيرة البشر وشقوتهم، ترجع إلى ذهولهم عن هذا الأصل الواضح، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام على أنفسهم وأفكارهم، أبعدتهم عن الصراط المستقيم، وشردت بهم عن الحقائق التي لا بد من التزامها.

ومن هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن، وتحريه في كل قضية، والمصير إليه في كل حكم، دعامة ركينة في خلق المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه. وكذلك كان بناء المجتمع في الإسلام قائماً على محاربة الظنون، ونبذ الإشاعات واطراح الريب، فإن الحقائق الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب، وأن تعتمد في إقرار العلاقات المختلفة.

قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإنَّ الظن أكذب الحديث»[١] وقال: «دع ما يـريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[٢].

وقد نعى القرآن على أقوام جريهم وراء الظنون التي ملأت عقولهم بالخرافات، وأفسدت حاضرهم ومستقبلهم بالأكاذيب فقال:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِم

---

(١) البخاري. (٢) الترمذي.

الْهُدَى﴾[1]. وقال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[2].

والإسلام ـ لاحترامه الشديد للحق ـ طارد الكذابين، وشدد عليهم بالنكير.

عن عائشة أم المؤمنين قالت: «ما كان من خُلقٍ أبغضَ إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ما اطَّلع على أحد من ذلك بشيء فَيَخْرُجَ من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»[3].

وفي رواية عنها: «ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب. ولقد كان الرجل يكذب عنده الكِذْبة، فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة»[4].

ولا غرو، فلقد كان السلف الصالح يتلاقون على الفضائل ويتعارفون بها، فإذا أساء أحدٌ السيرة وحاول أن ينفرد بمسلك خاطىء، بدا ـ بعمله هذا ـ كالأجرب بين الأصحاء، فلا يطيب له مقام بينهم حتى يبرأ من علته.

وكانت المعالم الأولى للجماعة المسلمة صدْقَ الحديث، وَدِقَّةَ الأداء، وضبط الكلام.

أما الكذب والإخلاف، والتدليس والافتراء، فهي أمارات النفاق، وانقطاع الصلة بالدين؛ أو هي اتصال بالدين على أسلوب المدلِّسين والمفترين! أي على أسلوب الكذابين في مخالفة الواقع.

* * *

والكذب رذيلة محضة تُنبىءُ عن تغلغل الفساد في نفس صاحبها، وعن سلوك ينشىء الشر إنشاء، ويندفع إلى الإثم من غير ضرورة مزعجة، أو طبيعة قاهرة.

هناك رذائل يُلْتاث بها الإنسان، تشبه الأمراض التي تعرض للبدن، ولا

---

(١) النجم: ٢٣. (٢) النجم: ٢٨. (٣) أحمد.
(٤) ابن حبان.

يصحو منها إلا بعد علاج طويل. كالخوف الذي يتلعثم به الهيَّابون، أو الحرص الذي تنقبض به الأيدي.

إن بعض الناس إذا جُنِّدَ للجهاد المفروض، تقدم إليه وجلده مقشعرّ، وإن بعضهم إذا استخرجت منه الزكاة الواجبة، أخذ يعدُّها وأصابعه تُرْعَشُ. وهذه الطِّبَاع التي تَتَأَثَّر بالجبن أو بالبخل، غير الطبائع التي تُقْبِلُ على الموت في نزق، وتبعثر المال بغير حساب.

وقد تكون هناك أعذار لمن يشعرون بوساوس الحرص أو الخوف، عندما يوقفون في ميادين التضحية والفداء!!

ولكنه لا عذر البتة لمن يتخذون الكذب خلقاً ويعيشون به على خديعة الناس.

قال رسول الله ﷺ: «يطبع المؤمن على الخلال كلها، إلا الخيانة والكذب»[1].

وسئل رسول الله ﷺ: «أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم! قيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم! قيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا...»[2].

وهذه الإجابات تشير إلى ما أسلفنا بيانه، من نوازع الضعف والنقص التي تخامر بعض الناس ثم يتغلبون عليها بعد لأي، عندما يواجهون بالفريضة المحكمة أو الضريبة الحاسمة، وهي لا تعني أبداً تسويغ البخل، أو تهوين الجبن؛ كيف ومنع الزكاة وترك الجهاد بابان إلى الكفران؟

وكلما اتسع نطاق الضرر إثر كذبة يشيعها أفاك جريء كان الوزر عند الله أعظم، فالصحافي الذي ينشر على الألوف خبراً باطلاً، والسياسي الذي يعطي الناس صوراً مقلوبة عن المسائل الكبرى، وذو الغرض الذي يتعمد سَوْق التهم إلى الكبراء من الرجال والنساء، أولئك يرتكبون جرائم أشق على أصحابها وأسوأ عاقبة.

وقال النبي ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني، قالا لي: الذي رأيته يشق

---

(١) أحمد.

(٢) مالك.

شدقه فكذاب، يَكْذِبُ الكِذْبَةَ فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة..»[1].

ومن هذا القبيل كذب الحكام على الشعوب، فإن كِذْبَةَ المنبر بَلْقَاءُ مشهورة.

وفي الحديث. «ثلاثة لا يدخلون الجنة: الشيخ الزاني، والإمام الكذّاب، والعائل المزهوّ»[2] ـ الفقير المتكبر ـ.

والكذب على دين الله من أقبح المنكرات، وأول ذلك نسبة شيء إلى الله أو إلى رسوله لم يقله.

وهذا الضرب من الافتراء فاحش في حقيقته، وخيم في نتيجته.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ كذباً عَلَيَّ ليس كَكَذِبٍ على أحد، فمن كذب عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار»[3].

ويدخل في نطاق هذا الافتراء سائر ما ابتدعه الجهال، وأقحموه على دين الله من محدثات لا أصل لها عدَّها العوام ديناً، وما هي بدين، ولكنها لهو ولعب!

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلى مصادر هذه البدع المنكرة، وحذر من الانقياد إلى تيارها، ومسَّك المسلمين بآي كتابهم وسنة سلفهم قال: «يكون في آخر أمتي أناس دَجَّالون كذَّابون يحَدِّثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم! فإياكم وَإيَّاهم، لا يُضِلُّونَكُم ولا يفتنونكم»[4].

والإسلام يوصي أن تُغْرَس فضيلة الصدق في نفوس الأطفال، حتى يَشِبُّوا عليها، وقد أَلِفوها في أقوالهم وأحوالهم كلها.

فعن عبدالله بن عامر قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: تعال أعطك، فقال لها ﷺ: «ما أردت أن تعطيه؟» قالت:

---

(١) البخاري. (٢) البزار. (٣) البخاري.
(٤) مسلم.

أردت أن أعطيه تمراً، فقال لها: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كُتِبَتْ عليك كذبة!!»[1]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال لصبي: تعال، هاك، ثم لم يعطه فهي كذبة»[2].

فانظر كيف يعلِّم الرسول ﷺ الأمهات والآباء أن يُنَشِّئوا أولادهم تنشئة يقدسون فيها الصدق، ويتنزهون عن الكذب. ولو أنه تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهيِّنة لَخُشِيَ أن يكبر الأطفال، وهم يعتبرون الكذب ذنباً صغيراً ـ وهو عند الله عظيم ـ.

وقد مشت الصرامة في تحري الحق، ورعاية الصدق، حتى تناولت الشؤون المنزلية الصغيرة.

عن أسماء بنت يزيد قالت: يا رسول الله، إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه، لا أشتهيه، يُعَدُّ ذلك كذباً؟ قال: «إن الكذب يكتب كذباً حتى تكتب الكُذَيْبَة كُذَيْبَة»[3].

وقد أحصى الشارع مزالق الكذب، وأوضح سوء عقباها، حتى لا يبقى لأحد مَنْفَذٌ إلى الشرود عن الحقيقة، أو الاستهانة بتقريرها.

فالمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح!! حاسباً أن مجال اللهو لا حظر فيه على إخبار أو اختلاق. ولكن الإسلام الذي أباح الترويح عن القلوب لم يرضَ وسيلة لذلك إلا في حدود الصدق المحض، فإن في الحلال مندوحة عن الحرام وفي الحق غَناء عن الباطل.

قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك منه القوم فيكذب، وَيْلٌ له، وَيْلٌ له»[4].

وقال: «أنا زعيم ببيت في وسط الجنة، لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً»[5].

وقال: «لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقاً»[6].

(١) أبو داود. (٢) أحمد. (٣) مسلم.
(٤) الترمذي. (٥) البيهقي. (٦) أحمد.

والمشاهد أن الناس يطلقون العنان لأخيلتهم في تلفيق الأضاحيك، ولا يحسون حرجاً في إدارة أحاديث مفتراة على ألسنة خصومهم أو أصدقائهم ليتندروا بها أو يسخروا منهم، وقد حرم الدين هذا المسلك تحريماً تاماً؛ إذ الحقُّ أن اللهو بالكذب، كثيراً ما ينتهي إلى أحزان وعداوات.

* * *

وتَمَدُّح الناس مَدْرَجَةٌ إلى الكذب. والمسلم يجب أن يحاذر حينما يُثْني عَلَى غيره فلا يذكر إلا ما يعلم من خير، ولا يجنح إلى المبالغة في تضخيم المحامد وَطَيِّ المثالب. ومهما كان الممدوح جديراً بالثناء فإن المبالغة في إطرائه ضَرْبٌ من الكذب المحرم.

وقد قال رسول الله ﷺ لمادحيه: «لا تُطْروني كما أطرتِ النصارى ابن مريم! فإنما أنا عبد؛ فقولوا: عبدُالله ورسوله»[1].

وهناك فريق من الناس يتخذ المدائح الفارغة بضاعة يتملَّق بها الأكابر ويصوغ من الشعر القصائد المطولة، ومن النثر الخطب المرسلة، فيَكِيل الثناء جزافاً ويَهْرِف بما لا يعرف، وربما وصف بالعدالة الحكام الجائرين، ووصف بالشجاعة الأغبياء الخوارين، ابتغاء عَرَض من الدنيا عند هؤلاء وأولئك.

هذا الصنف من الأذناب الكَذَبَة، أوصى الرسول ﷺ بمطاردتهم حتى يرجعوا من تزويرهم بوجوه عَفَّرَها الخزي والحرمان.

عن أبي هريرة قال: أمرنا رسول الله أن نحثُوَ في وجوه المدَّاحين التراب[2].

وقد ذكر شُرَّاح الحديث، أن المدَّاحين المعنيين هنا (هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة، يستأكلون به الممدوح، فأما من مدح على الأمر الحسن والفعل المحمود ـ ترغيباً في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به ـ فليس بمداح).

والحدود التي يقف عندها المسلم، ويخرج بها من تَبِعَةِ المَلَق والمبالغة

(١) رزين. (٢) الترمذي.

وينفع بها ممدوحه، فلا يزله إلى العجب والكبرياء، قد بينها النبي الحكيم.

فعن أبي بَكْرة قال: أثنى رجل على رجل عند رسول الله، فقال له: «ويحك قطعت عنق صاحبك ـ قالها ثلاثاً ـ ثم قال: من كان مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسَب فلاناً ـ والله حسيبه، ولا يزكي على الله أحد ـ أحسب فلاناً كذا وكذا. إن كان يعلم ذلك منه»[1].

* * *

والتاجر قد يكذب في بيان سلعته وعرض ثمنها، والتجارات عندنا تقومُ على الطمع البالغ، البائع يريد الغلو، والشاري يريد البخس، والأثرة هي التي تسود حركات التبادل في الأسواق والمحال.

وقد كره الإسلام هذه المعاملة الجشعة، وما يَشُوبَها من لَغْوٍ وَمِراءٍ.

قال رسول الله: «البَيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البَيِّعان وَبَيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما فعسى أن يربحا ربحاً ما، ويمحق بركة بيعهما» وفي رواية: «محقت بركة بيعهما. . اليمين الفاجرة مَنْفَقَةٌ للسلعة مَمْحَقة للكسب»[2].

ومن المشترين رجال يقبلون على الباعة وهم قليلو الخبرة، سريعو التصديق لما يقال لهم؛ فمن الإيمان ألا تُسْتَغَلَّ سذاجتهم في كسب مضاعف أو تغطية عيب.

قال رسول الله ﷺ: «كَبُرَت خيانة أن تُحَدِّثَ أخاك حديثاً، هو لك مُصَدِّقٌ، وأنت له كاذب»[3].

وقال: «لا يحل لامرىء مسلم يبيع سلعة، يعلم أن بها داء، إلا أخبر به»[4].

وعن ابن أبي أوفى: أن رجلاً أقام سلعة في السوق فحلف بالله: لقد

---

(١) البخاري. (٢) أحمد. (٣) البخاري.
(٤) البخاري.

أعطي بها ما لم يعط ـ ليوقع فيها رجلاً من المسلمين ـ فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرةِ، وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم ﴾[1].

* * *

والحيف في الشهادة من أشنع الكذب. فالمسلم لا يبالي ـ إذا قام بشهادة ما ـ أن يقرر الحق ولو على أدنى الناس منه وأحبهم إليه، لا تميل به قرابة ولا عصبية، ولا تزيغه رغبة أو رهبة.

وتزكية المرشحين لمجالس الشورى، أو المناصب العامة، نوع من الشهادة، فمن انتخب المغموط في كفايته وأمانته فقد كذب، وَزَوَّرَ، ولم يقم بالقسط.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، شُهَدَاءَ للَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ. إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[2]

وعن أبي بَكْرة: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ قلنا: بلى، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس. . وكان متكئاً فجلس، وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!!»[3].

إن التزوير كذب كثيف الظلمات، إنه لا يكتم الحق فحسب، بل يمحقه ليثبت مكانه الباطل، وخطره على الأفراد في القضايا الخاصة، وخطره على الأمم في القضايا العامة شديد مبيد.

ومن ثم خوف الرسول منه على هذا النحو الصارخ.

* * *

وعلى أرباب الحرف والصناعات، أن يجعلوا من كلمتهم قانوناً مرعي

---

(١) آل عمران: ٧٧. (٢) النساء: ١٣٥. (٣) البخاري.

الجانب، يقفون عنده ويستمسكون به، فإنه لَمِنَ المؤسف أن تكون الوعود المُخْلَفَة، والحدودَ المائعة عادةً مأثورة عن كثير من المسلمين، مع أن دينهم جعل الوعود الكاذبة أمارة النفاق.

وقد كان رسول الله ﷺ يقدس الكلمة التي يقول، ويحترم الكلمة التي يسمع، وكان ذلك شارة الرجولة الكاملة فيه، حتى قبل أن يُرْسَلَ إلى الناس.

عن عبدالله بن أبي الحمساء قال: (بايعت رسول الله ببيع قبل أن يبعث فبقيت له بقية. فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاثة فجئت فإذا هو في مكانه! فقال: يا فتى لقد شققت عليّ! أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك)[1] ـ كان يحضر في الموعد المضروب بينهما ـ.

وَحَدَثَ أن الرسول وعد جابر بن عبدالله بعطاء من مال البحرين، ثم عاجلته الوفاة قبل الوفاء؛ فلما جاء مال البحرين إلى خليفته أبي بكر أطلق منادياً في الناس يقول: «ألا من كان له على رسول الله عِدة أو دَين فليأتنا»[2].

انظر كيف توزن الكلمة ويوجب تنفيذها حتى لا تذهب هباء مع اللغو الضائع؟ على أن الوعود الكاذبة ليست فقط كلماً يذهب سدى، ولكنها خَرْقٌ للمصالح، وإضرار بالناس، وإهدار للأوقات. وليس صدق الوعد خلة تافهة، إنها محمدة ذكرها الله عزّ وجلّ في مناقب النبوة:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ، وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾[3].

وسرد الصفات الفاضلة على هذا الترتيب، يدلك على ما لِصِدْقِ الوعد من مكانة، ولقد كان إسماعيل أصدق الناس وعداً حين قال لأبيه: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[4] لما قال أبوه: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى؟ ﴾[5].

وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع منه، ويحاول

---

(١) أبو داود. (٢) البخاري. (٣) مريم: ٥٤، ٥٥.
(٤، ٥) الصافات: ١٠٢.

التملص من عواقبه. وهذا غباء وهوان، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشد، والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه. فلعل صدقه في ذكر الواقع وأَلَّه عَمَّا بَدَرَ منه يسحان هفوته ويغفران زلته.

ومهما هجس في النفس من مخاوف ـ إذا قيل الحق ـ فالأجدر بالمسلم أن يتشجع وأن يتحرج من لوثات الكذب.

قال رسول الله ﷺ: «تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»[1]، وقال: «إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلاً من نتن ما جاء به»[2].

والصدق في الأقوال يتأدى بصاحبه إلى الصدق في الأعمال والصلاح في الأحوال، فإن حرص الإنسان على التزام الحق فيما ينبس به يجعل ضياء الحق يسطع على قلبه وعلى فكره، ولذلك يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[3].

والعمل الصادق هو العمل الذي لا ريبة فيه لأنه وليد اليقين، ولا هوى معه لأنه قرين الإخلاص، ولا عوج عليه لأنه نبع من الحق.

ونجاح الأمم في أداء رسالتها، يعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة. فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة، سبقت سبقاً بعيداً، وإلا سقطت في عرض الطريق، فإن التهريج والخبط، والادِّعاء والهزل؛ لا تغني فتيلاً عن أحد.

قال رسول الله: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً. وإياكم والكذب! فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي

(١) ابن أبي الدنيا.   (٢) الترمذي.   (٣) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكـذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١].

إن الـفجور الـذي هدى إليه إدمان الكذب هو المرحلة الأخيرة لضعة النفس، وضياع الإيمان.

روى مالك عن ابن مسعود: «لا يزال العبد يكذب، ويتحرى الكذب، فينكت في قلبه نُكْتَةً سوداء حتى يَسْوَدَّ قلبه، فيكتب عند الله من الكذابين».

وَيُحِقُّ به قول الحق في كتابه: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾[٢].

وأما البر الَّذي هدى إليه الصدْق، فهو قمة الخير التي لا يرقى إليها إلا أولو العزم من الرجال؛ وحسبك فيه هذه الآية الجامعة:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزكاة، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[٣].

(١) البخاري. (٢) النحل: ١٠٥. (٣) البقرة: ١٧٧.

الأمَــــانَة

الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ، تُصَانُ به حقوق الله وحقوق الناس، وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال. ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أميناً.

والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، وهي ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعاً شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه على النحو الذي فصَّله الحديث الكريم:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته»[1].

قال ابن عمر ـ راوي الحديث ـ سمعت هؤلاء من النبي ﷺ، وأحسبه قال: «الرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته».

والعوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيباً، وهو حفظ الودائع. مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل.

وإنها الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها. حتى إنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر، يقول له أخوه: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك»[2].

(١) البخاري. (٢) الترمذي.

وعن أنس قال: «ما خطبنا رسول الله إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»(١).

ولما كانت السعادة القصوى أن يوقى الإنسان شقاء العيش في الدنيا وسوء المنقلب في الأخرى، فإن رسول الله جمع في استعاذته بين الحالين معاً إذ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة»(٢). فالجوع ضياع الدنيا والخيانة ضياع الدين.

وكان رسول الله في حياته الأولى قبل البعثة يُلَقَّبُ بين قومه بالأمين.

وكذلك شوهدت مخايل الأمانة على موسى حين سقى لابنتي الرجل الصالح ورفق بهما، واحترم أنوثتهما، وكان معهما عفيفاً شريفاً: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾(٣). وقد حدث هذا قبل أن ينبأ موسى ويرسل إلى فرعون.

ولا غَرْوَ فرسل الله يختارون من أشرف الناس طباعاً، وأزكاهم معادناً، والنفس التي تظل معتصمة بالفضيلة ـ على شدة الفقر ووحشة الغربة ـ هي لرجل قوي أمين! والمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد، تتطلب خلقاً لا يتغير باختلاف الأيام بين نعمى وبؤسى، وذلك جوهر الأمانة.

* *

من معاني الأمانة وضع كل شيء في المكان الجدير به، واللائق له، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذي ترفعه كفايته إليها.

واعتبار الولايات والأعمال العامة أمانات مسؤولة ثابت من وجوه كثيرة:

---

(١) أحمد. (٢) أبو داود. (٣) القصص: ٢٤ ـ ٢٦.

فعن أبي ذر قال: «قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها»[1].

إن الكفاية العلمية أو العملية ليست لازمة لصلاح النفس، فقد يكون الرجل رضي السيرة، حسن الإيمان. ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتجاً في وظيفة معينة.

ألا ترى إلى يوسف الصديق. إنه لم يرشح نفسه لإدارة شؤون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضاً ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[2]. وأبو ذر لما طلب الولاية لم يره الرسول جلداً لها فحذره منها.

والأمانة تقضي بأن نصطفي للأعمال أحسن الناس قياماً بها، فإذا ملنا عنه إلى غيره ـ لهوى أو رشوة أو قرابة ـ فقد ارتكبنا ـ بتنحية القادر وتولية العاجز ـ خيانة فادحة.

قال رسول الله ﷺ: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[3].

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عَسَيْتَ أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله: «من وُلِّي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً حتى يدخله جهنم»[4].

والأمَّةُ التي لا أمانة فيها، هي الأمة التي تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء، لتهملهم وتقدم من دونهم. وقد أرشدت السنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد، الذي سوف يقع آخر الزمان.

---

(١) مسلم. (٢) يوسف: ٥٥. (٣) الحاكم.
(٤) الحاكم.

«جاء رجل يسأل رسول الله: متى تقوم الساعة؟ فقال له: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة! فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»[1].

* * *

ومن معاني الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يناط به، وأن يستنفد جهده في إبلاغه تمام الإحسان. أجل إنها الأمانة يمجِّدها الإسلام: أن يُخْلِصَ الرجلُ لشغله وأن يعنى بإجادته، وأن يسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه، فإن استهانة الفرد بما كلف به ـ وإن كان تافهاً ـ تستتبع شيوع التفريط في حياة الجماعة كلها، ثم استشراء الفساد في كيان الأمة وتداعيه برمته.

وخيانة هذه الواجبات تتفاوت إثماً ونُكْراً، وأشدها شناعة ما أصاب الدين، وجمهور المسلمين، وتعرضت البلاد لأذاه.

قال رسول الله: «إذا جمع الله بين الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء يعرف به! فيقال: هذه غدرة فلان...»[2].

وفي رواية: «لكل غادر لواء عند استه، يُرْفَعُ له بقدر غدرته. ألا ولا غادر أعظم من أمير عامّة»[3].

أي ليس أعظم خيانة ولا أسوأ عاقبة من رجل تولى أمورَ الناس فنام عنها حتى أضاعها.

* * *

ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذي عين فيه، لجر منفعة إلى شخصه أو قرابته، فإن التشبع من المال العام جريمة.

والمعروف أن الحكومات أو الشركات تمنح مستخدميها أجوراً معينة. فمحاولة التزيد عليها بالطرق الملتوية هي اكتساب للسحت.

---

(١) البخاري. (٢) البخاري. (٣) مسلم.

قال رسول الله ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»[1] لأنه اختلاس من مال الجماعة الذي يُنْفَقُ في حقوق الضعفاء والفقراء، ويرصد للمصالح الكبرى:

﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2].

أما الذي يلتزم حدود الله في وظيفته، ويأنف من خيانة الواجب الذي طُوِّقَهُ فهو عند الله من المجاهدين لنصرة دينه وإعلاء كلمته.

قال رسول الله ﷺ: «العامل إذا استُعْمِلَ، فأخذ الحق وأعطى الحق؛ لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»[3].

وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ، وشدد في رفض المكاسب المشوبة.

عن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فَكَتَمَنَا مخيطاً فما فوق كان غلولاً يأتي به يوم القيامة؛ فقام إليه رجل أسود من الأنصار - كأني أنظر إليه - فقال: يا رسول الله، اقبل عني عملك!! قال: ومالك؟؟ قال: سمعتك تقول: كذا وكذا. قال: وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أُوتِيَ منه أخذ وما نُهي انتهى»[4].

وحدث أن استعمل النبي رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللُّتْبِيَّة، على الصدقة، فلما قدم - بها - قال: هذا لكم، وهذا أُهْدِيَ إليَّ!.

قال راوي الحديث: فقام رسول الله فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني الله فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت إليّ. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى

---

(١) أبو داود. (٢) آل عمران: ١٦١. (٣) الطبراني.
(٤) مسلم.

تأتيه هديته إن كان صادقاً؟؟. والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة! فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر. ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه يقول: اللهم هل بلغت؟»[1].

* * *

ومن معاني الأمانة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك، وإلى المواهب التي خصَّك الله بها، وإلى ما حُبيت من أموال وأولاد، فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك، فيجب أن تسخرها في قرباته، وأن تستخدمها في مرضاته. فإن امتُحِنت بنقص شيء منها، فلا يستخفنك الجزع متوهماً أن ملكك المحض قد سلب منك، فالله أولى بك منك، وأولى بما أفاء عليك، وله ما أخذ وله ما أعطى! وإن امتُحِنت ببقائها فما ينبغي أن تَجْبُن بها عن جهاد، أو تفتن بها عن طاعة، أو تستقوي بها على معصية.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

* * *

ومن معاني الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس التي تشارك فيها، فلا تدع لسانك يفشي أسرارها، ويسرد أخبارها.

فكم من حبال تقطعت، ومصالح تعطلت، لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس، وذكرهم ما يدور فيه من كلام، منسوباً إلى قائله، أو غير منسوب.

قال رسول الله ﷺ: «إذا حدث رجلٌ رجلاً بحديث ثم التفت، فهو أمانة»[3].

وحرمات المجالس تصان، ما دام الذي يجري فيها مضبوطاً بقوانين الأدب وشرائع الدين، وإلا فليست لها حرمة.

---

(١) مسلم. (٢) الأنفال: ٢٧، ٢٨. (٣) أبو داود.

وعلى كل مسلم شهد مجلساً يمكر فيه المجرمون بغيرهم ليلحقوا به الأذى، أن يسارع إلى الحيلولة دون الفساد جهد طاقته.

قال رسول الله: «المجلس بالأمانة، إلا ثلاثة مجالس: مجلس سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»[1].

وللعلاقات الزوجية ـ في نظر الإسلام ـ قداسة:

فما يضمه البيت من شؤون الْعِشْرَة بين الرجل وامرأته، يجب أن يُطْوى في أستار مسبلة، فلا يطلع عليه أحد مهما قرب.

والسفهاء من العامة يُثَرْثِرُونَ بما يقع بينهم وبين أهلهم من أمور، وهذه وقاحة حرمها الله.

فعن أسماء بنت يزيد: أنها كانت عند رسول الله ﷺ، والرجال والنساء قعود عنده. فقال: «لعل رجلاً يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها! فأزم القوم ـ سكتوا وجلين ـ، فقلت: أي والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون، وإنهنَّ ليفعلن!! قال: فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون»[2].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «إن من أعظم الأمانة[3] عند الله يوم القيامة: الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»[4].

* * *

والودائع التي تدفع إلينا لنحفظها حيناً، ثم نردها إلى ذويها حين يطلبونها هي من الأمانات التي نسأل عنها!.

وقد استخلف رسول الله ﷺ عند هجرته ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليسلم المشركين الودائع التي استحفظها. مع أن هؤلاء المشركين

---

(١) أبو داود. (٢) أحمد. (٣) على حذف المضاف: أي أعظم خيانة الأمانة.
(٤) أحمد.

كانوا بعض الأمة التي استفزته من الأرض، واضطرته إلى ترك وطنه في سبيل عقيدته، لكن الشريف لا يتضِع مع الصغار.

قال ميمون بن مهران: (ثلاثة يؤدَين إلى البر والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم).

واعتبار الوديعة غنيمة باردة، هو ضربٌ من السرقة الفاجرة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة. قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة ـ وإن قتل في سبيل الله ـ فيقال: أدِّ أمانتك! فيقول: أي ربِّ، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتـمثّل لـه أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوى في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه، فهو يهوى في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدَّدها، وأشد ذلك الودائع»[1].

قال راوي الحديث: فأتيت البراء بن عازب، فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا!. قال ـ البراء ـ: صدق، أما سمعت الله يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾؟[2].

* * *

والأمانة التي تدعو إلى رعاية الحقوق، وتعصم عن الدنايا، لا تكون بهذه المثابة إلا إذا استقرت في وجدان المرء، ورست في أعماقه، وهيمنت على الداني والقاصي من مشاعره!.

وذاك معنى حديث حذيفة بن اليمان عن رسول الله: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة»[3].

(١) أحمد. (٢) النساء: ٥٨. (٣) مسلم.

والعلم بالشريعة لا يغني عن العمل بها، والأمانة ضمير حي إلى جانب الفهم الصحيح للقرآن والسنة.

فإذا مات الضمير انتزعت الأمانة، فما يغني عن المرء ترديده للآيات، ولا دراسة للسنن. وأدعياء الإسلام يزعمون للناس ـ وقد يزعمون لأنفسهم ـ أنهم أمناء. ولكن هيهات أن تستقر الأمانة في قلب تنكر للحق.

ومن ثم يستطرد حذيفة في وصفه، لتسرب الأمانة من القلوب التي تخلخل فيها اليقين، فيروي عن الرسول: «ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ هو الأثر المغاير، كالنقطة على الصحيفة ـ ثم ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل» ـ كالبثور التي تظهر في اليد مثلاً من استخدام الأدوات الخشنة ـ ثم قال: «فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدي الأمانة؛ حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» والحديث يصور انتزاع الأمانة من القلوب الخائنة تصويراً محرجاً فهي كذكريات الخير في النفوس الشريرة، تمر بها وليست منها، وقد تترك في ممرّها أثراً لاذعاً. بيد أنها لا تحيي ضميراً مات، وأصبح صاحبه يزن الناس على أساس أثرته وشهوته، غير مكترث بكفر أو إيمان!!.

إن الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل. وقد ضرب الله المثل لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها، أو يفرط في حقها.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّموات وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[1].

والظلم والجهل آفتان عرضتا للفطرة الأولى، وبُلِيَ الإنسان بجهادهما، فلن يخلص له إيمان، إلا إذا أنقاه من الظلم.

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾[1]. ولن تخلص له تقوى إلا إذا نقّاها من الجهالة: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2].

ولذلك ـ بعد أن تقرأ الآية التي حمَّلت الإنسان الأمانة ـ تجد أن الذين غلبهم الظلم والجهل، خانوا ونافقوا وأشركوا، فحق عليها العقاب، ولم تكتب السلامة إلا لأهل الإيمان والأمانة: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[3].

---

(١) الأنعام: ٨٢. (٢) فاطر: ٢٨. (٣) الأحزاب: ٧٣.

الوَفـــاءُ

إذا أبرم المسلم عقداً فيجب أن يحترمه، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه، ومن الإيمان أن يكون المرء عند كلمته التي قالها، ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه؛ فيُعْرَف بين الناس بأن كلمته مَوْثِقٌ غليظ، لا خوف من نقضها ولا مطمع في اصطيادها.

العهد لا بد من الوفاء به، كما أن اليمين لا بد من البر بها. ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير وإلا فلا عهد في عصيان ولا يمين في مأثم.

وقد قال رسول الله : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليُكفِّر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير»[1].

ولا يسوغ لامرىءٍ الإصرار على الوفاء بيمين؛ الحنث فيها أفضل.

وفي الحديث: «لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه»[2].

ومن ثم فلا تعهد إلا بمعروف، فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف فليصرف همته في إمضائه، ما دامت فيه عين تطرف، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد والانثناء.

روى أنس بن مالك قال[3]: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال «بدر»

---

(١) مسلم. (٢) البخاري. (٣) البخاري.

فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين!! لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليَرَيَنَّ ما أصنع!!!

فلما كان يوم «أحد» انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم. . فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر! إني لأجد ريحها من دون أحد!!!

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، ثم تقدم. .

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم، ووجدناه وقد مثل به المشركون، فما عرفه إلا أخته، بشامة فيه أو ببنانه. .

قال أنس: كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

* * *

والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين، إذا اكتملا في النفس سهل عليها أن تنجز ما التزمت به، فإن الله أخذ على آدم أبي البشر، عهداً مؤكداً ألا يقرب الشجرة المحرمة، لكن آدم ما لبث أن نسي وضعف، ثم نكث في عهده.
﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[2].

فضعف الذاكرة، وضعف العزيمة: عائقان كثيفان عن الوفاء الواجب. والإنسان ـ لتجدد الحوادث أمامه، وترادف الهموم المختلفة عليه ـ يفعل الزمان فعله العجيب في نفسه: فتخبو المعالم الواضحة، ويمسي ما كان بارزاً في نفسه لا يكاد يبين.

ولهذا افتقر إلى مذكِّر دائم يغالب أمواج النسيان. ويمسك أمام عينيه ما

---

(١) الأحزاب: ٢٣.   (٢) طه: ١١٥.

يوشك أن يذهل عنه. وما أكثر آي القرآن التي تواردت لتصون هذا الذكر.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(٢)

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ. ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(٣).

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

والذكر المُطَّرد اليقظ، ضرورة لازمة للوفاء. فمن أين لناسي العهد أن يفي به؟ لذلك ختمت آية العهد بعنصر التذكير: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا. ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٥).

فإذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه، يجب أن ينضم إلى هذا الذكر عزم مشدد على إنفاذه. عزم يذلل الأهواء الجامحة، ويهون الصعاب العارضة، عزم يمضي في سبيل الوفاء مهما تجشم من مشاق، وغرم من تضحيات.

وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً في هذا المضمار. فإن ثمن الوفاء قد يكون فادحاً، قد يكلف المال أو الحياة أو الأحبة.

بيد أن هذه هي تكاليف المجد المنشود في الدنيا والآخرة.

لولا المشقةُ ساد الناس كلُّهُم الجود يُفقر والإقدام قتّال

ولقد استنكر القرآن الكريم على بعض الأفهام أن تطلب العلا بالراحة، وأن ترقب الخير الكثير بالجهاد اليسير.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا؛ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٦).

---

(١) الأعراف: ٣. (٢) الأنعام: ١٢٦. (٣) الأعراف: ٢٦.
(٤) الأعراف: ٥٧. (٥) الأنعام: ١٥٢. (٦) البقرة: ٢١٤.

وعندما يستجمع الإنسان الذهن الواعي، والقلب الكبير، فهو أهل الوفاء.

* * *

والعهود التي يرتبط المسلم بها درجات، فأعلاها مكانة، وأقدسها ذماماً، العهدُ الأعظم، الذي بين العبد ورب العالمين.

فإن الله خلق الإنسان بقدرته، ورباه بنعمته، وطلب منه أن يعرف هذه الحقيقة، وأن يعترف بها، وألا تَشرُد به المغويات، فيجهلها أو يجحدها.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنِ اعْبُدُونِي هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

وإذا كان هناك من البشر من لم يستمع إلى المرسلين ويستهد بما جاؤوا به، فإن له من فطرته سائقاً يحدوه إلى ربه، ويبصره بخالقه، مهما حفلت البيئة بصنوف الفساد، وضروب التخريف.

هذا معنى الميثاق الذي أخذه الله على الناس كافة.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إنا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُوْنَ. وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ﴾[2].

وليس هناك حوار كما يوهم ظاهر العبارات. وإنما هذا تصوير لاتجاه الفطرة السليمة إلى الله وتعرُّفِها عليه، وانتفاعها بالدلائل المبثوثة في الكون لتوحيده وتمجيده، وانفلاتها من التقاليد السفيهة التي تُباعِدُ عنه، أو تشرك به. وهذا الأسلوب شائع على ألسنة العرب:

ومنه المثل السائر: «قال الجدار للوتد: لِمَ تَشُقُّني؟ قال: سَلْ مَنْ يَدُقُّني! فإن الذي ورائي ما خلاني ورأيي!!».

---

(١) يس: ٦٠ - ٦١. (٢) الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤.

ووفاء الإنسان بهذا العهد أساس كرامته في الدنيا، وسعادته في الأخرى. ومن سوء الظن بالله أن توفي له ثم تتوقَّع الشر منه:

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[1].

وقد كان رسول الله ـ وهو يدعو الناس إلى الإسلام ـ يبايع الوفود المقبلة عليه بتعاليم ـ يتخيرها من بين التعاليم الكثيرة التي حفل بها الدين ـ على حسب ما يرى من طاقتهم النفسية والعقلية.

فعن عوف بن مالك قال: «كنا عند النبي ـ تسعة أو ثمانية أو سبعة ـ فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا وقلنا: نبايعك يا رسول الله!

قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسرَّ كلمة خفية قال: ولا تسألوا الناس شيئاً.

قال عوف بن مالك: فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً أن يناوله إياه»[2].

فانظر إلى الوفاء بالبيعة ودقة تنفيذها. وليس هذا إلَّا نصحاً لكل طائفة بما تعتبر أحوج إليه. فالحاكم ينصح ألَّا يظلم. والتاجر ألَّا يَغُش. والموظف ألَّا يرتشي... إلخ. وإلا فكل[3] مسلم مكلف بالدين كله.. وقد ظهرت في بلاد الإسلام فرق تُعْطي عهوداً خاصة، لا ينبغي الاكتراث بها. فهم كأدعياء الطب الذين يصفون الأدوية المزوَّرة فلا تزيد المرضى إلا سقاماً.

وتعاليم الإسلام كلٌّ لا يتجزأ. والعمل بها واجب محكم، في كل زمان ومكان.

* * *

وقد بايع رسول الله ﷺ الأنصار: على أن يجندوا أنفسهم وأموالهم لحماية دعوته، وحراسة رسالته، حتى يستطيع إبلاغها للعرب ومن وراءهم.

---

(١) البقرة: ٤٠.　　(٢) مسلم.　　(٣) تعقيب على صدر الموضوع.

والعهد الذي قطعه الأنصار على أنفسهم يُعَدُّ ألمع المواثيق في تاريخ العقائد وأدلها على التجرد لله، والفناء في الحق.

وقد تم في ليلة رائعة من موسم الحج، وعاد الناس بعدها يعالجون شؤونهم المختلفة، غير أن تبعات هذا العهد لزمت أصحابه، فقبلوها عن سماحة وطواعية.

وقَدَّموا دماءهم سهلة في معركة «بدر» وما أعقبها من قتال بين الإسلام والوثنية. وكان رسول الله ﷺ ـ في الأزمات العَضوض ـ يعتمد على هذا الموثق لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله. فلما انكشف المسلمون في الجولة الأولى من معركة «حُنَين» أهمل رسول الله الجموع الكثيرة التي دخلت ـ بعد ـ في الإسلام، وصاح بالأوفياء الذين بايعوه في العقبة ليلة الموسم لينقذوا الموقف.

عن أنس قال: «لما كان يوم «حُنَيْن» أقبلت «هوازن» و «غَطفَان» وغيرهم بذراريهم ونَعَمِهم ومع رسول الله يومئذ عشرة آلاف، ومعه الطلقاء. فأدبروا عنه حتى بقي وحده..!!

فنادى يومئذ نداءين، لم يخلط بينهما شيئاً؛ التفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار، فقالوا: لبيك يا رسول الله، نحن معك أبشر. ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار، فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك... وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال: أنا عبدالله ورسوله.

فانهزم المشركون وأصاب غنائم كثيرة. فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار منها شيئاً.. فقالوا: إذا كانت الشدة فنحن نُدْعَى ويُعْطَى الغنائم غيرنا؟ فبلغه ذلك فجمعهم، وقال: يا معشر الأنصار، ما شيء بلغني عنكم؟ فسكتوا. فقال: يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد ـ ﷺ ـ تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله رضينا. فقال رسول الله: «لو سلك الناس وادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْب الأنصار»[1].

---

(١) البخاري.

والحق أن الرسالات الكبرى أحوج ما تكون إلى رجال على غرار الأنصار، يفتدون كلمتهم بأرواحهم وما يملكون، لا يشغلهم مأرب تافه، ولا تتبع أنفسهم عرضاً زائلاً.

ومسلك الرسول - معهم في توزيع الغنائم - قام على تقدير إيمانهم وإخلاصهم. فقد تألف الأعراب بالمال الذي يشتهون، حتى لا يضجروا من تكاليف الدين الذي اعتنقوه، ووكل الأنصار إلى ما يعرف فيهم من يقين راسخ.

وقد قال في مثل هذه الحالات: «إني لأعطي الرجل وغيره أحبُّ إلي مخافة أن يَكُبَّه الله في النار»[1].

* * *

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الرجل ماضيه الذاهب لينتفع به في حاضره ومستقبله، فإن كان معسراً فأغناه الله، أو مريضاً فشفاه الله، فليس يسوغ له أن يفصل بين أمسه ويومه بسور غليظ، ثم يزعم أنه ما كان قط فقيراً ولا مريضاً. ويبني على غروره بحاضره مسلكاً؛ كله فظاظة وجحود.

هذا نوع من الغدر ينتهي بصاحبه إلى النفاق؛ ربما انطرد به من رحمة الله فلم تتسع بعدئذ له.

رَوَوْا أن رجلاً من أهل المدينة يُدْعَى ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم: لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كلَّ ذي حق حقه، وتصدَّقت منه وَوَصَلْتُ القرابة. فمات ابن عم له، فورث منه مالاً، فلم يفِ بشيءٍ مما عاهد عليه، فنزل قول الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتانا مِنْ فضلِه لنصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. أَلَمْ يَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[2].

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وعقوق النعمة، ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

---

(1) البخاري.

(2) التوبة: ٧٥ - ٧٨.

«إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لَوْن حسن، وجلد حسن ويذهب عني الذي قَذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره وأُعْطي لوناً وجلداً حسناً! فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبـل، فأعطاه ناقة عُشراء وقال: بارك الله لك فيها.

ثم أتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطي بقرةً حاملاً وقال: بارك الله لك فيها.

ثم أتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصري، فمسحه، فرد الله عليه بصره. قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاة والداً[1].

فأنتج هذان، وولد هذا. فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرة فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله؟! قال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر!! قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ذلك، ورد عليه مثل مـا ردّ الأول، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

ثم أتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال. فقال: قد كنتُ أعمى فرد الله علي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم لشيء أخذته لله!! فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم.. فقد رضي عنك، وسخط على صاحبيك!»[2].

---

(١) شاة والداً: حاملاً.

(٢) البخاري.

والإسلام يوصي باحترام العقود، التي تسجل فيها الالتزامات المالية وغيرها، ويأمر بإنفاذ الشروط التي تتضمنها.

وفي الحديث: «المسلمون عند شروطهم»[1].

ولا شك أن انتشار الثقة في ميدان التجارة وفي شتى المعاملات الاقتصادية أساسه افتراض الوفاء في أي تعهد.

ويجب أن تكون الشروط المكتوبة متفقة مع حدود الشريعة. وإلا فلا حرمة لها، ولا يكلف المسلم بوفائها.

وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية، فقال رسول الله: «إن أحق ما وفيتم به من الشروط ما استحللتم به الفروج».

ومن ثم فليس يجوز لرجل بنى بامرأة أن يغتال درهماً من حقها، أو يستخف بالرباط الذي جمعه بها.

وفي الحديث: «أيما رجل تزوج امرأة ـ على ما قل من المهر أو كثر ـ ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها، فمات ولم يؤد إليها حقها، لقي الله يوم القيامة وهو زانٍ! وأيما رجل استدان ديناً، لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه، خدعه حتى أخذ ماله، فمات ولم يؤد إليه دَيْنه، لقي الله وهو سارق!!»[2].

ولا غرو، فقد تتابعت آيات القرآن، تحض على الوفاء وتخوف من الغدر:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الأَيمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[4].

وقد بيَّن الله عزَّ وجل أن الغدر ينزع الثقة، ويثير الفوضى، ويمزق

---

(١) البخاري. (٢) الطبراني. (٣) الإسراء: ٣٤.
(٤) النحل: ٩١.

الأواصر، ويرد الأقوياء ضعافاً واهنين، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ. وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

إن الرجل قد يحل عقداً أبرمه، ينتظر ربحاً أوفر من عقد آخر، وإن الأمة قد تطرح معاهدة بينها وبين أمة أخرى، جرياً وراء مصلحة أحظى لديها والدين يكره أن تداس الفضائل في سوق المنفعة العاجلة، ويكره أن تنطوي دخائل الناس على هذه النيات المغشوشة، ويوجب الشرف على الفرد والجماعة حتى تصان العقود على الفقر والغنى، وعلى النصر والهزيمة.

ولذلك يقول الله ـ بعد الأمر الجازم باحترام العهود ـ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

* * *

والوفاء بالحق واجب مع المؤمن بالإسلام ومع الكافر به.

فإن الفضيلة لا تتجزأ، فيكون المرء خسيساً مع قوم، كريماً مع آخرين.

والمدار على موضوع العهد فما دام خيراً فإقراره حتم مع كل فرد، وفي كل حين.

وقد قال رسول الله ﷺ ـ في حلف الفضول[3] ـ: «لو دُعيت به في الإسلام لأجبت».

عن عمرو بن الحَمِق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما رجل أمن رجلاً على دمه، ثم قتله، فأنا من القاتل بريء، وإن كان المقتول كافراً»[4].

وهذا البيان الحاسم، يكشف عن روح الإسلام في معاملة من لم يدينوا

---

(١) النحل: ٩١. (٢) النحل: ٩٤ ـ ٩٥. (٣) هو حلف تم في الجاهلية.
(٤) ابن حبان.

به، فبينا ترى اليهود يتكرون على غيرهم حق الوفاء، ويضنون عليهم بنبل المعاملة، ويحسبون أنهم وحدهم «أبناء الله وأحباؤه» وأن الله جعل رحمته وأمانه لشعب إسرائيل فقط، ترى الإسلام يدفع ـ بحمية بالغة ـ عمن منحهم ذمته وأدخلهم في عقده، ويتحدث عن الكافرين إلى المسلمين حديثاً له مغزاه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ، وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ، وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ـ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ـ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

فانظر كيف صورت الآية وجهة نظر الكفار، وتمشت مع مزاعمهم وهم وثنيون، فاعتبرتهم طلاب فضل من الله ورضوان، وطلبت من المسلمين ـ مهما قووا ـ أن يتعاونوا على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

وقد تكلمنا في موضع آخر[2] عن المعاهدات بين المسلمين وغيرهم، وعن التعاليم التي أنزل الله بشأنها، فليرجع إليه من شاء.

* * *

ومن الشؤون التي اهتم الإسلام بها، ونوَّه بقيمة الوفاء فيها: الديون، فإن سدادها من آكد الحقوق عند الله، وقد قطع الدِّين قطعاً عنيفاً وساوس الطمع التي تنتاب المدين وتغريه بالمطال، أو إرجاء القضاء[3].

وأول ما شرعه الإسلام في هذا أن حرَّم الاستدانة إلا للحاجة القاهرة. فمن الورطات المخوفة أن يقترض المرء في أمور يمكن الاستغناء عنها.

بل لقد روي أن ذلك من الآثام التي يلحقها القصاص:

«إن الدين يقتص من صاحبه يوم القيامة إذا مات، إلا من تدين في ثلاث خلال: الرجلُ تضعف قوته في سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله

(١) المائدة: ٢.

(٢) كتابنا: «تأملات في الدين والحياة» و «التعصب والتسامح».

(٣) كتابنا: «تأملات في الدين والحياة» و «التعصب والتسامح».

وعدوه. ورجل يموت عنده مسلم، فلا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين. ورجل خاف على نفسه العزوبة، فينكح خشية على دينه. فإن الله يقضي عن هؤلاء يوم القيامة»[1].

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: «يدعو الله بصاحب الدَّيْن يوم القيامة، حتى يوقف بين يديه. فيقال: يا ابن آدم، فيم أخذت هذا الدَّيْن؟ وفيم ضيَّعْت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل، ولم أشرب، ولم ألبس، ولم أضيِّع، ولكن أتى عليَّ إما حرق، وإما سرق، وإما وضيعة! فيقول الله: صدق عبدي، أنا أحق من قضى عنك، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه، فيرجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل رحمته»[2].

ويظهر من هذا أن الله يعذر من يضطر إلى الدين لأزمات شداد، ومن يعجز عن القضاء لمصائب جائحة.

أما الذي تمر بنفسه شهوة طارئة، ويضعف عن إجابتها من ماله، فيسارع إلى الاقتراض من غيره، غير ناظر إلى عقباه، ولا مهتم بطريقة الخلوص من دينه فهو ـ كما وصفته الآثار ـ سارق جريء.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها، أتلفه الله»[3].

والإسلام يريد أن يُوفِّر للديون ضمانات شتى، تعتبر أموالاً حية، وحتى يرى الوفاء بها ضربة لازب، وحتى لا يحاول أحد الفرار من أداء الحق المكتوب، ولو بأداء عبادات أخرى رفيعة الأجر.

عن أبي قتادة رضي الله عنه: «قال رجل: يا رسول الله، أرأيتَ إن قُتِلْتُ في سبيل الله، أتكفِّر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، إن قتلت وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر! ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد. قال: إلا الدَّين؛ فإن جبريل أخبرني بذلك»[4].

(1) ابن ماجه. (2) أحمد. (3) البخاري.
(4) مسلم.

وفي رواية أخرى: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين»[1].

ولما علمه العقلاء من خطر الدين على آخرة المسلم ومنزلته كانوا ينصحونه بالتخلص منه، قبل أن يقدم على أي مخاطرة؛ قد تودي بحياته.

فعن أبي الدرداء: أنه كان يقف حين ينتهي إلى الدرب في ممر الناس إلى الجهاد، فينادي نداء يُسمع الناس: يا أيها الناس، من كان عليه دين يظن أنه إن أصيب في وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع. ولا يتبعني فإنه لا يعود كفافاً[2].

* * *

وقد استهان المسلمون بالديون فاقترضوها لشهوات الغيّ في البطون والفروج، واقترضوها من اليهود والنصارى بالربا الذي حرَّمه الله تحريماً باتاً، فكان من آثار ذلك أن نكبوا نكبات جائحة في ديارهم وأموالهم.

ولا يزال الوفاء بالقروض مستعصياً..

ولولا سياط القانون لضاعت حقوق كثيرة..

إن الله عز وجل يحب الأوفياء من عباده، وما أهلك القرى الظالمة إلا بعد أن قال في أهلها: ﴿وما وجدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ، وإنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[3].

---

(١) مسلم. (٢) رزين. (٣) الأعراف: ١٠٢.

الإخلاص

إن البواعث التي تسوق المرء إلى العمل، وتدفعه إلى إجادته، وتغريه بتحمل التعب فيه، أو بذل الكثير من أجله، كثيرة متباينة.

منها القريب الذي يكاد يُرَى مع العمل، ومنها الغامض الذي يختفي في أعماق النفس.

وربما لا يدركه العامل المتأثر به، مع أنه سر اندفاعه في الحقيقة إلى فعل ما فعل، أو ترك ما ترك.

والغرائز البشرية المعروفة هي قواعد السلوك العام، ومن اليسير أن ترى في حركات رجل أمامك حبه لنفسه، أو طلبه للسلامة، أو حرصه على المال، أو ميله للفخر، أو تطلعه للظهور.

وما أكثر ما تكون مشاعر الإعجاب أو الكراهية أو المحاكاة أو الكبرياء مصدر ما يدور بين الناس من حديث، وما يقع بينهم من تصرفات.

والإسلام يرقب بعناية فائقة ما يقارن أعمال الناس من نيات، وما يلابسها من عواطف وانفعالات.

وقيمة العمل عنده ترجع ـ قبل كل شيء ـ إلى طبيعة البواعث التي تمخضت عنه.

قد يعطي الإنسان هبة جزيلة، لأنه يريد بصنائع المعروف أن يستميل إليه القلوب، وقد يعطيها لأنه يريد أن يجزي خيراً من سبقوا فأسدوا إليه خيراً.

وكلا المسلكين كرم دفع إليه شعور المرء بنفسه، سلباً أو إيجاباً كما يعبر علماء النفس. ولكن الإسلام لا يعتد بالصَّدَقةِ إلا إذا خلصت من شوائب النفس. وتمخضت لله وحده على ما وصف القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾[1].

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[2].

ولتصحيح اتجاهات القلب، وضمان تجرده من الأهواء الصغيرة، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3].

إن ألوف المسافرين يقطعون المسافة بين مكة والمدينة، لأغراض شتى ولكن نية الانتصار للدين والحياة به، هي التي تفرق بين المهاجر والمسافر! وإن كانت صورة العملين واحدة.

فمن ترك مكة إلى المدينة، فراراً بدينه من الفتن، وإقامة لصرح الدولة الجديدة في بلدها الجديد، فهو المهاجر، وأما من رحل لشؤون أخرى فليس من الهجرة في شيء.

* * *

إن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت، فيجعلانه عبادة متقبلة.

وإن خبث الطوية، يهبط بالطاعات المحضة، فيقلبها معاصي شائنة فلا ينال المرء منها، بعد التعب في أدائها، إلا الفشل والخسار.

قد يبني الإنسان قصراً منيف الشرفات، فسيح الردهات، وقد يغرس حديقة ملتفة الأغصان متهدلة الأثمار، وهو بين قصره المشيد، وبستانه

(١) الإنسان: ٩. (٢) الليل: ١٨ ـ ٢١. (٣) البخاري ومسلم.

النضيد، يعد من ملوك الدنيا، بيد أنه إذا قصد من وراء بنيانه وغراسه نفع الناس، كان له فيهما ثواب غير مقطوع.

قال رسول الله ﷺ: «من بنى بنياناً في غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرساً في غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجراً جارياً، ما انتفع به أحد من خلق الرحمن تبارك وتعالى!!»[1].

وقال: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً. فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة»[2].

بل إن اللذاذات التي تتشهاها النفس، إذا صاحبتها النية الصالحة والهدف النبيل، تحولت إلى قربات.

فالرجل يواقع امرأته، يريد أن يحفظ عفافه ويصون دينه. له في ذلك أجر «وفي بِضْع أحدكم صدقة».

وما يطعمه في بدنه، أو يطعمه أولاده وزوجته، له مثوبة بنية الخير التي تقارنه.

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لن تنفق نفقة، تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت عليها. حتى ما تجعله في فم امرأتك»[3].

وقال: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[4].

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته، فإن حركاته وسكناته ونوماته ويقظاته، تحتسب خطوات إلى مرضاة الله. وقد يعجز عن عمل الخير الذي يصبو إليه، لقلة ماله أو ضعف صحته. ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الإصلاح إلى مراتب المصلحين، والراغب في

---

(١) أحمد. (٢) مسلم. (٣) البخاري.

(٤) أحمد.

الجهاد إلى مراتب المجاهدين، لأن بُعْدَ همتهم أرجح لديه من عجز وسائلهم!!

حدث في غزوة العسرة، أن تقدم إلى رسول الله رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه، وأن يجودوا بأنفسهم في سبيل الله، غير أن الرسول لم يستطع تجنيدهم، فعادوا وفي حلوقهم غصة، لتخلفهم عن الميدان وفيهم نزل قوله عز وجل: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِيْنَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ﴾(١).

أترى أن الله يهدر هذا اليقين الرَّاسخ، وهذه الرغبة العميقة في التضحية؟ كلا! ولذلك نوَّه النبي ﷺ بإيمان أولئك القوم وإخلاصهم.

فقال للجيش السائر: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا. حبسهم العذر!!»(٢).

إن النية الصادقة سجلت لهم ثواب المجاهدين، لأنهم قعدوا راغمين.

ولئن كانت النية الصالحة تضفي على صاحبها هذا القبول الواسع، إن النية المدخولة تنضم إلى العمل الصالح ـ في صورته ـ فيستحيل بها إلى معصية تستجلب الويل:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُون. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(٣).

إن الصلاة مع الرياء، أمست جريمة، وبعد ما فقدت روح الإخلاص باتت صورة ميتة لا خير فيها، وكذلك الزكاة، إنها إن صدرت عن قلب يسخو لله ويدخر عنده قُبلت، وإلا فهي عمل باطل:

﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾(٤).

---

(١) التوبة: ٩٢.   (٢) البخاري.   (٣) الماعون: ٤ ـ ٧.
(٤) البقرة: ٢٦٤.

إن القلب المقفر من الإخلاص، لا ينبت قبولاً، كالحجر المكسو بالتراب لا يخرج زرعاً.

والقشور الخادعة، لا تغني عن اللباب الرديء شيئاً.

ألا ما أنفس الإخلاص، وأغزر بركته، إنه يخالط القليل فينميه حتى يزن الجبال، ويخلو منه الكثير فلا يزن عند الله هباءة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أخلص دينك يكفك العمل القليل»(١).

ويظهر أن تفاوت الأجور التي رصدت للحسنات، من عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف، إلى... يعود إلى سر الإخلاص الكامن في أطواء الصدور وهو ما لا يطَّلع عليه إلا عالم الغيب والشهادة.

فعلى قدر نقاء السريرة، وسعة النفع تكتب الأضعاف.

وليس ظاهر الإنسان، ولا ظاهر الحياة الدنيا، هو الذي يمنحه الله رضوانه، فإن الله تبارك وتعالى يُقْبِلُ على عباده المخبتين المخلصين، ويتقبل منهم ما يتقربون به إليه. أما ما عدا ذلك من زخارف الدنيا وتكلفات البشر فلا قيمة له ولا اكتراث به.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة جيء بالدنيا فيميز منها ما كان لله، وما كان لغير الله رُمي به في نار جهنم»(٣).

فمن ربط حياته بهذه الحقائق، فقد استراح في معاشه، وتأهب لمعاده، فلا يضيره ما فقد، ولا يحزنه ما قدم.

قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وأقام الصلاة وآتى الزكاة؛ فارقها والله عنه راض»(٤).

---

(١) الحاكم.　(٢) مسلم.　(٣) البيهقي.

(٤) ابن ماجه.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[1].

* * *

والإخلاص يسطع شعاعه في النفس، أشد ما يكون تألقاً في الشدائد المحرجة، إن الإنسان عندها ينسلخ من أهوائه، ويتبرأ من أخطائه، ويقف في ساحة الله أوّاباً، يرجو رحمته ويخاف عذابه.

وقد صور القرآن الكريم فزع الإنسان عند الحيرة، وانقطاعه إلى ربه يستنجد به، ليخرجه من مأزقه الذي وقع فيه:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[2].

إن هذا الإخلاص حال طارئة. والأحوال التي تنتاب المرء وتفارقه ليست خلقاً، والله تبارك وتعالى يريد من الناس أن يعرفوه حق المعرفة، وأن يقدروه حق قدره، في السراء والضراء جميعاً وأن يجعلوا الإخلاص له مكيناً في سيرتهم فلا تهي صلتهم به، ولا يقصدون بعلمهم غيره.

وحرارة الإخلاص تنطفىء رويداً رويداً، كلما هاجت في النفس نوازع الأثرة وحب الثناء، والتطلع إلى الجاه وبُعْدِ الصيت، والرغبة في العلو والافتخار. وذلك لأن الله يحب العمل النقي من الشوائب المكدرة. ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3].

وطبيعة الفضيلة كطبيعة الثمرة الناضجة، يجب لسلامتها والإبقاء على نظافتها وحلاوتها، أن تكون خالية من العطوب والآفات.

وقد أعلن الإسلام كراهيته العنيفة للرياء في الأعمال الصالحة، واعتبره شركاً بالله رب العالمين.

والحق أن الرياء من أفتك العلل بالأعمال. وهو إذا استكمل أطواره

(١) البينة: ٥ (٢) الأنعام: ٦٣ - ٦٤. (٣) الزمر: ٣.

وأتم دورته في النفس، كما تستكمل جراثيم الأوبئة أطوارها ودورتها، أصبح ضرباً من الوثنية، التي تقذف بصاحبها في سواء الجحيم.

قال رسول الله ﷺ: «اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»(١).

وعن ابن عباس: قال رجل: يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يُرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾(٢).

وإنما كانت حملات الإسلام على الرياء ـ وغيره من العلل الناشئة عن فقد الإخلاص ـ على ما هي عليه من الشدة لأنها فساد معقّد، وطريقة ملتوية في التنفيس عن الشهوات المكبوتة.

فالرذيلة السافرة تولد جريمة، وتسير في المجتمع جريمة، فهي منكورة محقورة ولعل صاحبها ـ لشعوره بسوئها ـ يتوب منها على عجل أو على مهل.

أما الرذيلة التي تظهر في لباس من الطاعة المطلوبة، فهي رذيلة مرهوبة الشر على صاحبها وعلى المجتمع.

ذلك أن صاحبها يقترفها وهو يشبع نهم نفسه، في الوقت الذي يتوهم فيه أنه يرضي الله.. فكيف يحس أنه ارتكب إثماً؟ وكيف يتوب مما يفترض أنه خير؟

أما المجتمع العام فمصائبه من الفضلاء المنافقين، أنكى من مصائبه التي ينزلها به معتاد الإجرام من الصعاليك.

إن ضعف الإخلاص عند كثير من ذوي المواهب، جعل البلاد تشقى بمواهبهم وترجع القهقرى.

---

(١) الحاكم. (٢) الكهف: ١١٠.

ثم إن تلويث الفضيلة بأقذار الهوى عدوان على منزلتها، ومحاولة متعمدة لإسقاط قيمتها. وهذا جرم آخر، ينشأ عن فقدان الإخلاص، والرجل الذي يقصد بعمله وجه الناس، ويذهل عن وجه ربه، رجل لا يدري ـ لسفاهته ـ حطة ما يصنع، إنه ينصرف عن القوي الغني ذي الجلال والإكرام إلى الضعاف الفقراء الذين لا حول لهم ولا طَوْل. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»[1].

* * *

على العسكريين ـ جنوداً أو قادة ـ أن يجعلوا جهادهم منزهاً عن الشوائب فقد ربطوا حياتهم ومماتهم بواجب مقدس، تصغر إلى جانبه الألقاب والرتب والشارات، فليؤثروا ما عند الله، وليقفوا أمانيهم على التضحية المرتقبة والفداء العزيز.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو فقال: «يا عبدالله بن عمرو، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً. وإن قاتلت مرائياً مكاثراً، بعثك الله مرائياً مكاثراً. يا عبدالله بن عمرو: على أي حال قاتلت أو قُتلت، بعثك الله على تلك الحال»[2].

* * *

وعلى الموظف، وهو في ديوانه، أن يعتَد ما يكتبه، وما يحسبه، وما يكد فيه عقله، ويتعب فيه يده، عملًا يقصد به مصلحة البلاد ورضى الله.

إن الدابة قد تكدح سحابة النهار، نظير طعامها. والإنسان قد يهبط بقيمة جهده إلى مستوى الحيوان، فيكون عمله لقاء راتبه فحسب.

لكن الرجل العاقل يغالي بتفكيره ونشاطه، فيجعلها لشيءٍ أجل.

ومن المؤسف أن هناك جمهوراً من الموظفين لا يفقهون إلا منطق المال

---

(١) الترمذي. (٢) أبو داود.

والدرجة والترقية. ويحتسبون بدينهم ودنياهم داخل هذا النطاق، ويربطون رضاهم وسخطهم، وفتورهم ونشاطهم بميزانه المضطرب.

قال رسول الله ﷺ: «إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس. فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذي يستأكل الناس: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول: وعزتك وجلالك أستأكل بها الناس. قال: لم ينفعك ما جمعت، انطلقوا به إلى النار. ثم يقول للذي كان يعبد رياءً: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك رياء الناس! قال: لم يصعد إلي منه شيء، انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذي كان يعبده خالصاً: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به، أردت به ذكرك ووجهك. قال: صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنة»[1].

* * *

والإخلاص العميق، ألزم ما يكون لميادين العلم والثقافة، فإن العلم أشرف ما ميز الله به الأكرمين من خلقه. فمن الزراية الشنيعة به أن يسخّر لعوامل الشر، وأن تختلط به الأهواء والفتن، والعالَم لم تصبه الجراحات القاتلة إلا على أيدي علماء، فقدوا الخلق الفاضل، والنزاهة المحمودة...

وقد أوجب الإسلام على الأستاذ والطالب جميعاً، أن يتجردا للعلم، وأن ينظرا قبل كل شيء إلى المثل العالية والمصلحة العامة. والتعلم والتعليم ابتغاء المال وحده وتلهفاً على المنفعة الشخصية المحضة، كما هو ديدن الألوف اليوم، هو في الحقيقة استهانة بقيمة العلم، وإضاعة لرسالته الجليلة.

قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّم علماً مما يُبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عرف[2] الجنة يوم القيامة»[3].

وقد كره الإسلام كذلك أن يطلب المرء العلم، حتى إذا نبغ فيه استكبر به على الناس، واتخذه وسيلة للشغب والمراء.

---

(١) الطبراني. (٢) عرف الجنة: ريحها. (٣) أبو داود.

وفي الحديث: «لا تعلَّموا العلم لتباهوا بـه العلماء، ولا تماروا بـه السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[1].

إن العلم ـ على اتساع فنونه الدنيوية والأخروية ـ لم يزدهر ويصل إلى المرحلة التي بلغها إلا بالتجرد الحق، والتعالي عن الأغراض الصغيرة. وهذا لا يعني البتة أن يكلف العلماء والمتعلمون بتحمل مشاق العيش، والتعـرض للأزمات المحرجة، فإن إخلاص النية لا يستلزم إعنات المخلص، وتحميله الأذى.

والعلل النـاشئة عن فقـدان الإخلاص كثيـرة، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان، وإذا قَلَّت تركت به ثُلَماً شتى، ينفذ منها الشيطان.

وإنما يسخط الله عز وجـل على ذوي الأغراض والمرائين وغيـرهم من عُبَّاد المال والجاه، لأن المفروض في المسلم، أن يضحي بالأغراض، والعلاقات والشهوات في سبيل الله، لا أن يذهل عن وجه ربه في سبيلها.

وقد كان سحرة فـرعون آية في اليقين الصحيح، والإخلاص العالي، عندما رفضوا الإغراء، وحقروا الإرهاب، وداسوا حب المال والجاه، وقالوا للملك الجبار: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِي هذهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[2].

وشتان بين هؤلاء الذين يستهينون بالدنيا في سبيل الله، وبين الذين يسخِّرون الدين نفسه في التقرب من كبير، أو الاستحواذ على عرض حقير.

* * *

(1) ابن ماجه.

(2) طه: ٧٢ ـ ٧٣.

أدب الحديث

نعمة البيان من أجلِّ النِّعَم التي أسبغها الله على الإنسان، وكرَّمه بها على سائر الخلق:

﴿ الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإنسانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1].

وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقها، ويستوجب شكرها، ويستنكر كنودها.

وقد بَيَّنَ الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة، وكيف يجعلون كلامهم الذي يتردد سحابة النهار على ألسنتهم طريقاً إلى الخير المنشود، فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام ولا تهدأ لألسنتهم حركة.

فإذا ذهبت تحصي ما قالوا، وجدت جله اللغو الضائع أو الهذر الضار؛ وما لهذا ركَّب الله الألسنة في الأفواه، ولا بهذا تقدَّر الموهبة المستفادة:

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[2].

وقد عُنِيَ الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام، وأسلوب أدائه، لأن الكلام الصادرَ عن إنسان ما، يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه. ولأن طرائق الحديث في جماعة ما، تَحْكُمُ على مستواها العام ومدى تغلغل الفضيلة في بيئتها.

* * *

(1) الرحمن: ١ ـ ٤.

(2) النساء: ١١٤.

ينبغي أن يسائل المرء نفسه قبل أن يتحدث إلى الآخرين:

هل هناك ما يستدعي الكلام؟ فإن وجد داعياً إليه تكلم، وإلا فالصمت أولى به وإعراضه عن الكلام حيث لا ضرورة له عبادة جزيلة الأجر.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان!!»[1].

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «خمس، لهم أحسن من الدُهُم الموقفة[2]: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فَضْل، ولا آمن عليك الوزر..! ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فإن رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه؛ فعيب..!

ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يقليك؛ وإن السفيه يؤذيك..! واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به؛ وأعفه مما تحب أن يعفيك منه..!

واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام»[3].

المسلم لا يستطيع هذا إلا إذا ملك لسانه، وسيطر على زمامه بقوة، فكبحه حيث يجب الصمت، وضبطه حين يريد المقال.

أما الذين تقودهم ألسنتهم فإنما تقودهم إلى مصارعهم.

* * *

إن للثرثرة ضجيجاً يذهب معه الرشد، وأكثر الذين يتصدرون المجالس ويتحدر منهم الكلام متتابعاً، يجزم مستمعهم بأنهم لا يستمدون حديثهم من وعي يقظٍ، أو فكرٍ عميقٍ، وربما ظن أن هناك انفصالاً بين العقل وهذا الكلام المسترسل!.

والمرء حين يريد أن يستجمع أفكاره ويراجع أعماله يجنح إلى الصمت، بل إنّه حين يريد أن يبصر نفسه ويرتب ذهنه، يفر من البيئة الصاخبة إلى ريفٍ

(١) الطبراني. (٢) الموقف من الخيل: الجيد منها. (٣) ابن أبي الدنيا.

صامت، أو ضاحيةٍ هادئةٍ. فلا جرم أن الإسلام يوصي بالصمت، ويعده وسيلة ناجعة من وسائل التربية المهذبة.

فمن نصائح رسول الله ﷺ لأبي ذرٍ: «عليك بطول الصمت، فإنه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك»(١).

أجل إن اللسان السائب حبل مرخي في يد الشيطان يصرف صاحبه كيف شاء. فإذا لم يملك الإنسان أمره، كان فمه مدخلاً للنفايات التي تلوث قلبه وتضاعف فوقه حجب الغفلة.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»(٢).

وأول مراحل هذه الاستقامة، أن ينفض يديه مما لا شأن له به، وألا يقحم نفسه فيما لا يسأل عنه: «من حسن إيمان المرء تركه ما لا يعنيه»(٣).

* * *

والبعد عن اللغو من أركان الفلاح، ودلائل الاكتمال، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الإسلام المحكمة، هما الصلاة والزكاة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ. الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُوْنَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ. وَالَّذِيْنَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾(٤).

لو أن العالم أجمع أحصى ما يشغل فراغه من لغو في القول والعمل، لـراعه أن يجد أكثر القصص المنشورة، والصحف المشهورة، والخطب والإذاعات لغواً مطَّرداً، تعلق به الأعين، وتميل إليه الآذان، ولا ترجع بطائل.

وقد كره الإسلام اللغو؛ لأنه يكره التفاهات وسفاسف الأمور. ثم هو مضيعة للعمر، في غير ما خلق الإنسان له من جد وإنتاج.

وبقدر تنزه المسلم عن اللغو، تكون درجته عند الله.

عن أنس بن مالك قال: توفي رجل، فقال رجل آخر ـ ورسول الله ﷺ

(١) أحمد. (٢) أحمد. (٣) الترمذي.
(٤) المؤمنون: ١ ـ ٤.

يسمع ـ: أبشر بالجنة. فقال رسول الله: «أولا تدري؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»[1].

واللاغي، لضعف الصلة بين فكره ونطقه؛ يرسل الكلام على عواهنه. فربما قذف بكلمة سست بواره ودمرت مستقبله، وقد قيل: من كثر لغطه كثر غلطه. وقال الشاعر:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرِّجلِ

وفي الحديث: «إن العبد ليقول الكلمة، لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس، يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض! وإن المرء ليزلُّ عن لسانه أشد مما يزلُّ عن قدميه!»[2].

* * *

فإذا تكلم المرء فليقل خيراً وليعوِّد لسانه الجميل من القول، فإن التعبير الحسن عما يجول في النفس أدبٌ عالٍ؛ أخذ الله به أهل الديانات جميعاً.

وقد أوضح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل على عهد موسى.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[3].

والكلام الطيب العف يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً، وله ثماره الحلوة.

فأمَّا مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم، ويستديم صداقتهم، ويمنع كيد الشيطان أن يوهي حبالهم ويفسد ذات بينهم:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾[4].

---

(١) الترمذي.   (٢) البيهقي.   (٣) البقرة: ٨٣.

(٤) الإسراء: ٥٣.

إن الشيطان متربصٌ بالبشر، يريد أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن يجعل من النزاع التافه عراكاً دامياً ولن يسد الطريق أمامه كالقول الجميل.

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفىء خصومتهم، ويكسر حدَّتهم، أو هو على الأقل يوقف تطور الشر واستطارة شرره.

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾(١).

وفي تعويد الناس لطف التعبير مهما اختلفت أحوالهم يقول رسول الله:

«إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخُلُق»(٢). بل إنه يرى الحرمان مع الأدب أفضل من العطاء مع البذاءة.

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾(٣).

والكلام الطيب خصلة تسلك مع ضروب البر ومظاهر الفضل، التي ترشح صاحبها لرضوان الله، وتكتب له النعيم المقيم.

روي عن أنس قال: قال رجل للنبي ﷺ: علمني عملاً يدخلني الجنة! قال: «أطعم الطعام، وأفش السلام، وصَلِّ بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام»(٤).

وقد أمر الله عزّ وجلّ بأن يكون حجاجنا مع أصحاب الأديان الأخرى في هذا النطاق الهادىء الكريم، لا عنف فيه ولا نكر، إلا أن يجور علينا امرؤ أثيم، فيجب كبح جماحه، ومنع اعتدائه:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم ﴾(٥).

وعظماء الرجال يلتزمون في أحوالهم جميعاً ألا تبدر منهم لفظة نابية،

---

(١) فصلت: ٣٤. (٢) البزار. (٣) البقرة: ٢٦٣.
(٤) البزار. (٥) العنكبوت: ٤٦.

ويتحرجون مع صنوف الخلق، أن يكونوا سفهاء أو متطاولين.

روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد: أن عيسى عليه السلام مر بخنزير على الطريق، فقال له: انفذ بسلام! فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ فقال: إني أخاف أن أعود لساني النطق بالسوء!.

* * *

ومن الناس من يعيش صفيق الوجه، شرس الطبع، لا يحجزه عن المباذل يقين، ولا تلزمه المكارم مروءة، ولا يبالي أن يتعرض للآخرين بما يكرهون؛ فإذا وَجَدَ مجالاً يُشْبِع فيه طبيعته النزقة الجهول، انطلق على وجهه لا ينتهي له صياح، ولا تنحبس له شرّة.

والرجل النبيل لا ينبغي أن يشتبك في حديث مع هؤلاء، فإن استثارة نزقهم فساد كبير، وسد ذريعته واجب، ومِنْ ثَمَّ شرع الإسلام مداراة السفهاء.

حدث أن وقف رجل من أولئك الجهّال أمام بيت الرسول يريد الدخول، فرأى النبي أن يجاسنه حتى يصرفه، ولم يكن من ذلك بد ـ فالحلم فِدام[1] السفيه ـ ولو تركه يسكب ما في طبيعته الفظة لسمع ما تتنزه عنه أذناه!!.

وعن عائشة قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «بئس أخو العشيرة هو» فلما دخل انبسط إليه وألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، حين سمعت الرجل قلت: كذا وكذا، ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه!! فقال: «يا عائشة متى عهدتني فاحشاً؟ إن من شر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء فحشه»[2].

وهذا مسلك تصدقه التجارب، فإن الرجل لا يسوغ أن يفقد خلقه مع من لا خلق لهم. ولو أنه شغل بتأديب كل جهول يلقاه لأعيته الحيل من كثرة ما

(١) الفدام: ما يشد على الفم.

(٢) البخاري.

سوف يلقى. ولذلك عد القرآن الكريم في أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن، هذه المداراة العاصمة:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً، وَإِذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾[1].

﴿ وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَقَالُوا: لَنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكمْ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾[2].

وقد يكظم الإنسان غيظه مرة أو مرتين ثم ينفجر.

بَيد أن المطلوب من المسلم الفاضل، أن يطاول الأذى أكثر من ذلك حتى لا يدع الشر يسيطر على الموقف آخر الأمر.

عن سعيد بن المسيب قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس في أصحابه وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه، ثم آذاه الثالثة، فانتصر أبو بكر رضي الله عنه، فقام رسول الله ﷺ. فقال أبو بكر: أَوَجَدْت علي يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن نزل ملك من السماء يكذبه بما قال، فلما انتصرت، ذهب الملك، وقعد الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ قعد الشيطان»[3].

* * *

ومداراة السفهاء لا تعني قبول الدَنيَّة. فالفرق بين الحالين بعيد.

الأولى ضبط النفس أمام عوامل الاستفزاز، ومنعها طوعاً أو كرهاً من أن تستجيشها دواعي الغضب وإدراك الثأر.

أما الأخرى فهي بلادة النفس، واستكانتها إلى الهون! وقبولها ما لا يرضى به ذو عقل أو مروءة.

وقد أعلن القرآن محبته لمداراة السفهاء وكراهيته لقبول الدنية.

---

(١) الفرقان: ٦٣. (٢) القصص: ٥٥. (٣) أبو داود.

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً. إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً ﴾[1].

* * *

ومن الضمانات التي اتخذها الإسلام لصيانة الكلام عن النزق والهوى تحريمه الجدل، وسده لأبوابه، حقاً كان أو باطلاً.

ذلك أن هناك أحوالاً تستبد بالنفس، وتغري بالمغالبة ، وتجعل المرء يناوش غيره بالحديث، ويصيد الشبهات التي تدعم جانبه، والعبارات التي تروج حجته. فيكون حب الانتصار عنده أهم من إظهار الحق، وتبرز طبائع العناد والأثرة في صور منكرة، لا يبقى معها مكان لتبيين أو طمأنينة!!.

والإسلام ينفر من هذه الأحوال ويعدها خطراً على الدين والفضيلة.

قال رسول الله ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بُني له بيت في ربض الجنة. ومن تركها وهو محق بُني له في وسطها، ومن حسن خلقه بُني له في أعلاها»[2].

وهناك أناس أوتوا بسطة في ألسنتهم، تغريهم بالاشتباك مع العالم والجاهل، وتجعل الكلام لديهم شهوة غالبة، فهم لا يملونه أبداً.

وهذا الصنف، إذا سلط ذلاقته على شؤون الناس أساء، وإذا سلطها على حقائق الدين شوه جمالها وأضاع هيبتها.

وقد سخط الإسلام أشد السخط على هذا الفريق الثرثار المتقعر.

قال النبي ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[3] وقال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»[4].

هذا الصنف لا يقف ببسطة لسانه عند حدّ، إنه يريد الكلام فحسب، يريد أن يباهي به ويستطيل، إن الألفاظ تأتي في المرتبة الأولى، والمعاني في المرتبة

(١) النساء: ١٤٨، ١٤٩.   (٢) أبو داود.   (٣) البخاري.
(٤) الترمذي.

الثانية، أما الغرض النبيل، فربما كان له موضع أخير، وربما عزّ له موضع، وسط هذا الصخب.

ولقد حدث أن واحداً من أولئك الأغرار وفد إلى النبي ﷺ: «. . . عليه شارة حسنة» فجعل النبي لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتي بكلام يعلو كلام النبي ﷺ!! فلما انصرف قال رسول الله: «إن الله لا يحب هذا وأضرابه، يلوون ألسنتهم للناس ليَّ البقر بلسانها المرعى. كذلك يلوي الله تعالى ألسنتهم ووجوههم في النار»[1].

والجدال في الدين، والجدال في السياسة، والجدال في العلوم والآداب، عندما يتصدى له هذا النفر من الأدعياء البلغاء، يفسد به الدين، وتفسد السياسة والعلوم والآداب، ولعل السبب في الانهيار العمراني، والتحزب الفقهي، والانقسام الطائفي، وغير ذلك مما أصاب الأمة الإسلامية، هو هذا الجدل الملعون في حقائق الدين، وشؤون الحياة.

والجدل أبعد شيء عن البحث النزيه والاستدلال الموفق.

روي عن عدد من الصحابة، قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثم انتهرنا فقال: «مهلاً يا أمة محمد، إنما هلك مَنْ كان قبلكم بهذا؛ ذَرُوا المِراء لقلة خيره، ذَروا المِراء فإن المؤمن لا يماري، ذَروا المِراء فإن المماري قد تمت خسارته، ذَروا المراء فكفى إثماً ألا تزال ممارياً، ذَروا المِراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذَروا المِراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة، رباضها، ووسطها، وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق. ذَروا المِراء، فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المِراء»[2].

* * *

وللناس مجالس يتجاذبون أطراف الحديث فيها، والإسلام يكره مجالس القاعدين الذين يقضون أوقاتهم في تَسَقُّط الأخبار وتَتَبُّع العيوب، لأن لهم

---

(١) الطبراني.

(٢) الطبراني.

فضول أموال يستريحون في ظلها، وليسوا يجدون شغلاً إلاّ في التسلي بشؤون الآخرين.

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾(1).

وقد فشا في عصرنا هذا جلوس الجماهير في النوادي والمشارب.

وتلك آفة أصابت المجتمع بعلل شتى، وقد كثرت في المدائن والقرى لغير ضرورة مشروعة.

وفي الحديث: «إيّاكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. قال: إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، وردُّ السلام؛ والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»(2).

---

(1) الهمزة: ١ ـ ٤.
(2) مسلم.

سلامة الصدر من الأحقاد

ليس أروح للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرأ من وساوس الضغينة، وثوران الأحقاد، إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها، وأحس فضل الله فيها، وفقر عباده إليها، وذكر قول رسول الله ﷺ: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»[1]، وإذا رأى أذى يلحق أحداً من خلق الله رثى له، ورجا الله أن يفرج كربه ويغفر ذنبه، وذكر مناشدة الرسول ربه:

إن تغفر اللَّهُمَّ تغفرْ جَمَّا وأيُّ عبدٍ لك ما أَلَمَّا

وبذلك يحيا المسلم ناصعَ الصفحة، راضياً عن الله وعن الحياة، مستريحَ النفس من نزعات الحقد الأعمى، فإن فساد القلب بالضغائن داء عياء، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من القلب المغشوش؛ كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم!.

ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة، فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهجتها ويعكر صفوها.

أما القلب المشرق فإن الله يبارك في قليله. وهو إليه بكل خير أسرع:

عن عبدالله بن عمرو: «قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان. قيل: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد!»[2].

---

(1) أبو داود. (2) ابن ماجه.

ومِنْ ثَمَّ كانت الجماعة المسلمة حقاً، هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك، والود الشائع، والتعاون المتبادل، والمجاملة الرقيقة، لا مكان فيها للفردية المتسلطة الكنود؛ بل هي كما وصف القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[1].

* * *

إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها، وتفرعت أشواكها، شَلَّتْ زهرات الإيمان الغض، وَأَذْوَتْ ما يوحي به من حنان وسلام.

وعندئذ لا يكون في أداء العبادات المفروضة خير، ولا تستفيد النفس منها عصمة.

وكثيراً ما تطيش الخصومة بألباب ذويها، فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة، والكبائر الموجبة لـلَّعنة، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة، فهي تعمى عن الفضائل، وتضخِّم الرذائل، وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب؛ وذلك كله مما يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه ويرى منعه أفضل القربات.

قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة؛ لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين!»[2].

ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم، ولكنه ـ وهو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك ـ لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه، حتى يجهل حقوقه أشد مما يجهلها الوثني المخرِّف، وهو يحتال لذلك بإيقاد نيران العداوة في القلوب، فإذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم، وتلتهم علائقهم وفضائلهم:

قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة

---

(١) الحشر: ١٠.
(٢) الترمذي.

العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم»[1].

ذلك أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتنافر ودُّها، وانكسرت زجاجتها، ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض.

* * *

وقد تيقظ الإسلام لبوادر الجفاء، فَـلاَحَقَها بالعلاج، قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة، والمعروف أن البشر متفاوتون في أمزجتهم وأفهامهم، وأن التقاءهم في ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف إن لم يكن صدام وتباعد. ولذلك شرع الإسلام من المبادىء ما يرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة، وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة، فنهى عن التقاطع والتدابر.

نعم قد يحدث أن تشعر بإساءةٍ موجهةٍ إليك، فتحزن لها وتضيق بها، وتعزم على قطع صاحبها.

ولكن الله لا يرضى أن تنتهي الصلة بين مسلم ومسلم إلى هذا المصير.

قال النبي ﷺ: «لا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[2].

وفي رواية: «لا يحق لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث. فإن مرت به ثلاث فَلْيَلْقَهُ فليسلم عليه. فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر. وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلِّم من الهجرة»[3] وهذا التوقيت فترة تهدأ فيها الحدَّة وينفثىء[4] الغضب. ثم يكون لزاماً على المسلم بعده أن يواصل إخوانه، وأن يعود معهم سيرته الأولى. كأن القطيعة غيمة، ما إن تجمعت حتى هبَّتْ عليها الريح فبددتها، وصفا الأفق بعد عبوس.

والإنسان في كل نزاع ينشب، أحد رجلين: إما أن يكون ظالماً، وإما أن

---

(١) مسلم. (٢) البخاري. (٣) أبو داود.

(٤) ينفثىء: من قولهم فثأ الغضب سكن.

يكون مظلوماً. فإن كان عادياً على غيره، ناقصاً لحقه، فينبغي أن يُقلِعَ عن غيه وأن يُصْلِحَ سيرته. وليعلم أنه لن يستل الضغن من قلب خصمه، إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه. وقد أمر الإسلام المرء ـ والحالة هذه ـ أن يستصلح صاحبه ويطيب خاطره.

قال رسول الله ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[١].

ذلك نصح الإسلام لمن عليه الحق. أما من له الحق فقد رغب إليه أن يلين ويسمح، وأن يمسح أخطاء الأمس بقبول المعذرة، عندما يجيء له أخوه معتذراً ومستغفراً، ورفض الاعتذار خطأ كبيرٌ.

وفي الحديث: «من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس»[٢].

وفي رواية: «من تُنُصِّل إليه فلم يقبل، لم يَرِدْ على الحوض»[٣].

وبهذا الإرشاد المبين للطرفين جميعاً يحارب الإسلام الأحقاد، ويقتل جرثومتها في المهد، ويرتقي بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع، من الصداقات المتبادلة، أو المعاملات العادلة.

وقد اعتبر الإسلام من دلائل الصَّغَار وخسة الطبيعة، أن يرسب الغل في أعماق النفس فلا يخرج منها، بل يظل يموج في جوانبها كما يموج البركان المكتوم.

وكثير من أولئك الذينَ يحتبس الغل في أفئدتهم، يتلمسون متنفساً له في وجوه من يقع معهم، فلا يستريحون إلا إذا أرغوا وأزبدوا، وآذوا وأفسدوا:

---

(١) البخاري. (٢) ابن ماجه؛ المكس: نوع خبيث من نهب المال. (٣) الطبراني.

روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله. قال: إن شراركم الذي ينزل وحده، ويجلد عبده، ويمنع رِفْدَه، أفلا أنبئكم بشرٍ من ذلك؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقبلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنباً. قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: من لا يُرْجى خيرُه ولا يُؤْمَن شرُّه»(١).

والأصناف التي أحصاها هذا الحديث أمثلة لأطوار الحقد عندما تتضاعف علته وتفتضح سوأته، ولا غرو، فمن قديم أحسَّ الناس، حتى في جاهليتهم، أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق! وأن ذوي المروءات يتنزهون عنه! قال عنترة:

لا يَحْمِلُ الحقدَ من تَعْلو به الرُّتَبُ   ولا ينالُ العلا من طبعُهُ الغضبُ

* * *

وهناك رذائل رَهَّبَ الإسلام منها، وليس يفوت النظر القريب أن تعرف مصدرها الدفين.

إنها على اختلاف مظاهرها، تعود إلى علة واحدة هي الحقد.

فالافتراء على الأبرياء جريمة، يدفع إليها الكره الشديد. ولما كان أثرها شديداً في تشويه الحقائق، وجرح المستورين، عدها الإسلام من أقبح الزور.

روت عائشة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أتدرون أربى الربا عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم؛ ثم قرأ رسول الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَد احتَمَلُوا بُهْتَاناً وإثماً مُبِيناً﴾(٢)».

ولا شك أن تلمس العيوب للناس، وإلصاقها بهم عن تَعَمُّدٍ يَدُلُّ على

(١) الطبراني.
(٢) ابو يعلى.

خبث ودناءة، وقد رتب الإسلام عقوباتٍ عاجلة لبعض جرائم الافتراء. وما يُبَيَّتُ في الآخرة لصنوف الافتراء أشد وأنكى.

قال رسول الله: «من ذكر امرأً بشيء ليس فيه، ليعيبه به، حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد ما قال فيه»[1].

وفي رواية: «أيّما رجلٍ أشاع على رجل مسلم كلمة، وهو منها بريء، يشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار، حتى يأتي بنفاد ما قال».

وما دام الذي قاله بهتاناً؛ فكيف يستطيع أن يثبت عند الله باطلاً؟ وكيف يتنصل من تبعته؟.

إن سلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس، إن عجز عن سوقه إليهم بيَدِهِ.

أما الذي لا يجد بالناس شراً فينتحله لهم انتحالاً، ويزوره عليهم تزويراً فهو أفّاك صَفيق.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

ومن فضل الله على العباد أنه استحب ستر عيوب الخلق؛ ولو صدق اتصافهم بها. وما يجوز لمسلم أن يتشفّى بالتشنيع على مسلم ولو ذكره بما فيه، فصاحب الصدر السليم يأسى لآلام العباد؛ ويشتهي لهم العافية. أما التلهي بسرد الفضائح، وكشف الستور، وإبداء العورات؛ فليس مسلك المسلم الحق.

ومِنْ ثَمَّ حرَّم الإسلام الغيبة، إذ هي متنفس حقدٍ مكظومٍ، وصدرٍ فقيرٍ إلى الرحمة والصفاء.

عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله

---

(١) الطبراني.

(٢) النور: ١٩.

أعلم! قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[١].

ومن آداب الإسلام التي شرَّعها لحفظ المَوَدَّات، واتقاءِ الفرقة، تحريم النميمة، لأنها ذريعة إلى تكدير الصفو وتغيير القلوب.

وقد كان النبي ينهى أن يُبَلَّغَ عن أصحابه ما يسوؤه، قال: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[٢].

وعلى من سمع شيئاً من ذلك ألاّ يوسع الخرق على الراقع. فرُبَّ كلمة شرٍ تموت مكانها لو تركت حيث قيلت! وربَّ كلمة شر سعرت الحروب، لأن غِرّاً نقلها ونفخ فيها، فأصبحت شرارة تنتقل بالويلات والخطوب.

قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نَمَّام»[٣]، وفي رواية «قَتَّات».

قال العلماء: هما بمعنى واحد. وقيل: النَّمام: الذي يكون مع جماعة يتحدثون فينقل عنهم. والقَتَّات: الذي يستمع عليهم من حيث لا يشعرون، ثم يَنُم.

وروي في الحديث: «إن النميمة والحقد في النار، لا يجتمعان في قلب مسلم»[٤].

ومن لوازم الحقد سوء الظن، وتتبع العورات، واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم، أو خصائصهم البدنية والنفسية.

وقد كره الإسلام ذلك كله كراهية شديدة.

قال رسول الله ﷺ: «من علم من أخيه سيئة فسترها، ستر الله عليه يوم القيامة»[٥].

وقال: «من ستر على مؤمن عورة فكأنما أحيا موؤدة»[٦].

(١) مسلم. (٢) أبو داود. (٣) البخاري.
(٤) الطبراني. (٥) الطبراني. (٦) الطبراني.

وكثيراً ما يكون متبعو العورات لفضحها أشد إجراماً، وأبعد عن الله قلوباً من أصحاب السيئات المتكشفة. فإن التربص بالجريمة لشهرها، أقبح من وقوع الجريمة نفسها.

وشتان بين شعورين: شعور الغيرة على حرمات الله والرغبة في حمايتها، وشعور البغضاء لعباد الله والرغبة في إذلالهم.

إن الشعور الأول قد يصل في صاحبه إلى القمة، ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن التشفي من الخلق، وانتظار عثراتهم، والشماتة في آلامهم.

* * *

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس، ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق آخرون.

فمن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوي الأثرة بالمرء فتجعله يتمنى الخسارة لكل إنسان، لا لشيء، إلا لأنه هو لم يربح!!.

ثم إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرة، وأكرم عاطفة، فينظر إلى الأمور من خلال الصالح العام، لا من خلال شهواته الخاصة.

وجمهور الحاقدين، تغلي مراجل الحقد في أنفسهم، لأنهم ينظرون إلى الدنيا فيجدون ما يتمنونه لأنفسهم قد فاتهم، وامتلأت به أكف أخرى.

وهذه هي الطامة التي لا تدع لهم قراراً!!.

وقديماً رأى إبليس أن الخطوة التي يتشهّاها قد ذهبت إلى آدم، فآلى ألا يترك أحداً، يستمتع بها بعد ما حُرِمَها.

﴿قال: فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[(١)].

---

(١) الأعراف: ١٦ ـ ١٧.

هذا الغليان الشيطاني هو الذي يضطرم في نفوس الحاقدين ويفسد قلوبهم. وقد أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المنكر، وأن يسلكوا في الحياة نهجاً أرقى وأهدأ.

عن أنس بن مالك قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال. فلما كان الغد قال النبي مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى.

فلما قام النبي، تبعه عبدالله بن عمرو ـ تبع الرجل ـ فقال: إني لاحيت[1] أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً. فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت! قال: نعم.

قال أنس: فكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعار ـ تقلب في فراشه ـ ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر. قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً.

فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله. قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة. ولكني سمعت رسول الله يقول لك ـ ثلاث مرات ـ : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة؛ فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك، فأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل!! فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. قال عبدالله: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك!!)[2].

وفي رواية: ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخي، إلا أني لم أبت ضاغناً على مسلم[3].

* * *

---

(١) لاحيت: خاصمت. (٢) أحمد. (٣) البزار.

وقد حَرَّم الإسلام الحسد، وأمر الله رسوله أن يستعيذ من شرور الحاسدين لأن الحسد جمرة تتقد في الصدر فتؤذي صاحبها وتؤذي الناس به.

والشخص الذي يتمنى زوال النعم آفة تحذر غوائلها على المجتمع، ولا يُطمأن إلى ضميره في عمل.

وقد قال رسول الله: «لا يجتمع في جوف عبد غبارٌ في سبيل الله وفيح جهنم. ولا يجتمع في جوف عبد، الإيمان والحسد»[1].

وقال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[2].

والرجل الذي يكره المنعم عليهم، ويود لو يمسون محرومين ويصبحون ضائعين، رجل ضللته عن حقيقة الحياة ظلمات شتى.

إنه أولاً محصور بالدنيا ومتاعها، يقاتل عليه ويبكي وراءه، ويتبع بالغيظ من نالوا نصيباً ضخماً منه.

وهذا خطأ في تقدير الحياتين، بل لعله جَهْلٌ أو ذهولٌ عن الحياة الأخرى وما ينبغي لها من استعداد، يجب أن يتأهب المرء له، ويأسى لفواته.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. قل بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3].

ثم إن الحاسد بعد ذلك، شخص واهن العزم، كليل اليد، جاهل بربه وبسنته في كونه.

ذلك أنه لما فاته الخير لأمر ما تحول يكيد للناجحين!!

حَسَدُوا الفَتَى إذ لم يَنَالُوا سَعْيَه فَالْكُلُّ أَعْدَاءٌ لَهُ وخُصُومُ

(1) البيهقي. (2) أبو داود. (3) يونس: ٥٧ ـ ٥٨.

وكان أجدى عليه أن يتحول إلى ربه، يسأله من فضله. فإن خزائنه ليست حكراً على واحد بعينه، ثم يستأنف السعي في الحياة بعدئذ.

فلعل ما عجز عنه في البداية يدركه ثانية. إن هذا لا ريب أشرف من الضغينة على الآخرين.

والبون بعيد بين الحسد والطموح، وبين الحسد والغبطة، وبين الحسد واستنكار العوج في الأوضاع والخلط في المنع والعطاء.

فالطموح رغبة في الرفعة وسعي إليها. وذلك شأن الصالحين من عباد الله.

قال سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(١).

وقال عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾(٢).

والتطلع إلى فضل الله مع الأخذ في أسباب اكتسابه شيء غير كراهية فضل الله عندما ينزل بإنسان معين.

والغبطة رغبة المرء في الحصول على نعمة مماثلة لما أكرم الله به الآخرين.

ولما كان تطلع الإنسان إلى غيره، قد يكون فتحاً لأبواب الفتنة، وتعلقاً بالمنى الباطلة، واشتهاء لما يحسبه الشخص نافعاً له، وهو في الحقيقة ضار به، أرشد الإسلام إلى ما ينبغي طلبه، والتنافس فيه، فقال رسول الله ﷺ:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(٣).

والحسد في الحديث تمني مثيل النعمة، لا تمني زوالها.

---

(١) ص: ٣٥. (٢) الفرقان: ٧٤. (٣) البخاري.

والمقصود أن يكون المثل الأعلى الذي يستهدفه الإنسان جليلاً رائعاً، فإن من سقوط الهمة أن ترتبط الآمال بالتافه من الأحوال. وهناك شؤون يعتبر التشبث بطلبها عبثاً لا يورث إلا الحسرة. وقد ينتهي بالحقد على الناس، لا لشيء إلا لأن الله خصهم بمواهب فطرية، أو بمنافع تقوم على هذه المواهب.

وفي هذه الشؤون وأمثالها يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[1].

وأما استنكار العوج في الأوضاع، فهو إقرار العدالة الواجبة، وليس من قبيل الحسد المذموم.

هام فإذا غضبنا لأن هذا أخذ الكثير على جهد قليل، أو رفع إلى درجة لا ترشحه لها كفايته، فهذا الغضب مفهوم ومحمود، وهو ضرب من رعاية المصالح العامة، لا صلة للحقد الشخصي به.

إن الإسلام يتحسس النفوس بين الحين والحين، ليغسلها من أدران الحقد الرخيص، وليجعلها حافلةً بمشاعر أزكى وأنقى نحو الناس ونحو الحياة.

في كل يوم، وفي كل أسبوع، وفي كل عام تمر النفوس من آداب الإسلام في مصفاة تحجز الأكدار، وتنقي العيوب، ولا تبقي في الأفئدة المؤمنة أثارة من ضغينة.

أما في كل يوم: فقد أوضح الإسلام أن الصلوات المكتوبة لا يحظى المسلم بثوابها إلا إذا اقترنت بصفاء القلب للناس، وفراغه من الغش والخصومات.

قال رسول الله: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً: رجل أمَّ

---

(١) النساء: ٣٢.

قوماً وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[1].

وأما في كل أسبوع: فإن هناك إحصاء لما يعمله المسلم، ينظر الله فيه ليحاكم المرء إلى ما قدمت يداه، وأسرّه ضميره، فإن كان سليم الصدر نجا من العثار، وإن كان ملوثاً بمآثم الغضب والحسد والسخط، تأخر في المضمار.

قال رسول الله ﷺ: «تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء. فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»[2].

وأما في كل عام: فبعد تراخي الليالي وامتداد الأيام، لا ينبغي أن يبقى المسلم حبيساً في سجن العداوة، مغلولاً في قيود البغضاء.

فإن لله في دنيا الناس نفحات لا يظفر بخيرها إلا الأصفياء السمحاء.

ففي الحديث: «إن الله عز وجل يطلع على عباده، ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخِّر أهل الحقد كما هم!»[3].

فمن مات بعد هذه المصافي المتابعة، والبغضاء لاصقة بقلبه لا تنفك عنه، فهو جدير بأن يَصْلى حر النار. فإن ما عجزت الشرائع عن تطهيره، لا تعجز النار عن الوصول إلى قراره، وكيِّ أضغانه وأوزاره.

* * *

والشحناء التي كرهها الإسلام وكره ما يدفع إليها أو ينشأ عنها، هي التي تنشب من أجل الدنيا وأهوائها، والطماعية في اقتناص لذائذها والاستئثار بمتاعها.

أما البغض لله، والغضب للحق، والثورة للشرف، فشأن آخر...

---

(١) ابن ماجه. ومتصارمان: متقاطعان.　(٢) مسلم.　(٣) البيهقي.

وليس على المسلم جناح في أن يقاطع حتى الموت؛ من يفسقون عن أمر الله، أو يعتدون على حدوده. وليس عليه من لائمة في أن يَكُنَّ لهم البغضاء، ويعالنهم بالعداء.

بل إن ذلك أمارات الإيمان الصحيح، والإخلاص لله وحده.

وقد أمر الله عز وجل أن نجافي أعداءه ولو كانوا أقرب الناس إلينا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

وابتعاد المسلم عمن تسوء صحبتهم، أو من يغرون بالتهاون والهزل واجب.

وابتعاده عمن أخطأ في حق الله، عقاباً له، إلى أجل محدود أو ممدود، لا شيء فيه، فقد هجر النبي بعض نسائه أربعين يوماً. وهجر عبدالله بن عمر ولداً له حتى مات، لأنه رد حكماً لرسول الله، كان أبوه يرويه في إباحة خروج النساء إلى المساجد.

(١) التوبة: ٢٣.

القــــوّة

العقيدة المكينة، معين لا ينضب للنشـاط الموصـول، والحماسـة المذخورة، واحتمال الصعاب، ومواجهة الأخطار، بل هي سائق حثيث يدفع إلى لقاء الموت دون تهيب، إن لم يكن لقاء محب مشتاق!!.

تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن، إنه يضفي على صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كله، فإذا تكلم كان واثقاً من قوله، وإذا اشتغل كان راسخاً في عمله، وإذا اتجه كان واضحاً في هدفه، وما دام مطمئناً إلى الفكرة التي تملأ عقله، وإلى العاطفة التي تعمر قلبه، فقلما يعرف التردد سبيلاً إلى نفسه، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه، بل لا عليه أن يقول لمن حوله:

﴿اعمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[1].

هذه اللهجة المقرونة بالتحدي، وهذه الروح المستقلة في العمل، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق.. ذلك كله يجعله في الحياة رجل مبدأ متميز، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره. إن رآهم على الصواب تعاون معهم، وإن وجدهم مخطئين، نأى بنفسـه، واستوحى ضميره وحده.

قال رسول الله: «لا يكن أحدكم إمَّعة. يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت!! ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن

(١) الزمر: ٣٩ ـ ٤٠.

الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»[1].

والرجل الضعيف، هو الذي يستعبده العرف الغالب، وتتحكم في أعماله التقاليد السائدة، ولو كانت خطأً يجر معه متاعب الدنيا والآخرة.

((وقد أحدث الناس في أفراحهم وأحزانهم بدعاً شتى، وتواضعوا على الاستمساك بها أشد من استمساكهم بحقائق الدين نفسها.

ولكن المؤمن الحق، لا يكترث بأمر ليس له من دين الله سناد. وهو، في جرأته على العرف والتقاليد، سوف يلاقي العنت، بيد أنه لا ينبغي أن يخشى في الله لومة لائم. وعليه أن يمضي إلى غايته، لا تعنيه قسوة النقد، ولا جراحات الألسنة.

والباطل الذي يروج حيناً، ثم يثور الأقوياء عليه فيسقطون مكانته، لا يبقى على كثرة الأشياع أمداً طويلاً، ورُبَّ مخاصِمٍ اليوم من أجل باطل انخدع به، أمسى نصيراً لمن خاصمهم، مستريحاً إلى ما علم منهم، مؤيداً لهم بعد شقاق.))

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أسخط الله في رضى الناس سخط الله عليه، وأسخط عليه من أرضاه في سخطه! ومن أرضى الله في سخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه من أسخطه في رضاه!! حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينيه»[2].

فليجمد المسلم على ما يوقن به، وليستخف بما يلقاه من سخرية واستنكار عندما يشذ عن عرف الجهال، ويخط لنفسه نهجاً يلتمس به مثوبة الله عز وجل. ولئن كان الإيمان بالأوهام يغري البعض بأن يسخر ويتهكم، فإن الإيمان بالإسلام يجب أن يجعل أصحابه أقوياء راسخين.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً، أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً؟ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[3].

---

(1) الترمذي. (2) الطبراني. (3) الفرقان: ٤١ - ٤٢.

أجل! يجب أن يكون المسلم شاعراً بقوة اليقين في شخصه، وروعة الإيمان في نفسه. فإن لم يستطع فَرْضَ ذلك على ما حوله بقي كالطود الأشم، لم تجرفه الغمار السائدة، ولم تَطْوِهِ اللجج الصاخبة. وماذا عسى يفعل الناس لامرىء اعتز بإيمانه، واستشعر القوة لصلته بربه، واستقامته في دينه؟ إنهم لو تألبوا عليه جميعاً ما نالوا منه قليلاً ولا كثيراً.

عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك: احفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك، جفت الأقلام وطويت الصحف».

والحق أن فضيلة القوة ترتكز في نفس المسلم على عقيدة التوحيد، كغيرها من الفضائل التي تجعله يرفض الهوان في الأرض، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء، ولأنه يستطيع في نطاق إيمانه أن يكون أمة وحده. وفي فمه قول الله عز وجل:

﴿قُلْ: أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّموات وَالأَرْض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ؟ قُلْ: إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(1).

* * *

ومن فضائل القوة التي يوجبها الإسلام أن تكون وثيق العزم، مجتمع النية على إدراك هدفك بالوسائل الصحيحة التي تقربك منه، باذلاً قصارى جهدك في بلوغ مأربك، غير تارك للحظوظ أن تصنع لك شيئاً، أو للأقدار أن تدبر لك ما قصرتَ في تدبيره لنفسك!! فإن هناك أقواماً يجعلون من اللجوء إلى الله ستاراً يواري تفريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم. وهذا التواء كرهه الإسلام.

(1) الأنعام: ١٤.

فعن عوف بن مالك قال: قضى رسول الله بين رجلين. فلما أدبرا قال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل! فقال ﷺ: «إن الله يلوم على العجز! ولكن عليك بالكَيْس[1]. فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»[2].

أي أن المرء مكلف بتعبئة قواه كلها لمغالبة مشاكله حتى تنزاح من طريقه، فإن ذللها حتى استكانت له فقد أدّى واجبه.

وإن غُلِبَ على أمره أمامها بعد استفراغ جهده كان ركونه إلى الله عندئذ معاذاً يعتصم به من غوائل الانكسار، فهو على الحالين قوي، بعمله أولاً وبتوكله آخراً.

إن الإسلام يكره لك أن تكون متردداً في أمورك، تحارُ في اختيار أصْوَبها وأسلمها، وتكثر الهواجس في رأسك فتخلق أمامك جواً من الريبة والتوجس، فلا تدري كيف تفعل. وتضعف قبضتك في الإمساك بما ينفعك. فيفلت منك، ثم يذهب سدى. إن هذا الاضطراب لا يليق بالمسلم.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»[3].

وعمل الشيطان هو تشييع الماضي بالنحيب والإعوال، هو ما يلقيه في النفس من أسى وقنوط على ما فات. إن الرجل لا يلتفت وراءه إلا بمقدار ما ينتفع به في حاضره ومستقبله، أما الوقوف مع هزائم الأمس، واستعادة أحزانها والتعثر في عقابيلها، وتكرار لو، وليت، فذلك ليس من خلق المسلم بل لقد عده القرآن الكريم من مظاهر الحسرة التي تتلجلج في قلوب الكافرين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِيْنَ كَفَرُوا، وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ، إذَا

(1) الكَيْس: العقل. (2) أبو داود. (3) مسلم.

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى، لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

وقد جاء في الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

والتوكل الذي يَقْوَى الإنسان به ضرب من الثقة بالله، ينعش الإنسان عندما تكتنفه ظروف محرجة، ويلتفت حوله فلا يرى عوناً ولا أملاً!.

فالمكافح عدواً قوي الشكيمة، شديد البأس، على ضعف العدة وقلة الناصر، يحس عندما يتوكل على الله أنه أوى إلى ركن شديد. ويستمد من هذا التوكل ثباتاً ورباطاً، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر، وقد بَيَّنَ الله تبارك وتعالى أن هذا التوكل كان غذاء الكفاح الطويل الذي قاوم به النبيون وأتباعهم مظالم الطغاة وبغي المستبدين.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا، وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

وقد كان الحكام الفجرة وأشياعهم يُسَمُّونَ تشبث المؤمنينَ بما لديهم، وتأميلهم الخير في المستقبل، وطمأنينتهم إلى أن ضعفهم الحاضر سيتحول قوة غالبة.. كانوا يُسَمُّونَ ذلك غروراً!.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: غَرَّ هؤُلَاءِ دِينُهُمْ؛ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

فالتوكل الحق قرين الجهد المضني والإرادة المصممة. ولم ينفرد التوكل عن هذه المعاني إلا في العصور التي مُسِخَ فيها الإسلام، وأصبح بين أتباعه لهواً ولعباً.

ومما يجعل المسلم قوياً أن يبتعد عن حياة الخلاعة والفجور، وأن

(١) آل عمران: ١٥٦. (٢) إبراهيم: ١٢. (٣) الأنفال: ٤٩.

يألف مسالك النزاهة والاستقامة، فإن الرجل الخرب الذمة أو الساقط المروءة لا قوة له ولو لبس جلود السباع، ومشى في ركاب الملوك.

وقد نصح الله قوم هود فأرشدهم إلى أسباب القوة الصحيحة، وكانوا عمالقة جبارين، فقال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ. وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[1].

وأراد رسول الله أن يزين الطاعات للناس، وأن يغريهم بأدائها، وأن يشرح لهم عظمة الإنسان عندما يفعل الخير ويراغم الشيطان ويسمو إلى الملأ الأعلى، فضرب لهم هذا المثل في سياق حديث له. قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكفأ فأرساها بالجبال فاستقرت. فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت: يا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من النار؟ قال: نعم، الماء، قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم إذا تصدق صدقة بيمينه فأخفاها عن شماله!»[2].

إن الإنسان، هذا الكائن العجيب، يعتبر سيداً لعناصر الكون كلها، يوازن أعتاها وأقساها فيرجحه ويربو عليه، يوم يكون شخصاً فاضلاً، ولكنه يُلْعَنُ في الأرض والسماء ويرجحه الذر والهباء يوم يكون شخصاً ساقطاً.

والمثل الذي ذكره الحديث ليس إلاَّ إبرازاً لقيمة الرجل المحسن وتصويراً لرسوخه وشموخه عندما يسبق في ميدان الخير.

ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحاً، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادىء معروفة، لا يصانع على حساب الحق بما يغض من كرامته وكرامة أنصاره. بل يجعل قوته من قوة العقيدة التي يمثلها ويعيش لها، ولا يحيد عن هذه الصراحة أبداً في تقرير حقيقة ما.

حدث أن كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات ابنه

---

(١) هود: ٥٢.
(٢) الترمذي.

إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم!! فقام رسول الله ﷺ يخطب الناس، فقال: «إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة»[1].

ذلك أن الشخص الذي يحيا في الحقائق لا يتاجر بالأباطيل، فهو غني عنها. وصراحته دليل على ثروة عريضة من الشرف، تغني صاحبها عن الدجل والاستغلال، وتقيم سيرته على ركائز ثابتة من الفضيلة والكمال.

وقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبثق من هذا السمو النفسي، لأنها تعتمد على مصارحة المخلصين بما فرط منهم ابتغاء محوه لتثبت مكانة الصواب والخير.

وقد شرحنا في كتبنا[2] الأخرى الغايات الاجتماعية والسياسية التي ناطها الإسلام بقاعدة الأمر والنهي.

والذي نريد توكيده هنا أن المسلم يجب أن يكون نقَّادةً للعيوب الفاشية، جريئاً في الحملة عليها، لا يتهيب كبيراً ولا يستحي من قريب، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وقد كره الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الكبراء، وأن يناديهم بألفاظ التكريم.

قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل للمنافق: يا سيد فقد أغضب ربه»[3].

وإنَّها لجريمة مضاعفة أن ينتهك امرؤ الحرمات المصونة، ثم يستمع إلى من يُبَجِّلُونه لا إلى من يُحقِّرونه.

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[4].

---

(١) البخاري. (٢) «الإسلام والاستبداد السياسي». (٣) الحاكم.
(٤) الحج: ١٨.

وتحريم الإسلام للغيبة فيه محافظة على رجولة المسلم، وإمساك لعنصر القوة فيه. فإن الشخص الذي يتخنس ليتفس عن أحقاده في الخفاء بذكر المعايب المستورة أو المعروفة هو لا شك شخص وضيع.

والرجل الذي يأنس من نفسه قوة الاستجابة لدواعي الحق يواجه من شاء بما شاء، ولا يتوارى ليطعن من وراء ستار.

وليس معنى ذلك أن نجابه بالسوء من نود مساءتهم. بل إذا وجدنا في امرىء ما عيباً فنحن بإزائه بين أمور معينة: إن كان هذا العيب عاهة في بدنه، أو ضآلة في مرتبته فمن السفاهة التشنيع عليه به، عياناً أو غياباً.

وإن كان ذنباً انزلق إليه وليس من شأنه أن يقارفه، إنما هي كبوة الجواد، فمن الدناءة أن نفضح مثله، وأن نشهِّر بين الناس به.

وإن كان العيب الذي وجدناه جرأة مستهتر أو معصية مجاهر، فهذا الذي يجب أن يقابل بكلمة الحق. تقرع أذنيه دون مبالاة.

ولكيما تكون هذه الكلمة خالصة ينبغي أن تبتعد عن مشاعر الشماتة وحب الأذى وأن تقترن بالرغبة المجردة في تغيير القبيح، وإصلاح الفرد والجماعة. وليس من هذا البتة أن تذكر العاصي بشر عند أعدائه لتقترب من قلوبهم، أو لتطعم من موائدهم، أو لتتظاهر بالبراءة من الخصال التي ذممتها فيه.

قال رسول الله ﷺ: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم. ومن كُسي ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة»(١).

إن الغيبة شيمة الضعاف «وكلُّ اغتيابٍ جهد من لا جهد له».

* * *

(١) أبو داود.

والإسلام يكره أولئك الذين يعيشون في الدنيا أذناباً. تغلب عليهم طبائع الزلفى والتهافت على خيرات الآخرين. ويحبون أن يكونوا في هذه الحياة كالثعالب التي تقتات من فضلات الأسود.

إن المسلم أكبر من أن يربط كيانه بغيره على هذا النحو الوضيع. بل يجب أن ينأى عن مواطن الهوان. وأن يضرب في فجاج الأرض يبتغي العزة والكرامة.

وقد ذكر رسول الله ﷺ أصحاب الجنة وخلالهم، وأصحاب النار وخلالهم، فعدّ فضائل القوة والكرامة والنبل في الأولين، وقرن رذائل الهوان والاختلاس والعجز والتلاعب بالآخرين قال:

«. . أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. وأهل النار: الخائن الذي لا يخفى[1] له طمع - وإن دقَّ - إلا خانه. ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك. وذكر البخل والكذب، والشنظير[2] الفحاش. وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[3].

* * *

على أن هناك أموراً قد تعرض للمسلم فينوء بها، وربما يهون في نفسه ما دامت مصاحبة له: فالتعاسة النفسية والهوان الاجتماعي قد يضغطان على الإنسان ضغطاً يقعده، ويجعله سيء التفكير، كثير التشاؤم، قليل الإنتاج، وواجب المسلم أن يبذل كل جهد للتملص من هذه القيود الكئيبة، والخروج من مآزقها القابضة.

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بربه من هذه المصائب الهدامة:

---

(١) يخفى لفظ يستعمل في الظهور. (٢) الشنظير: سيء الخلق الفحاش، والشنظرة: الشتم.
(٣) مسلم.

«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[1].

والصبر والرجاء، هما عدة اليوم والغد، يتحمل المرء في ظلهما المصائب الفادحة فلا يذل، بل يظل مُحَصَّناً من نواحيه كلها، عالياً على الأحداث والفتن لأنه مؤمن والمؤمن لا يضرع إلا لله.

(١) أبو داود.

الحِلم والصَّفح

تتفاوت درجات الناس في الثبات أمام المثيرات، فمنهم من تستخفه التوافه فيستحمق على عجل، ومنهم من تستفزُّه الشدائد فيبقى على وقعها الأليم محتفظاً برجاحة فكره وسجاحة خلقه[1].

ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دخلاً كبيراً في أنصبة الناس من الحدَّة والهدوء، والعجلة والأناة، والكدر والنقاء، إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم؛ فالرجل العظيم حقاً كلما حلَّق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتد حلمه، وعذر الناس من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم! فإذا عدا عليه غرٌّ يريد تجريحه، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار.

وقد رأينا الغضب يشتط بأصحابه إلى حد الجنون، عندما تقتحم عليهم نفوسهم، ويرون أنهم حُقِّروا تحقيراً لا يعالجه إلا سفك الدم.

أفلو كان الشخص يعيش وراء أسوار عالية من فضائله يحس بوخز الألم على هذا النحو الشديد. كلا إن الإهانات تسقط على قاذفها قبل أن تصل إلى مرماها البعيد.

وهذا المعنى يفسر لنا حلم هود وهو يستمع إلى إجابة قومه بعدما دعاهم إلى توحيد الله:

---

(١) سجاحة الخلق: لينه وحسنه.

قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1].

إن شتائم هؤلاء الجهال لم يطش لها حلم هود، لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله رسولاً فهو في الذؤابة من الخير والبر، وبين قوم سفهوا أنفسهم وتهاووا على عبادة الأحجار يحسبونها ـ لغبائهم ـ تضر وتنفع! كيف يضيق المعلم الكبير بهرف هذه القطعان؟

وقد أراد رسول الله محمد ﷺ أن يعلم أصحابه هذا الدرس في الأناة وضبط النفس، فروي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت! فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا. . ثم قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثم قال له: أحسنت إليك؟؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبي: إنك قلت ما قلت آنفاً، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم، فلما كان الغد جاء، فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه. فزعم أنه رضي، أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس[2] فلم يزيدوها إلا نفوراً. فناداهم صاحبها، فقال لهم: خلوا بيني وبين ناقتي. فإني أرفق بها منكم وأعلم. . فتوجه لها بين يديها فأخذ من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت. وشد عليها رحلها، واستوى عليها. وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه، دخل النار».

إن الرسول الحليم لم تأخذه الدهشة لكنود الأعرابي أول الأمر، وعرف

(١) الأعراف: ٦٦ ـ ٦٨.

(٢) أي جروا خلفها.

فيه طبيعة صنف من الناس مرد على الجفوة في التعبير والإسراع بالشر، وأمثال هؤلاء لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم، ولما كانت ظلماً.

لكن المصلحين العظماء لا ينتهون بمصاير العامة إلى هذا الختام الأليم، إنهم يفيضون من أناتهم على ذوي النزق حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء، ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء.

وثمن ذلك لا يضن به الواجد الأريب، ولو كان عطاء سخياً، فما بذل المال إلى جانب ملك الأنفس؟

إن الأعرابي الذي اشترى رضاه بما علمت لا يبعد أن تراه بعد أيام وقد كلف بعمل خطير، يقدم فيه عنقه عن طيب خاطر!! وما المال في أيدي المصلحين الكبراء إلا حاجة العفاة[1] من الوافدين الطامعين، أو هو قمام الأرض تستناخ به الرواحل الجامحة، لتقطع عليها المفازات الشاسعة.

وقد كان النبي ﷺ يستغضب أحياناً غير أنه ما يجاوز حدود التكرم والإغضاء.

والمحفوظ من سيرته أنه ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.

ولما قال له أعرابي جلف وهو يقسم الغنائم: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله، ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال: «ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل» ونهى أصحابه أن يقتلوه حين هم بعضهم بذلك.

* * *

خطب النبي ﷺ في الناس عصر يوم من الأيام فكان مما قاله لهم:

«إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى:

«ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء، والسريع الغضب سريع

(١) طلاب العطايا.

الفيء، والبطيء الغضب بطيء الفيء فتلك بتلك. ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء. ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب، ومنهم سيء الطلب حسن القضاء فتلك بتلك. ألا وإن منهم سيء القضاء سيء الطلب. ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب، وشرهم سيء القضاء سيء الطلب».

«ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض»[1] أي فليبق مكانه وليجلس.

فإنه إذا استطير وراء لهب الغيظ أفسد الأمور في غيبة وعيه وغلبة عاطفته فلم يدع لإصلاحها مكاناً.

وقد شرح الحديث الشريف صنوف الخلق ومنازلهم في الفضل، والمؤمن يضع نفسه حيث يجب.

إن الشخص الغضوب كثيراً ما يذهب به غضبه مذاهب حمقاء، فقد يسب الباب إذا استعصى عليه فتحه، وقد يكسر آلة تضطرب في يده، وقد يلعن دابة جمحت به.

وحدث أن رجلاً نازعته الريح رداءه فلعنها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنها فإنها مأمورة مسخرة. وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»[2].

وسيئات الغضب كثيرة ونتائجه الوخيمة أكثر، ولذلك كان ضبط النفس عند سوراته دليل قدرة محمودة وتماسك كريم.

عن ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون الصُّرَعَة فيكم؟ قالوا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»[3].

(١) الترمذي. (٢) الترمذي. (٣) مسلم.

وقال رجل للنبي ﷺ: أوصني ولا تكثر علي لعلي لا أنسى! قال: «لا تغضب»[1] وهذه الإجابة المقتضبة خير ما يرد به على سؤال يصاغ في هذه العبارة!.

وقد كان ﷺ ينصح من جاؤوه مسترشدين بما يلائم طباعهم ويوافق بيئتهم، وقد يوجز أو يطنب وفق ما تقضي به الأحوال.

والجاهلية التي عالج رسول الله ﷺ محوها كانت تقوم على ضربين من الجهالة، جهالة ضد العلم وأخرى ضد الحلم، فأما الأولى فتقطيع ظلامها يتم بأنواع المعرفة وفنون الإرشاد، وأما الأخرى فكف ظلمها يعتمد على كبح الهوى ومنع الفساد، وقد كان العرب الأولون يفخرون بأنهم يلقون الجهل بجهل أشد.

ألا لا يجهلن أحـد علينـا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فجاء الإسلام يكفكف من هذا النزوان، ويقيم أركان المجتمع على الفضل، فإن تعذَّر فالعدل. ولن تتحقق هذه الغاية إلا إذا هيمن العقل الراشد على غريزة الغضب.

وكثير من النصائح التي أسداها الرسول للعرب كانت تتجه إلى هذا الهدف. حتى اعتبرت مظاهر الطيش والتعدي انفلاتاً من الإسلام، وانطلاقاً من القيود التي ربط بها الجماعة فلا تميد وتضطرب:

«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[2].

وقال عبدالله بن مسعود: «ما من مسلمَيْن إلا وبينهما ستر من الله عز وجل، فإذا قال أحدهما لصاحبه كلمة هُجْرٍ خَرَقَ ستر الله»[3].

ووفد أعرابي على رسول الله ﷺ يريد أن يتعلم الإسلام، ولم تكن له معرفة سابقة بالنبي ﷺ، ولا بما يدعو إليه، قال الأعرابي ـ واسمه جابر بن سليم ـ: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه،

---

(١) مالك. (٢) البخاري. (٣) البيهقي.

قلت: من هذا؟ قالوا: رسول الله! قلت: عليك السلام يا رسول الله! قال: «لا تقل عليك السلام، (عليك السلام) تحية الميت. قل: السلام عليك!!».

قال: قلت: أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة (جدب) فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفر فضلَّت راحلتك فدعوته ردها عليك..».

قال: قلت: اعهد إلي. قال: «لا تَسُبَّنَّ أحداً» ـ فما سببت بعده حراً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة ـ قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف..» ثم قال: «وإن امرؤٌ شتمك وعَيَّرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه»[1].

* * *

ومن الناس من لا يسكت عند الغضب، فهو في ثورة دائمة، وتغيظ يطبع على وجهه العبوس. إذا مسه أحد ارتعش كالمحموم، وأنشأ يرغي ويزبد، ويلعن ويطعن، والإسلام بريء من هذه الخلال الكدرة.

قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذيء»[2].

واللعن من خصال السفلة، والذين يستنزلون اللعنات على غيرهم لأتفه الأسباب يتعرضون لبلاء جسيم، بل إن المرء يجب أن يتنزه عن لعن غيره، ولو أصابه منه الأذى الشديد.

وكلما ربا الإيمان في القلب ربت معه السماحة وازداد الحلم، ونفر المرء من طلب الهلاك والغضب للمخطئين في حقه.

قيل لرسول الله ﷺ: ادع على المشركين والعنهم؟ قال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً»[3] وعلى قدر ما يضبط المسلم نفسه، ويكظم غيظه ويملك

---

(١) أبو داود. (٢) الترمذي. (٣) مسلم.

قوله، ويتجاوز عن الهفوات، ويرثي للعثرات تكون منزلته عند الله.

ومن ثم استنكر رسول الله ﷺ على أبي بكر أن يلعن بعض رقيقه وقال: «لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعاناً»[1].

وفي رواية: «لا يجتمع أن تكونوا لعانين وصدِّيقين»[2] فأعتق أبو بكر أولئك الرقيق كفارة عما بدر منه لهم. وجاء إلى النبي ﷺ يقول له: لا أعود.

ذلك أن اللعن قذيفة طائشة خطرة، يدفع إليها الغضب الأعمى أكثر مما يدفع إليها استحقاق العقاب. واستهانة الناس بهذه الدعوات الشداد لا تليق. لأنه لا يفلت من وبالها أحد.

فقد قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها. ثم تهبط الأرض فتغلق أبوابها. ثم تأخذ يميناً وشمالاً. فإن لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلاً... وإلا رجعت إلى قائلها»[3].

وقد حَرَّم الإسلام المهاترات السفيهة وتبادل السباب بين المتخاصمين.

وكم من معارك تبتذل فيها الأعراض وتعدو فيها الشتائم المحرمة على الحرمات العزيزة، وليس لهذه الآثام الغليظة من علة إلا تسلط الغضب وضياع الأدب.

وأوزار هذه المعارك الوضيعة تعود على الموقد الأول لجمرتها. كما جاء في الحديث: «المُسْتَبَّان ما قالا، فعلى البادىء منها حتى يعتدي المظلوم»[4].

وملاك النجاة من هذه المنازعات الحادة تغليب الحلم على الغضب، وتغليب العفو على العقاب. ولا شك أن الإنسان يحزنه أي تهجم على شخصه أو على من يحب، وإذا واتته أسباب الثأر سارع إلى مجازاة السيئة بمثلها. ولا يقر له قرار إلا إذا أَدْخَلَ من الضيق على غريمه بقدر ما شعر به هو نفسه من ألم.

---

(١) مسلم. (٢) الحاكم. (٣) أبو داود.
(٤) مسلم.

ولكن هناك مسلكاً أنبل من ذلك وأرضى لله وأدل على العظمة والمروءة، أن يبتلع غضبه فلا يتفجر، وأن يقبض يده فلا يقتص، وأن يجعل عفوه عن المسيء نوعاً من شكر الله الذي أقدره على أن يأخذ بحقه إذا شاء.

عن ابن عباس قال: لما قدم عيينة بن حصن نزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، إذ كان القراء أصحاب مجلس أمير المؤمنين عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً.

فقال عيينة: يا ابن أخي استأذن لي على أمير المؤمنين. فاستأذن له فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به.

فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله يقول لنبيه: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه. وكان وقافاً عند كتاب الله[(١)].

وإنما غضب عمر لتطاول الأعرابي عليه وهَمَّ بردعه. لأنه لم يدخل عليه ناصحاً بخير أو طالباً لحق، وإنما دخل على حاكم في سلطانه ليشتمه دون مبرر وليسأله عطاء جزلاً على غير عمل!! فلما ذكر بأن الرجل من الجهال أعرض عنه وتركه ينصرف سالماً.

وفي الحديث: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء»[(٢)].

وعن عبادة بن الصامت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[(٣)].

وقد عد القرآن الكريم هذه الشمائل الرقيقة طريق الفلاح التي تسرع بصاحبها إلى الجنات العلا:

---

(١) البخاري. (٢) أبو داود. (٣) الطبراني.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموات وَالأَرْضُ أُعِدَّت لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

* * *

ومن قصص العفو التي لا مثيل لها بين الناس، عفو رسول الله ﷺ عن زعيم المنافقين عبدالله بن أبيّ. فإن عبدالله هذا كان عدواً لدوداً للمسلمين يتربص بهم الدوائر، ويحالف عليهم الشيطان، ويحيك لهم المؤامرات، ولا يجد فرصة للطعن عليهم والنيل من نبيهم إلا انتهزها. وهو الذي أشاع قالة السوء على أم المؤمنين عائشة، وجعل المرجفين يتهامسون بالإفك حولها، ويهزون أركان المجتمع الإسلامي هزاً بهذا الاتهام الدنيء، وتقاليد الشرق من قديم تجعل عرض المرأة في الذروة من القداسة، وتربط به كرامتها وكرامة أهلها الأبعدين والأقربين.

ولذلك كان حز الألم قاسياً في نفس الرسول وأصحابه، وكانت الغضاضة من هذا التلفيق الجريء تملأ نفوسهم كآبة وغماً. حتى نزلت الآيات آخر الأمر تكشف مكر المنافقين، وتفضح ما اجترحوا، وتنوه بطهر أم المؤمنين ونقاء صفحتها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

ولقد أقيم الحد على من كانوا مخالب القط في هذه المأساة، أما جرثومة الشر فإنه نجا. . . ليستأنف كيده للمسلمين وسوق الأذى لهم ما استطاع!!

وكتب الله الفوز لرسوله وجنده واكتسح الإسلام مخلفات القرون المخرفة. وانحصر أعداؤه في حدود أنفسهم؛ بل لقد دخلت عليهم من أقطارها وانكمش ابن أُبيّ ثم مرض ومات، بعدما ملأت رائحة نفاقه كل فج. وجاء

(١) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٢) النور: ١١.

ولده إلى رسول الله ﷺ يطلب منه الصفح عن أبيه فصفح. ثم طلب منه أن يكفن في قميصه فمنحه إياه. ثم طلب منه أن يصلي عليه ويستغفر له. فلم يرد له الرسول الرقيق العفوّ هذا السؤال، بل وقف أمام جثمان الطاعن في عرضه بالأمس يستدر له المغفرة.

لكن العدالة العليا حسمت الأمر كله فنزل قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، إِنْ تَسْتَغْفِر لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ومما يتصل بحادثة الإفك أن قريباً لأبي بكر كان يعيش على إحسانه لم يتورع عن الخبط في عرض السيدة التي يكفله أبوها، فنسي بذلك حق الإسلام وحق القرابة وحق الصنيع القديم، مما أحفظ أبا بكر وجعله يحلف أن يترك قريبه هذا، ولا يصله كما كان يصله.

فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

فعاد أبو بكر بعطائه الأول قائلاً: إني أحب أن يغفر الله لي.

---

(١) التوبة: ٨٠. (٢) النور: ٢٢.

الجُـــودُ والكَـرَم

الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق، ويضيع على الشح والإمساك. ولذلك حبب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية، وأكفهم ندية، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعي الإحسان ووجوه البر. وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم، لا ينفكون عنه في صباح أو مساء:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ومن الواجب على المسلم أن يقتصد في مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله. فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله، وأن يجعل في ثروته متسعاً يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين.

قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وأبدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»[2].

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن النهي عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة والمساكين. فإن المبذر متلاف سفيه، يضيع في شهواته الخاصة زبدة ماله. فماذا يبقى بعدُ للحقوق الواجبة والعون المفروض؟؟.

قال الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَلَا تُبَذِّرْ

---

(١) البقرة: ٢٤٧. (٢) مسلم.

تَبْذِيراً. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾[1].

ومضى السياق في الإيصاء بالمحتاجين وصيانة وجوههم فأمر المسلم أن يرجيهم الخير، وأن يرد بميسور من القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾[2].

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطّردة، وحربه على الكزازة والبخل موصولة متّقدة.

وفي الحديث: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخيّ أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل»[3].

إنه لم يوجد في الدنيا ـ ولن يوجد ـ نظام يستغني البشر فيه عن التعاون والمواساة، بل لا بد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوي على الضعيف، وأن يرفق المكثر بالمقل، ما دامت طبيعة المجتمع البشري أن تتجاور فيه القوة والضعف والإكثار والإقلال.

ولو كان المال في وفرته وندرته يتبع ما أوتي الناس من مواهب معنوية لاكتنز البعض الكثير وعاش البعض على الكفاف، فتلك سنن الخليقة التي لا افتعال فيها، وإنما يتسرب الشقاء إلى الناس عندما يحيون متقاطعين لا يعرفون إلا أنفسهم ومطالبها فحسب؛ مع أن الله عز وجل خلط الناس بعضهم ببعض، وجعل اختلاطهم على اختلاف أحوالهم اختباراً عويصاً يمحص به الإيمان ويوزع به الفضل:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[4].

ولن تنجح أمة في هذا المضمار إلا إذا وثقت الصلات بين أبنائها، فلم تُبْقِ

---

(1) الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧. (2) الإسراء: ٢٨. (3) الترمذي.
(4) الفرقان: ٢٠.

محروماً يقاسي ويلات الفقر، ولم تُبْقِ غنياً يحتكر مباهج الغنى.

وفي الإسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير وإسداء العون وصنائع المعروف. ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحلهم، بل يرتد أمانها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم! فتقيهم زلازل الأحقاد وعواقب الأَثَرَة العمياء:

قال الله تعالى:

﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ. وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾[1].

إن الفقر مَعَرَّة إذا لصقت بالإنسان أحرجته، وهبطت به دون المكانة التي كتب الله للبشر، وإنها لتوشك أن تحرمه الكرامة التي فضل الله بها الإنسان على سائر الخلق، وإنه لعزيز على النفس أن ترى شخصاً مشقوق الثياب، تكاد فتوقه تكشف سوءته، أو حافي الأقدام أبلى أديم الأرض كعوبه وأصابعه، أو جوعان يمد عينيه إلى شتى الأطعمة ثم يرده الحرمان وهو حسير.

والذين يرون هذه الصور الفاحشة ثم لا يكترثون بها ليسوا بشراً وليسوا مؤمنين. فبين البشر عامة رَحِمٌ يجب أن توصل وألا تمزقها الفاقة.

وقضية الإيمان أن يرهب المرء ربه في أمثال أولئك البائسين.

ولقد حدث أن رأى رسول الله ﷺ أحد هذه المناظر الحزينة فشق عليه مَرْآها، فجمع المسلمين ثم خطبهم، فذكرهم بحق الإنسان على الإنسان وخوفهم بالله واليوم الآخر، وما زال بهم حتى جمعوا ما أغنى وستر..

عن جرير قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، فجاءه قوم عُراة مجتابي النمار ـ مشقوقي الملابس ـ عامتهم من مضر، فتمَعَّر وجه الرسول ﷺ لَمّا رأى بهم من الفاقة ـ تغير وحزن ـ فدخل ثم خرج، فأمر «بلالاً» فأذن وأقام فصلى، ثم خطب فقال:

---

(١) القتال «محمد»: ٣٨.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً. وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ.. ﴾.

ثم قال: ليتصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُره، من صاع تمره. حتى قال: ولو بشق تمرة.

قال: فجاءه رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل لقد عجزت! ثم تتابع الناس. حتى رأيت كومين من طعام وثياب... حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مَذْهَبة(١)، فقال رسول الله ﷺ:

«من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(٢).

وهذا الكلام البليغ دعوة إلى التنافس في الخير، والتسابق في افتتاح مشروعاته النافعة، كقطار الرحمة، ومعونة الشتاء، وأشباه ذلك، وهو تحذير كذلك لأولئك الذين ينشئون التقاليد السمجة ويُعَقِّدُون بها شؤون الجماعة. ويتركون مَنْ بعدهم يضطرب في شرورها ومتاعبها.

* * *

لكن الإنسان مجبول على حب المال والحرص على اقتنائه، يضرب في مناكب الأرض وللأثرة في نفسه إيحاء شديد، أكثر تفكيره في نفسه وأقله في الآخرين.

لو أنه أُوتيَ ما في الأرض جميعاً، بل لو أنه امتلك خزائن الرحمة العليا لما

(١) مذهبة: صفحة مطلية بالذهب. (٢) مسلم.

طوَّعت له نفسه أن تنفق منها بِسَعَة، ولقامت له من طبيعته الضيقة علل شتى تضع في يديه الأغلال.

﴿ قُلْ: لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ، وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً ﴾(١).

وقد عد الإسلام هذا الشعور من النزعات الخسيسة التي يجب أن تخاصم بعنف، وأن تقاوم دسائسها بيقظة ونشاط. وبَيَّنَ أن الفوز بخيري الدّنيا والآخرة لا يحرزه إلا من نجح في قمع دوافع البخل في نفسه حتى عودها التكرم والسخاء:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٢).

إن الأموال المستخفية في الخزائن، المختبىء فيها حق المسكين والبائس، شر جسيم على صاحبها في الدنيا والآخرة، إنها أشبه شيء بالثعابين الكامنة في جحورها كأنها رصيد الأذى للناس، بل إن الإسلام أبان أنها تتحول فعلاً إلى حيات قد أمرقت واحتدت أنيابها تطارد صاحبها لتقضم يده التي غلّها الشح.

«.. ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع(٣) يتبعه فاتحاً فاه، فإذا فر منه سمع من يناديه: خذ كنزك الذي خبأت، فأنا عنه غني. فإذا رأى أنه لا بد له منه سلك يده في فمه، فيقضمها قضم الفحل»(٤).

وقد أخذ الإسلام يفهم الإنسان بالحسنى والإقناع أن محبته الشديدة لماله قد توره المتالف، وأنه لو فكر في حقيقة ما يملك وفي عاقبته معه لرأى السماحة أفضل من الأثرة، والعطاء خيراً من البخل.

«يقول العبد: مالي مالي؛ وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقنى(٥). وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»(٦).

(١) الإسراء: ١٠٠. (٢) التغابن: ١٦. (٣) الشجاع الأقرع: الثعبان المسن.
(٤) البخاري. (٥) يقال: أقناه بمعنى ملكه. (٦) مسلم.

وعجيب أن يشقى امرؤ في جمع ما يتركه لغيره، وإذا لم يستفد المسلم من ماله فيما يصلح معاشه ويحفظ معاده فمم يستفيد بعد؟.

وقد أماط الرسول اللثام عن هذه الحقيقة فقال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر!!»[1].

ومع ذلك، فإن النبي عندما أعلن عن جمع الزكاة تحسس برفق مشاعر الحرص في الناس وتلطف في علاجها فقال: «سيأتيكم ركيب مبغضون ـ يعني جامعي الزكاة ـ فإذا جاؤوكم فرحبوا بهم وخلوا بينهم وبين ما يبتغون، فإن عدلوا فلأنفسهم وإن ظلموا فعليهم، وأرضوهم فإن تمام زكاتكم رضاهم وليدعوا لكم»[2].

ونجاح الإنسان في إزاحة عوائق البخل التي تعترض مشاعر الخير فيه هو في نظر الإسلام فضيلة كاملة، إذ المعروف أن المرء يشتد أمله في الحياة، وتتوثق أواصره بها عندما يكون صحيح البدن، طامحاً في المستقبل، يقتصد في نفقته ويضاعف في ثروته، ليطمئن إلى غد أرغد له ولذريته. فإذا غالب هذه العوامل كلها وبسط كفه في ماله، ينفق عن سعة ولا يخشى إقلالاً ولا ضياعاً، فهو يفعل الخير العظيم.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان كذا»[3].

* * *

والبذل الواسع عن إخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا:

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[4].

(١) البخاري. (٢) أبو داود. (٣) البخاري.
(٤) البقرة: ٢٧١.

وقال: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْه لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيم ﴾[1].

فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه، فإن الطهور الذي يعيد إليه نقاءه ويرد إليه ضياءه ويلفه في ستار الغفران والرضا، أن يجنح إلى مال عزيز عليه فينخلع عنه للفقراء والمساكين، زلفى يتقرب بها إلى أرحم الراحمين.

عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «تعبد عابد من بني إسرائيل فعبدالله في صومعة ستين عاماً، فأمطرت الأرض فاخضرت، فأشرف الراهب من صومعته، فقال: لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً!! فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمهُ حتى غشيها، ثم أغمي عليه.

فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات.. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته، فرجحت حسناته، فغفر له»[2].

ومن أروع الأمثلة في بيان ما للعطاء والجود من أثر في الغفران والنجاة، ما أُوحى الله به إلى نبيه يحيى ليعلمه أمته: «.. وآمركم بالصدقة. ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم؟ وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه»[3].

* * *

إن الصدقات التي نبذلها، على اختلاف صنوفها، من زكاة أو هبة أو نفقة أو غير ذلك جليلة الخطر في معاش الإنسان ومعاده، وعلى أساسها تضعف أو تقوى صلة المسلم بدينه، ولن يحرم المرء كبخله في الحقوق وسوء ظنه بالله. ولن يسبق به كجوده وثقته في فضل الله.

(١) التغابن: ١٧، ١٨. (٢) ابن حبان. (٣) الحاكم.

قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»[1].

وقال: «حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع»[2].

وما من شيء أشق على الشيطان، وأبطل لكيده، وأقتل لوساوسه من إخراج الصدقات. ولذلك يقذف في النفوس الوهن حتى يثبطها عن البذل، ويعلقها بالحطام الفاني.

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[3].

وفي الحديث: «لا يخرج رجل شيئاً من الصدقة، حتى يفك عنها لحي سبعين شيطاناً، كلهم ينهى عنها»[4].

إن الإنسان عندما يقسم راتبه أو دخله على مصارفه ومطالبه يجعل جزءاً ـ قل أو كثر ـ للمستهلكات المعدومة، وينظر إليه على أنه مغارم لازمة وقد نبه الإسلام إلى أن المرء قد يسوغ له أن يعد طعامه وشرابه ودواءه في هذا الجزء المفقود، أما ما أنفقه في سبيل الله فلا. . .

روي عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «بقي كلها إلا كتفها»[5].

وهذا مصداق قوله عزّ وجلّ: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[6].

ويروي الرسول عن ربه هذا الحديث: «يا ابن آدم أفرغ من كنزك، وعندي لاَ حَرق، ولا غرق، ولا سرق، أُوفيكَهُ أحوج ما تكون إليه»[7].

* * *

---

(١) الطبراني. (٢) أبو داود. (٣) البقرة: ٢٦٨.
(٤) أحمد. (٥) الترمذي، وكانوا قد تصدقوا بها ما عدا كتفها. (٦) النحل: ٩٦.
(٧) البيهقي.

وقد يسبق الظن إلى أن السخاء ينقص الثروة ويقرب من الفقر، ويسلب الرجل نعمة الطمأنينة في ظل ماله الممدود، وخيره المشهود. وهذا الظن من وساوس الشيطان التي يلقيها في نفوس الكازّين الأدنياء.

والحق أن الكرم طريق السعة، وأن السخاء سبب النماء، وأن الذي يجعل يديه ممراً لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه.

وفي الحديث: «ثلاثة أقسم عليهن... ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلم عبد مظلمة صبر عليها. إلا زاده الله بها عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة[1] إلا فتح الله عليه باب فقر»[2].

فليستمسك الإنسان بعرا السماحة، وليسارع إلى سداد ما يلقاه من ثغرات، ولينظر إلى المحتاجين الذين يقصدونه نظرته إلى أسباب التجارة الرابحة.

إن بذل اليوم القليل فسيرجع غداً أو بعد غد بالكثير...

وقد اعتبر الله العطاء الجميل قرضاً حسناً، لا يرده لصاحبه مثلاً أو مثلين بل يرده أضعافاً مضاعفة. وأغرى العبد بالإنفاق، فكشف له أن نفقته على غيره وسيلة جلّى ليتولّى الله الإغداق عليه من خزائنه التي لا يلحقها نفاد.

وفي الحديث عن الله تبارك وتعالى: «يا عبدي أَنفق أُنفق عليك، يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما بيده، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع»[3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿... وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[4].

---

(١) مسألة: تسول. (٢) ابن ماجه. (٣) البخاري.
(٤) سبأ: ٣٩.

إن المنفقين هم ـ على السرَّاء والضرَّاء ـ بعين الله، وفي كنفه، تصلي عليهم الملائكة ويرتقب لهم المزيد، أما الكانزون فلا يتوقع لهم إلا الضياع وهل يخلدون مع المال أو يخلد معهم المال؟ إن المال عارية انتقل إلينا من غيرنا. وسينتقل منا إلى غيرنا. فلم التشبث به والتفاني فيه؟.

إن كل ما يتعلق البشر به من حطام الدنيا سوف يدَعونه لوارث السموات والأرض وسينقلبون إلى ربهم عراة، لا مال ولا جاه كما خلقوا أول مرة، وسيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة؛ فلا غرو إذا نقم الملأ الأعلى على من ينسى هذه الحقائق، وينطلق في ربوع الأرض، لا هم له إلا جمع ما يضره، ونسيان ما يفيده.

قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[1].

* * *

وقد يحرص المرء على المال لأنه يريد ترك أولاده في ثراء يحميهم تقلب الأيام وأحداث الليالي. وهذا قصد حسن، والمسلم مكلف أن يصون ذريته، وأن يمنع عنهم العيْلة، وأن يراهم بمأمن من الحاجة إلى الناس. والإسلام الذي يأمرك أن تحارب الفقر في بيت الغريب لا يرضى لك أن تجره إلى بيتك.

وفي الحديث: «.. لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[2].

لكن كفالة المرء لأولاده وضمانه لمستقبلهم لا يصح أن يتم على حساب دينه وخلقه وإنها لحماقة أن يضحي الإنسان بنفسه، وبمروءته، وبرضوان الله عليه، ليقتر من كسبه ما يبقيه لعقبه.

وقد كشف الإسلام عن أن أولاد المسلم وأمواله كسائر النعم التي تساق إليه ليمتحن فيها، فإن وقف عندها؛ وذهل عن الواجبات المكتوبة والتضحيات

---

(١) مسلم. (٢) البخاري.

المطلوبة فإن هذه النعم تكون مصدر بلائه، بل تكون أنكى أعدائه.

وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ، واللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

نعم! إن قعد الرجل عن الجهاد ليظل قريباً من زوجه، أو نكص عن البذل ليدخر الكثير لولده فهو مسيء في شكر النعم التي يسرت له، وقد جعل منها بغبائه نقمة عليه.

وعن خولة بنت حكيم قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته، وهو يقول: «إنكم لتُبَخِّلُون وَتُجَبِّنُونَ وتُجَهِّلُونَ، وإنكم لمن ريحان الله تعالى!»[2].

فمن استفاد من ولده أن يكون بخيلاً جباناً جهولاً فقد خسر ومن عرف حقوق الله وعباده قبل كل شيء فقد أفلح.

على أن البخل بالحقوق وكنزها للأولاد لا يمحو فقراً ولا يضمر غنى ولا يقبل من صاحبه يوم القيامة عذراً.

روي عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «نشر الله عبدين ممن أكثر لهما من المال والولد. فقال لأحدهما: أي فلان بن فلان. قال: لبيك رب وسعديك. قال: ألم أكثر لك من المال والولد؟ قال: بلى، أي رب، قال: وكيف صنعت فيما آتيتك؟ قال: تركته لولدي مخافة العيْلة!! قال: أما أنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ولبكيت كثيراً. أما إن الذي تخوفت عليهم قد أنزلت بهم.

ويقول للآخر: أي فلان بن فلان، فيقول: لبيك أي رب وسعديك. قال له: ألم أكثر لك من المال والولد؟ قال: بلى أي رب. قال: فكيف صنعت فيما آتيتك؟ قال: أنفقت في طاعتك، ووثقت لولدي من بعدي بحسن طَوْلك!

(١) التغابن: ١٤، ١٥.
(٢) الترمذي.

قال: أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً. أما إن الذي وثقت به قد أنزلت بهم»[1].

والإسلام يوصي بأن يكرم المرء نفسه ثم أهل بيته ثم ذوي رحمه ثم سائر الناس.

ومعنى كرم المرء مع نفسه أن يشبع نهمتها[2] من الحلال فيصدها عن الحرام، وأن يصونها عن مظاهر الفاقة التي تخدش مكانتها في المجتمع، وتهبط بها دون المستوى الواجب لعزة المسلم، وذلك كله في نطاق القصد الذي لا إسراف فيه ولا شطط. وللمسلم أن يمسك لديه من المال ما يبلغه هذه الأهداف المشروعة. فإذا لم يجدها فهو فقير.

عن أبي سعيد الخدري: «دخل رجل المسجد بهيئة بذّة[3]، والنبي ﷺ يأمر بالصدقة. فتصدق الناس. فأعطاه النبي ثوبين ثم قال: تصدقوا، فطرح الرجل أحد ثوبيه. فقال النبي ﷺ: أترون إلى هذا الذي رأيته بهيئة بذة فأعطيته ثوبين؟ ثم قلت: تصدقوا، فطرح أحد ثوبيه!! خذ ثوبك!! وانتهره...»[4].

إن رسول الله ﷺ يريد أن يمحو من المجتمع مناظر العري والفاقة والبؤس، وقد لا يبالي بعض الناس أن يعيش طاوياً عارياً. بيد أن أمثال هؤلاء لا ينبغي أن يفرضوا مذهبهم في الحياة على تعاليم الدين نفسه. فإن الإسلام يوجب أن يملك الإنسان من متاع الحياة ما يرفع رأسه ويحقن وجهه:

عن جابر قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن، فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها! فأعرض عنه، فأتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك. فأعرض عنه. فأتاه من قبل ركنه الأيسر فقال مثل ذلك. فأعرض عنه. ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك. فأخذها النبي ﷺ فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته..

---

(١) الطبراني. (٢) نهمتها: حاجتها. (٣) أي رثة.
(٤) أبو داود.

وقال: «يأتي أحدكم بجميع ما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس. خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى..»[1].

* * *

وعلى رب البيت أن يتعرف المطالب المعقولة لأهله وولده، وأن ينفق عن سعة في قضائها، فليس من الدين أن يدع المرء زوجته أو بنيه وبناته في حال قلقة من الاحتياج والضيق. ثم يضع ماله في مصرف آخر مهما كان خطره. فروابط الأسرة أولى بالعناية وأحق بالتوثيق من غيرها.

قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»[2].

ذلك، وقد مضى في «الإخلاص» ذكر قوله ﷺ: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة»[3].

والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق يريد أن يرتب النفقات المشروعة الترتيب المثمر الصالح، فإن الأسرة قوام المجتمع الكبير والخلية الحيّة التي تُكوِّن بناءه الضخم، فتوجيه العناية إليها أولاً أجدى على الأمة كلها من حرمانها وتحويل حقوقها عنها.

ثم إن في هذا الإرشاد زجراً لطائفة من الناس يجنحون إلى السرف خارج بيوتهم وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم، فإذا خَلوَا إلى أهلهم كانوا أمثلة سيئة للتقتير والعسف..!

* * *

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالإفادة من فضول ماله، ومن حقهم أن ينصرف إليهم أي عطاء تجود به يده، وذلك أول ما يتبادر إلى الفهم السليم، فإنه إذا كان إلى جنب الإنسان محتاج فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير إلى آخر قصي، بل إن ذلك قد يزرع الضغينة في قلوب المحرومين، ويشعرهم بأن

---

(١) أبو داود. (٢) مسلم. (٣) البخاري.

إهمالهم متعمد للنكاية بهم والإزراء عليهم، فإذا كان هذا التنكيل بذوي القربى ما يقصده المعطي، فإن صدقته تُرَدُّ عليه وتتحول وبالاً.

وفي الحديث: «.. يا أُمَّةَ محمد والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم. والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة»(١).

وعن زينب الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدقنَ يا معشر النساء ولو من حُلِيِّكن» قالت: فرجعت إلى عبدالله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد. وإن رسول الله قد أمرنا بالصدقة فأته فسله. فإن كان ذلك يجزي عني وإلا صرفتها إلى غيركم.. فقال عبدالله: بل ائته أنت!!.

قالت: فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار، حاجتها حاجتي، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال. فقلت له: ائت رسول الله فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك: أتجزي الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن.

قالت: فدخل بلال على رسول الله فسأله، فقال رسول الله ﷺ: من هما؟ فقال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: أي الزيانب؟ قال: امرأة عبدالله بن مسعود. فقال: «لهما أجر القرابة وأجر الصدقة»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة. وعلى القريب صدقتان، صدقة وصلة»(٣).

---

(١) الطبراني. (٢) البخاري. (٣) الترمذي.

الصَّبْر

«الصبر ضياء»[1]...

إذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق وطال ليلها، فالصبر وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط. والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه، ولا بد أن يبني عليها أعماله وآماله وإلا كان هازلاً... يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة، يجب أن يظل موفور الثقة بادي الثبات، لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقناً بأن بوادر الصفو لا بد آتية، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين.

وقد أكَّد الله أن ابتلاء الناس لا محيص عنه، حتى يأخذوا أهبتهم النوازل المتوقعة. فلا تذهلهم المفاجآت ويضرعوا لها[2].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[3].

وذلك على حدِّ قول الشاعر:

عرفنا الليالي قبل ما نزلت بنا　　فلما دَهَتْنَا لم تزدنا بها علما!

---

(١) مسلم.　(٢) أي: يذلوا.　(٣) القتال «محمد»: ٣١.

ولا شك أن لقاء الأحداث ببصيرة مستنيرة واستعداد كامل أجدى على الإنسان، وأدنى إلى إحكام شؤونه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[1].

والصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين:

أما الأولى فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا. فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار. بل جعلها دار تمحيص وامتحان، والفترة التي يقضيها المرء بها فترة تجارب متصلة الحلقات يخرج من امتحان ليدخل في امتحان آخر، قد يغاير الأول مغايرة تامة، أي أن الإنسان قد يمتحن بالشيء وضده، مثلما يصهر الحديد في النار ثم يُرْمَى في الماء، وهكذا.

وكان سليمان عالماً بطبيعة الدنيا عندما رزق التمكن الهائل فيها فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي، لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ. وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[2].

والابتلاء بالأحزان مبهم الأسباب، ويحسن أن نفهم أن أوضاع الناس في الحياة كجيش عُبِّىء للقتال، وقد تكلف بعض فرقه بالقتال حتى الموت، لإنقاذ فرق أخرى. وإنقاذ الفرق الباقية يكون للقذف بها في معارك جديدة، ترسمها القيادة حسبما توحي به المصلحة الكبرى. فتقدير فرد ما في هذه الغمار المائجة لا ينظر إليه، لأن الأمر أوسع مدى من أن يرتبط بكيان فرد معين.

كذلك قد يكتب القدر على البعض صنوفاً من الابتلاء ربما انتهت بمصارعهم. وليس أمام الفرد إلا أن يستقبل البلاء الوافد بالصبر والتسليم. وما دامت الحياة امتحاناً فلنكرس جهودنا للنجاح فيه.

وامتحان الحياة ليس كلاماً يكتب أو أقوالاً توجه. إنها الآلام التي قد تقتحم النفس وتفتح إليها طريقاً من الرعب والحرج. إنها النقائص التي تجعل الدنيا تتخم بطون الكلاب، وتنيم صِدِّيقين على الطوى، إنها المظالم التي تجعل قوماً يدعون الألوهية، وآخرين يستشهدون وهم يدافعون عن حقوقهم المنهوبة.

(١) آل عمران: ١٨٦.
(٢) النمل: ٤٠.

إن تاريخ الحياة من بدء الخلق إلى اليوم مؤسف! ومن الحق أن يشق المرء طريقه في الحياة وهو موقن بأنه غاص بالأشواك والأقذاء.

* * *

وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان.

فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله عزّ وجلّ. وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يعتد بها ولا ينوَّه بشأنها إلا إذا أكدها مر الأيام، وتقلب الليالي، واختلاف الحوادث. فكذلك الإيمان، لا بد أن تخضع صلته للابتلاء الذي يمحصها. فإما كشف عن طيبها، وإما كشف عن زيفها.

قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا، وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(١).

ولا ريب في أن علم الله محيط بظواهر الأمور وبواطنها، وأن هذا الامتحان لم يأتِ بجديد بالنسبة إلى الكشف الإلٓهي، المستوعب للبدايات والنهايات، غير أن الإنسان لا يحاسب على ما في علم الله بل حسابه على عمله الشخصي، وإذا كان بعض المجرمين سينكرون ما اقترفوا من سيئات. فكيف تقام عليه الحجة إلا بامتحان تشهده جوارحهم، وتنطق به أركانهم؟

قال تعالى في هؤلاء: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ: كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(٢).

فكيف يُكتفى بحساب هؤلاء على مقتضى العلم الإلٓهي؟ إن جزاءهم العدل لا يُقضى به عليهم إلا من أعمالهم التي تثبت لهم ولغيرهم فسادهم وسوء صنيعهم.

* * *

---

(١) العنكبوت: ٢ ـ ٣.

(٢) الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤.

على هاتين الحقيقتين يقوم الصبر. ومن أجلهما يطالب الدين به، بيد أن الإنسان، ومن عادته تجاهل الحقائق، يدهش للصعاب إذا لاقته، ويتبرم بالآلام إذا مسته، ويقوم له من طبعه الجزوع ما يبغض له الصبر، ويجعله في حلقه كريه المذاق. فإذا أحرجه أمر، أو صدمته خيبة، أو نزلت به كارثة، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه الأيام مهما امتدت!! وحاول أن يخرج من حالته بأسرع من لمح البصر.. . وهي محاولة قلما تنجح، لأنها ضد طبيعة الدين والدنيا، وأولى بالمسلم أن يدرب نفسه على طول الانتظار، قال تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1].

وفي الحديث: «.. . ومن يتصبر يصبِّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[2].

والصبر من معالم العظمة وشارات الكمال، ومن دلائل هيمنة النفس على ما حولها ولذلك كان «الصبور» من أسماء الله الحسنى، فهو يتمهل ولا يتعجل ويبطىء بالعقاب إن أسرع الناس بالجريمة، ويرسل أقداره لتعمل عملها على اتساع القرون، لا على ضيق الأعمار، وفي نطاق الزمن الرحب، لا في حدود الرغبات الفائرة، والمشاعر الثائرة:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[3].

والصبر من عناصر الرجولة الناضجة والبطولة الفارعة، فإن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل، والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله، لم يستأجر له أطفالاً أو مرضى أو خوارين، إنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة، والمناكب الشداد!! كذلك الحياة، لا ينهض برسالتها الكبرى، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صبارون..

ومن ثم كان نصيب القادة من العناء والبلاء مكافئاً لما أوتوا من مواهب، ولما أدوا من أعمال.

---

(١) الأنبياء: ٣٧. (٢) البخاري. (٣) الحج: ٤٧.

سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل. يبتلى الناس على قدر دينهم. فمن ثَخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه. وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»(١).

فاختلاف أنصبة الناس من الجهد والتبعة والهموم الكبيرة يعود إلى طاقتهم في التحمل والثبات.

وسنة العظمة والاعتداد هي التي أوحت لقائد أمريكي كبير أن يقول: «لا تسأل الله أن يخفف حملك، ولكن اسأل الله أن يقوي ظهرك» إنَّ خفة الحمل، وفراغ اليد، وقلة المبالاة، صفات قد يظفر الأطفال منها بقسط كبير لكن مشاغل العيش وهموم الواجب، ومرارة الكفاح، واستدامة السعي، هي أخلاق الجاهدين البنائين في الحياة. والرجل القاعد في داره لا يصيبه غبار الطريق، والجندي الهارب قد لا يشوكه سلاح، ولا يروعه زحف. أما الذين أسهموا في معركة الحياة وخاضوا غمارها، فستغبرهم وعثاؤها، وتنالهم جراحاتها، ويدركهم من النصب والكلال ما يدركهم.

ومن هنا كرم الإسلام المتصبين لأعراض الدنيا(٢) وواسى المتعبين مواساة تُطَمْئِنُ بالهم، وتُخَفِّفُ آلامهم.

«مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرمها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها(٣) مرة واحدة»(٤).

فالمؤمن السارب في الحياة هدف لمشاكلها الجمة، أما العاجز الهارب من الميدان فماذا يصيبه؟

وذاك سر قوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصِب منه»(٥). وقوله: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم. فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٦)

(١) ابن حبان. (٢) أي أهل بلائها. (٣) انجعافها: قلعها.
(٤) مسلم. (٥) البخاري. (٦) الترمذي.

فالمتعرض لآلام الحياة، يدافعها وتدافعه، أرفع عند الله درجات من المنهزم القابع بعيداً، لا يخشى شيئاً ولا يخشاه شيء..

وما ادخره الله لأولئك العانين الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من ثواب جزيل:

«يود أهل العافية يوم القيامة، حين يُعْطَى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض»[1].

ومن الغرائب أن بعض الناس فهم أن الإسلام يمجد الآلام لذاتها ويكرم الأوجاع والأوصاب لأنها أهل التكريم والموادة.

وهذا خطأ بعيد، فعن أنس بن مالك قال: رأى رسول الله ﷺ شيخاً يُهادي بين ابنيه، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي! فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنيّ» وأمره أن يركب[2].

وعن ابن عباس أن أخت عقبة نذرت الحج ماشية، وذكر عقبة لرسول الله ﷺ أنها لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ لَغنيٌّ عن مشي أختك، فلتركب ولتهدي بدنة»[3].

وقال الله عزَّ وجل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ؟﴾[4].

إنما يحمد الإسلام لأهل البلوى وأصحاب المتاعب رباطة جأشهم وحسن يقينهم، وهو إذ يذكر لهم الأسقام التي يعانونها، أو الضوائق التي يواجهونها، لا يعنيه منها إلا ما تنطوي عليه من امتحان يجب اجتيازه بقوة وتسليم، لا باسترخاء وتسخُّط على القدر:

ورد أن رسول الله ﷺ دخل على امرأةٍ مريضة فوجدها تلعن الداء وتسب الحمى، فكره منها هذا المسلك وقال لها مواسياً: «إنها ـ أي الحمى ـ تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[5].

---

(١) الترمذي. (٢) البخاري. (٣) أبو داود.
(٤) النساء: ١٤٧. (٥)مسلم.

فهل معنى ذلك أن نربي جراثيم المرض ونهديها إلى من نـحب؟ كذلك يريد بعض الناس أن يفهم. والجنون فنون!!.

والإنسان في إبان المعركة قد يمرغ في التراب، وقد يضطره الحرج إلى اقتحام المذاهب المعنتة، ولكنه في تقلبه على الخشن من أحوال الحياة لا يزيد من الله إلا قرباً، ما دام وثيق الإيمان، رفيع الرأس.

ومن الخطل أن يحسب المسلم تلاحق الأذى عليه آية على نسيان الله له، وإبعاده من رحمته، لكن هذا الفهم ساد بين المسلمين للأسف في عصور الانحلال والاضمحلال، وقد أسلفنا القول إن مصاعب الحياة تتمشى مع همم الرجال علواً وهبوطاً.

قال رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[1].

فهو نبي تربى في حجور أنبياء، وتحدر من شجرة عريقة، وهو كريم على الله بالاجتباء والرسالة... فانظر إلى هذا الكريم كيف قضى مراحل حياته الأولى وهو يخرج من ضائقة ليدخل في أختها. فَقَدَ أمه وهو طفل، ثم تآمر عليه إخوته فاختطفوه من أحضان أبيه ورمَوا به في البئر، لِيَلْقَى في غيابتها مصيره المجهول.

واستنقذه السيارة ليمتَلكوه عبداً، ثم يبيعوه في سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة.

وابتاعه ملك مصر، فما إن آواه في القصر حتى تعرض للدسائس الماكرة، فاتُّهِمَ وهو العفيف المحصن، بأنه يبغي السوء. ومع ظهور براءته فقد طرح في السجن مع الأشقياء لا أياماً أو شهوراً، بل بضع سنين!!

ولو أن شخصاً آخر نظر إلى ماضيه فوجده مثقلاً بالآلام على هذا النحو لضاق بالأرض وتنكر للسماء، بيد أن يوسف الصدِّيق بقي متألق اليقين وراء

---

(١) البخاري.

جدران السجن يُذكِّرُ بالله من جهلوه، ويبصر بفضله من جحدوه.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وذلك شأن أولي الفضل من الناس، لا يفقدون صفاء دينهم إن فقدوا صفاء دنياهم، ولا يهونون أمام أنفسهم لنكبة حلت بهم... وإنك لترى شاعراً من الطامحين إلى أمجاد الدنيا يغالب الحرمان بالمغالاة في تفخيم نفسه فيقول مفتخراً بهمومه:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وما رأيناه في سِيَر الأنبياء والصدِّيقين والشهداء والصالحين يؤكد أن عظم المنزلة مع ثقل الأحمال ومعاناة الصعاب.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ «إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل، ابتلاه الله في جسده أو ماله، أو في ولده. ثم صبر على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل»[2].

فكأن تكاثر المصائب إشارة إلى ما يرشح له المرء من خير، وما يراد له من كرامة. وكثيراً ما تكون الآلام طهوراً يسوقه القدر إلى المؤمنين ليصادر ما يستهوي ألبابهم من متع الدنيا، فلا تطول خدعتهم بها أو ركونهم إليها. وربَّ ضارةٍ نافعةً، وكم من محنة في طيِّها منح ورحمات!!

* * *

والتريث والمصابرة والانتظار خصال تتسق مع سنن الكون القائمة ونظمه الدائمة، فالزرع لا ينبت ساعة البذر، ولا ينضج ساعة النبت؛ بل لا بد من المكث شهوراً حتى يُجْتَنَى الحصاد المنشود. والجنين يظل في بطن الحامل شهوراً

---

(١) يوسف: ٣٩ ـ ٤٠. (٢) أحمد.

حتى يستوي خلْقه. وقد أعلمنا الله عز وجل أنه خلق العالم في ستة أيام، وما كان ليعجز أن يقيم دعائمه في طرفة عين أو أقل. وتراخي الأيام والليالي على الناس هو المدى الذي تقتطع منه أعمارهم، وتستبين فيه أحوالهم، وتنضج على لهبه الهادىء طباعهم.. ثم ينقلبون بعد إلى بارئهم.

﴿كَمَا بَدأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقاً هَدَى، وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾(١).

فالزمن ملابس لكل حركة وسكون في الوجود، فإذا لم نصابره اكتوينا بنار الجزع. ثم لم نغير شيئاً من طبيعة الأشياء التي تسير حتماً على قدر.

* * *

والصبر أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على النوازل.

فأما الصبر على الطاعة: فأساسه أن أركان الإسلام اللازمة تحتاج في القيام بها والمداومة عليها إلى تحمل ومعاناة.

فالصلاة مثلاً فريضة متكررة يقول الله فيها: ﴿وَأمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ، وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(٣).

وعشرة المؤمنين والإبقاء على مودتهم والإغضاء عن هفواتهم، خصال تعتمد على الصبر الجميل:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِـالْغداة والْعَشِيِّ، يُـرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٤).

والتواصي بالصبر قرين التواصي بالحق، وقد أقسم الله عز وجل على أن فلاح البشر منوط بهما:

---

(١) الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠. (٢) طه: ١٣٢. (٣) البقرة: ٤٥.
(٤) الكهف: ٢٨.

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

والصبر عن المعاصي هو عنصر المقاومة للمغريات التي بُثّت في طريق الناس، وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورة.

قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

والإقبال على المكاره والإدبار عن الشهوات لا يتأتى إلا لصبور. والصبر هنا أثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم إلى ما يرضي الله... وهو روح العفاف الذي يحمي المؤمن من أوضار الدنايا ومكر السيئات.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[3].

وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن في نفسه أو ماله، أو منزلته، أو أهله. وتلك كلها أعراض متوقعة، وهيهات أن تخلو الحياة منها، وإذا لم يصب أحد بسيلها الطام ضَرَبَهُ رَشَاشُها المتناثر.

على أن المسلم إذا احتمى بالله ولجأ إليه فَلَّ حَدَّ الحوادث، فضعف حَزُّها في بدنه. وكثيراً ما يكون اليقين البالغ طاغياً على الآلام الحادة طغيان «المغيب» في العمليات الجراحية الخطيرة. ولن تفارق المؤمن رحمه الله ما دام دينه لا يهي في الأزمات، ويقينه لا يزيغ لدى الشدائد.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[4].

وعن أم العلاء ـ وهي من المبايعات ـ قالت: دعاني رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال: «يا أم العلاء، أبشري فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الحديد والفضة»[5].

---

(١) العصر. (٢) مسلم. (٣) الأعراف: ١٢٦.
(٤) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧. (٥) أبو داود.

والحديث: «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن، إذا ذهب بصَفِيِّهِ من أهل الأرض فصبر واحتسب، بثواب دون الجنة»[1].

وينبغي أن لا يعزب[2] عن البال أن كل شيء نرتبط به ونزعم لأنفسنا حقاً فيه، فإن رباط الله به أوثق، وحق الله فيه أسبق. من أقرب للمرء من ولده؟ إن ولد الإنسان آثر شيء لديه، وأحبه إليه. عن طريقه وُجِد، وفي حجره عاش، وإنه ليرى فيه امتداد نفسه، وقطعة من حسه، فإن سطا عليه الموت هتف الأب الثاكل: ولدي.

ولكن صوت الحق قبل هتاف الحزن يجعلنا نقول: إذا كان الأب فقد ولده، فإن الملك استرد عبده. إن الذي فتح هذه العيون على أنوار الحياة هو الذي أغمضها، والذي نمّى هذا البدن بضرب النعماء هو الذي يعيده إلى معدنه الأول... إلى التراب.

إذا قال الوالد: ولدي. قال الموجد: عبدي، أنا ـ قبل غيري ـ أولى به وأحق.

عن القاسم بن محمد قال: «هلكت امرأة لي، فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها فقال: إنه كان في بني إسرائيل رجل فقيه، عالم عابد مجتهد، وكانت له امرأة كان بها معجباً فماتت. فوجد عليها وجداً[3] شديداً حتى دخل في بيت وأغلق على نفسه واحتجب. فلم يكن يدخل عليه أحد. فسمعت به امرأة من بني إسرائيل فجاءته فقالت: إن لي حاجة أستفتيه فيها، ليس يجزيني إلاّ أن أشافهه بها. ولزمت بابه! فأخبر بها. فأذن لها فقالت: أستفتيك في أمر. قال: وما هو؟ قالت: إني استعرت من جارة لي حلياً. فكنت ألبسه زماناً، ثم إنها أرسلت تطلبه، أفأرده إليها؟ قال: نعم والله!! قالت: إنه قد مكث عندي زماناً!! فقال: ذاك أحق لردك إياه! فقالت له: يرحمك الله، أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك، وهو أحق به منك؟؟ فأبصر ما كان فيه، ونفعه الله بقولها»[4].

* * *

---

(1) النسائي. (2) يعزب: يغيب. (3) وجد: حزن.

(4) مالك.

القصد والعفاف

تضمن الإسلام طائفة من الإرشادات المتصلة بحياة المسلمين الخاصة، قصد بها إلى تنظيم شؤونهم البدنية والنفسية، ووضعها على أساس كريم، هي آداب تتعلق بمطعم الإنسان وملبسه ومسكنه، وسائر آماله التي يسعى إليها في هذه الحياة، لا يجنح بها إلى الرهبانية المغرقة، ولا إلى المادية الجشعة، فهي تقوم على التوسط والاعتدال، ومن ثم فتنفيذها سهل قريب.

إن الإسلام يقرن بين مطالب الجسم والنفس في تعاليمه، ويكف طغيان أحدهما على الآخر، ويرى في تنسيق حاجاتها عوناً للمرء على أداء رسالته في هذه الحياة وما بعدها. والفلسفات التي نبتت في الأرض، والتي اصطنعها الناس ليحيوا في نطاقها عندما غابت عنهم هدايات السماء، هذه الفلسفات قلما نجحت في التوفيق بين ضرورات البدن وأشواق الروح، وبين كفالة الآخرة التي سنصير إليها ورعاية الدنيا التي بدأنا المسير منها!!

إن بعضها يقوم على هدم الجسم زاعماً أن الروح لا يُحَلِّقُ في أوجه إلا إذا أفلت من قيوده. وبعضها الآخر استهدف الملذات ودار في حدودها المهينة ساخراً بما وراء ذلك.

أما الإسلام فلن تجد فيه الرهبانية التي يضيق الناس ذرعاً بها، ويتحرجون من صرامتها. كما أنك لن تجد فيه الحيوانية القائمة على عبث الشهوات ومطاوعة الأهواء.

وينبغي أن نذكر حقيقة حاسمة في هذا الشأن. هي أن حياة المؤمن

المصدق بالدار الآخرة ليست كحياة الكافر الذي يعتبر عمره فوق ظهر الأرض هو دنياه وآخرته معاً. هو فرصته الأولى والأخيرة لقضاء لباناته وإدراك غاياته.

وأكثر الذين يفقدون عفتهم، ويتبعون نزواتهم، ويعيشون للمتع وحدها، هم من ذلك الصنف الأخير. أو هم إليه منتهون إن لم يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عن غيهم. وفي هؤلاء يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾(١).

ويقول: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

أما المؤمن فهو يُقَسِّمُ آماله ورغائبه على معاشه ومعاده، ويطلب الخير لنفسه في يومه وغده. وقد علمنا القرآن الكريم أن التطلع إلى النعمة والسعادة في كلتا الحياتين هو من أكبر الذكر لله!! قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا، وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾(٣).

وقد جاء في النصح «لقارون» ما يؤكد العمل للحياتين معاً، فإن الدنيا وسيلة للآخرة. وصحة الوسيلة ضمان لنجاح المقصد، كما أن انتظام المقدمات مؤد إلى تحصيل النتيجة المطلوبة. ومن ثم تضمن إرشاد الله «لقارون» هذه المعاني كلها:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٤).

* * *

(١) محمد: ١٢. (٢) الحجر: ٢ ـ ٣. (٣) البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢.
(٤) القصص: ٧٧.

بناء على ما تمهد من هذه القواعد يوصي الإسلام المرء ألا يكون عبد بطنه، يعيش في الدنيا ليأكل، ويغدو ويروح وليس له من هم إلا أن يجمع على مائدته ألوان الطعام، فإذا حشد فوقها ما لذ وطاب سر واطمأن، وإلا تغير وتغيظ وحسب أن القَدَرَ يكيدُ له!!

إن الرجال الذين يُمْعِنُونَ في التشبع والامتلاء، ويبتكرون في وسائل الطهي وضروب التلذذ، لا يصلحون لأعمال جليلة، ولا ترشحهم هممهم القاعدة لجهاد أو تضحية.

وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ: «أكثر الناس شبعاً في الدنيا أَطْوَلُهم جوعاً يوم القيامَة»[1].

والمعروف أن عدداً كبيراً من الأمراض الشديدة والعلل المنهكة ينشأ عن اكتظاظ المعدة بما لا تطيق هضمه.. ولذلك جاء في الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن»[2].

وتخفف الإنسان من مقادير الأطعمة لا يتم بالتزهد المجرد، أو الامتناع لغير معنى مفهوم. بل الطريق الصحيحة أن يربط الإنسان همته بمطمح كبير ثم ينشغل بتحصيله، فإن هذا يصرفه عن فنون اللهو وأنواع الملذات الرخيصة.

حدث أن أضاف رسول الله ﷺ رجلاً كافراً، فأمر له بشاة فحلبت، فشرب حلابها، ثم أخرى، فشرب حلابها، حتى شرب حلاب سبع شياه. ثم إنه أصبح فأسلم فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حلابها، ثم أخرى فلم يستتمه!! فقال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشرب في معى واحد. والكافر يشرب في سبعة أمعاء»[3].

وذلك أن الرجل غلبه التفكير عندما شعر بروعة الانتقال من طور الجاهلية إلى طَوْرِ النور، وعندما عرف موقفه الجديد من ربه وتكاليف دينه وحساب آخرته، فكان لارتفاع همته إلى تأسيس حياة أرقى مما مضى، أثر بالغ في عزوفه عن الاستزادة مما قدم له.

(١) البزار. (٢) الترمذي. (٣) مسلم.

والحق أن ملذات الطعام وحطام الدنيا أنزل قدراً من أن يتفانى الناس فيها النحو الشائن الذي نراه في عصرنا هذا.

قال رسول الله ﷺ: «إن مطعم ابن آدم جُعِلَ مثلاً للدنيا إن قَزَّحَه[1] ومَلَّحَهُ، فانظر إلامَ يصير»[2]؟؟.

وفي رواية: «إن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا».

وهذا الكلام قد يخطىء الناظر القاصر فَهْمَ دلالته، وقد يحسبه إبعاداً للمسلم عن الحياة وحثاً له على ترك طيباتها وهجر نعمائها. وشيء من ذلك لا يقصد إليه الإسلام؛ فإن تحريم الحلال، كتحليل الحرام، جريمة منكرة؛ وحق الله على المسلم ألا يغلب الحرام صبره، ولا الحلال شكره.

أما حقه في الحياة والاستمتاع بخيرها فلا ريب فيه:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا، إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[3].

وقد رأينا كرم أبي الأنبياء إبراهيم مع ضيوفه، فقد بادر بذبح عجل سمين لهم. وقدمه على المائدة دون استفسار أو انتظار:

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ: فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾[4].

وكان رسول الله وأصحابه في حياتهم الخاصة ينزلون عند قوله تعالى:
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[5].

وللبدن مطالب، أجمع العقلاء على أن في انتقاصها إضراراً به، فكل زهد أو تصوف يغض منها فالإسلام بريء منه. والحملات التي شنها الإسلام على

---

(١) قزحه: وضع عليه التوابل. (٢) أحمد. (٣) المائدة: ٩٣.
(٤) الذاريات: ٢٧. (٥) المائدة: ٨٧.

المادية إنما تعني بطنة المترفين وبشم الممعودين الغارقين في شهواتهم.

* * *

والإسلام يوصي بالاعتدال في ارتداء الملابس، ويكره للرجل أن يباهي بها أو يختال فيها، فهو لا يعتبر حسن البزة[1] من عناصر الرجولة أو مقومات الخلق العظيم، فرب امرىء لا تساوي ثيابه درهماً تَرْجِحُ نَفْسُهُ بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين، لو أقسم على الله لأبرَّه»[2].

وإنه لمن الحماقة أن يجعل الشاب من جسمه معرض أزياء يسير بها بين الناس، يرتقب نظرات الإعجاب تنهال عليه من هنا ومن هناك. إن هناك فتياناً أغراراً يقضون الساعات الطوال في البيوت ليس لهم من عمل إلا استكمال وجاهتهم، والاطمئنان إلى أناقتهم. ولو أنهم كلفوا ببذل هذا الوقت في التَزَيُّدِ من علم، أو التفقه في دين لنفروا ونكصوا. إنهم يحسبون اتساق الملابس على أجسامهم شارة الكمال وكفى!!.

وقد نَدَّدَ الإسلام بهذا الطيش ونَفَّرَ المسلمين منه... قال رسول الله ﷺ: «من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة، وألهب فيه ناراً»[3] والحق أن المفتونين والمفتونات من الرجال والنساء لَمَّا قَلَّتْ حظوظهم من آداب النفس ظنوا المغالاة في اللباس تستر نقصهم، وهيهات.

عن أبي بريدة قال: «دخلت على عائشة رضي الله عنها، فأخرجت إلينا كساءً ملبداً[4] وإزاراً مما يصنع اليمن. وأقسمت بالله لقد قُبِضَ رسول الله ﷺ في هذين الثوبين»[5].

وروي عن جابر قال: «حضرنا عرسَ علي وفاطمة، فما رأينا عرساً كان

(1) البزة: الهيئة. (2) الترمذي. (3) ابن ماجه.
(4) ملبداً: أي مرقعاً. (5) البخاري.

أحسن منه. حشونا الفراش - يعني من الليف - وأتينا بتمر وزبيب فأكلنا وكان فراشها ليلة عرسها إهاب كبش»[١].

إن الاستغناء عن الفضول، والاكتفاء بالضرورات من آيات الاكتمال في الخلق.

ذِكْرُ الفتى عمره الثاني وحاجته ... ماقاته وفضولُ العيش أشغالُ!!

ولا يستنتج من هذا أن الدين يحب الملابس الزرية، أو يرحب بالهيئات المستكرهة، أو يندب إلى لبس المرقعات وارتداء الخرق الباليات، كما يفعل جهلة العباد، كلا كلا...

سأل رجلٌ عبدَالله بنَ عمر: ما ألبس من الثياب؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء. قال: ما هو؟ - ما ثمنه - قال: ما بين الخمسة دراهم إلى العشرين درهماً»[٢] وهذا التثمين يلائم عصر ابن عمر، وربما يزيد عليه عصرنا كثيراً.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وعليه ثوب دون، فقال له: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: من كل المال قد أعطاني الله تعالى.

قال: «فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «ما على أحدكم إن وجد سعة، أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة غير ثوبي مهنته»[٤].

فالإسلام - كما رأيت - يستحب لأتباعه التجمل وحسن السمت؛ والفرق كبير بين إنسان يزخرف ظاهره ويهمل باطنه، وينفق خير وقته وماله في رياش يلصقها بجسمه، وآخر يجعل همه الأكبر في صيانة حقيقته، واستكمال مروءته، ثم لا ينسى في زحمة الواجبات ارتداء ما يجمل به ويلقى الناس فيه.

إن العالم اليوم يستقبل في فصول العام المختلفة بدعاً في دنيا الأزياء ليس

---

(١) البزار. (٢) الطبراني. (٣) النسائي.
(٤) أبو داود.

لها من حصر، فثياب الصيف غير ثياب الخريف، وهذه غير ثياب الشتاء، وتلك غير ثياب الربيع، بل إن أجزاء اليوم الواحد تتطلب أنواعاً متميزة من الملابس، فإن ما يليق بالسهرة لا يحسن بالأصيل! وهذا الشطط السمج يفرضه على المجتمعات في الشرق والغرب النساء وعبيد النساء وأشباه النساء! وهو هوس يبرأ الإسلام منه، وينزه الأتقياء عنه.

قال رسول الله ﷺ: «ويل للنساء من الأحمرين: الذهب والمعصفرة»[1].

وهذا التهديد لمن يولَعْنَ بالحلي، وينشغلن عن الحقوق الجليلة بفنون من الألبسة والألوان!.

والثابت من تعاليم الإسلام أن الذهب والحرير محرمان على الرجال، ففي الأنسجة الأخرى متسع لهم، وليس من شأن الذكور التحلي والتطرية، أما النساء فإنه، وإن حل لهن الحرير والذهب، فليس يسوغ لهن أن يجعلن التزين والإغراء شغلهنَّ الشاغل الذي يستغرق الأوقات، ويستهلك الثروات.

* * *

والإسلام لا يأبى أن تقام الحصون بروجاً مشيدة، وأن تبنى المدارس والجامعات، والملاجىء والمحاضن والمستشفيات، فتنفق في بنائها الألوف المؤلفة، وترفع شرفاتها حتى تناطح السحاب، ذلك أن المصالح العامة للأمم باقية على مر الأجيال، ومن الحق ربطها بهذه الساحات الرحبة والجدر الشامخة، لكن ما معنى أن يشيد رجل فذ لنفسه أو لمتعه قصراً يرسو على الثرى ويذهب في الفضاء؟.

إنَّ الإسلام يستحب البساطة المطلقة في تأسيس البيوت وتأثيثها.

ويوصي بنبذ التكلف والمبالغة في هذه النفقات.

روى قيس بن حازم قال: أتينا خباب بن الأَرَتّ نعوده وقد اكتوى سبع كيات في بطنه، فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا. وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب!! ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو

(١) ابن حبان.

بالموت لدعوت به!! ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبني حائطاً له، فقال: «إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه، إلا في شيء يجعله في هذا التراب»[1].

فهذا الصاحب الجليل كان يبني فعلاً، ولكنه لحساسيته الشديدة بوجوب الإنفاق في سبيل الله حسب أن ما يتكلفه في البناء من نفقة لا أجر له فيه، وهو لا أجر له فيه بتة إن كان يبني مفاخرة ومكاثرة، وذهولاً عن الآخرة، وتعشقاً للدنيا، أما إن كان يبني ما يقيه ويكفله فإن أجره فيه مدخر، والبناء هنا عبادة[2].

وأما الأثاث، فحكم الإسلام فيه حاسم، فقد قطع دابر الترف داخل حجرات البيت، وكره انتشار الطنافس والزخارف في نواحيه.

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إياك والتنعم فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[3].

ومِنْ ثَمَّ حرم الإسلام أواني الذهب والفضة ومفارش الحرير والديباج.

وبحسب الناس أن تكون أوانيهم من المواد المعهودة، وأن تكون مفارشهم كذلك.

عن حذيفة قال: «نهى رسول الله أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه»[4].

* * *

قد يفهم من ذلك أن الخشونة سمة الحياة الإسلامية، ولو صح هذا الفهم فأي عيب فيه؟ على أنه من المستغرب أن تقرن ليونة العيش باستعمال الحرير والذهب!! وإن جماهير البشر يمكنهم أن يحيوا سعداء وادعين؛ دون أن يتحلوا بذهب أو يرتدوا الحرير.

لكن الإسلام يريد أن يجتث جذور الترف من معيشة الفرد ومعيشة

---

(١) البخاري. (٢) يراجع مبحث الإخلاص. (٣) أحمد.
(٤) البخاري.

الجماعة حتى يسلم للأمم كيانها ويبقى تماسكها؛ وجدير بالأمة المسلمة أن تجعل حياتها جندية لله، وتاريخها جهاداً موصولاً لإعلاء الحق وحماية دعوته، وظاهر أمرها وباطنه ترفعاً عن فتن الدنيا وملاهيها الصغيرة.

أما التهالك على الشهوات والتهاوي في المحرمات فهو فرار من التكاليف ونكوص عن الجد، وتضييع لمعالم الشرف، وتلك خلال إن تسربت إلى أمة وأدتها.

روي عن رسول الله ﷺ: «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام؛ أولئك شرار أمتي»[1].

وإنك لترى مصداق هذا الحديث في أقوام ورثوا الدين كلاماً، واتخذوه لهواً ولعباً فضاعوا في الدنيا، وضاعت بينهم حقائق الدين.

* * *

إنَّ الله نعى على قوم ولعهم باللذائذ وافتتانهم بالمرح واللهو، وانحصارهم في مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾[2].

وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأن ذلك لفقدانهم العفاف والقصد، وانطلاقهم مع الغواية والمجون.

﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[3].

والحق أن كِفْلاً ضخماً من تصدع الدولة الإسلامية يرجع إلى ضياع العفة وشيوع الملذات، وقد حذر رسول الله ﷺ أمته من هذا الانحلال النفسي.

فعن أبي برزة أن النبي ﷺ قال: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في

---

(١) الطبراني. (٢) الأحقاف: ٢٠. (٣) المؤمن: ٧٥.

بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى»[1].

إنَّ الإسلام بدأ بين قوم فقراء، يحجزهم الإقلال عن إدراك المباحات، فضلاً عن التشبع من الطيبات، وكانت حالة الشظف التي يعانونها مثار شكواهم.

عن أبي هريرة: «رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء[2]، إما إزار وإما كساء قد ربطوها في أعناقهم. فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»[3].

والفقر نكبة موجعة، ومن حق الناس أن يتخلصوا من هذا البلاء، والإسلام نفسه يجعل مباهج الدنيا من حق الذين آمنوا، وكان رسول الله ﷺ يخشى أن يكون هناك رد فعل لهذا الحرمان الشديد عندما يسود الإسلام وتنتشر مبادئه، فحذر من الحال الأخرى التي ستحدث بعد وفاته، فَبَيَّنَ أَنَّهُ إن كانَ فَقْدُ الدنيا شراً، فالافتتان بها والتطاحن عليها شر أشد.

إنَّ التوسط لب الفضيلة. والتوسط هنا أن تملك الحياة لتسخرها في بلوغ المثل العليا، لا أن تملكك الحياة فتسخرك لدناياها، ولا أن تحرم من الحياة أصلاً فتقعد ملوماً محسوراً.

وهذا ما عناه النبي ﷺ عندما قال: «والله ما الفقر أخشى عليكم. ولكن أخشى أن تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم؛ فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، فتهلككم كما أهلكتهم»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة»[5].

---

(١) أحمد. (٢) أي: ثوب كامل. (٣) البخاري.
(٤) البخاري. (٥) الترمذي.

النظافة والتجمّل والصّحّة

على المسلم في كل ساعة من عمره أن يسعى نحو الكمال، وأن يحث المسير إلى الارتقاء المادي والنفسي، فإنَّ مستقبله عند الله مرتبط بالمرحلة التي يبلغها في تقدمه، إن أدركه الموت وهو في القمة كان من أصحاب الفردوس الأعلى، وإن أدركه وهو مقتصد ينقل خطاه في السفوح القريبة كان بحسبه أن ينجو. وإن أدركه وقد رجع القهقرى وضل الغاية تخطفته زبانية العذاب الأليم، ومن كان في هذه أعمى حشر يوم العرض أعمى، ومن كان قذراً بعث كذلك.

وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ أن الرجل الحريص على نقاوة بدنه ووضاءة وجهه ونظافة أعضائه يُبْعَثُ على حاله تلك، وضيء الوجه، أغر الجبين، نقي البدن والأعضاء!!!.

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ زار المقابر، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْد، قالوا: كيف تعرف من لم يأتِ بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلاً له خيلٌ غرٌ محجلة بين ظهري خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء»[1].

---

(١) مسلم.

إن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي وَجَّهَ الإسلام إليها عناية فائقة، واعتبرها من صميم رسالته، ولن يكون الشخص راجحاً في ميزان الإسلام، محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالتنظيف والتهذيب، وكان في مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة بعيداً عن الأدران المكدرة والأحوال المنفرة، وليست صحة الجسد وطهارته صلاحاً مادياً فقط، بل إن أثرها عميق في تزكية النفس، وتمكين الإنسان من النهوض بأعباء الحياة. وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم الجلد والبدن القوي الصبور.

كرم الإسلام البدن، فجعل طهارته التامة أساساً لا بد منه لكل صلاة وجعل الصلاة واجبة خمس مرات في اليوم، وكلف المسلم أن يغسل جسمه كله غسلاً جيداً في أحيان كثيرة تلابسه غالباً، وتلك هي الطهارة الكاملة، وفي الأحوال المعتادة اكتفى بغسل الأعضاء والأطراف التي تتعرض لغبار الجو، ومعالجة شتى الأشغال، أو التي يكثر الجسم إفرازاته منها:

﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُم إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلىٰ الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ؛ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا... ﴾[1].

والطريقة التي شرعها الإسلام لإبقاء الجسم نظيفاً في كل وقت تقوم على ربط الغسل الواجب بأحوال الطبيعة المادية في الإنسان. فلو كان الإنسان روحاً فقط ما احتاج إلى متابعة الغسل والتنقية والتطهير، أما وهو مستقر في هذا الغلاف المادي المتكون من تربة الأرض، تلك الأرض التي يحيا فوقها، ويتغذى من نباتها وحيوانها، ويترك فضلات معدته فيها، ويثوي آخر الأمر في ثراها ـ أما وهو كذلك، فقد ناط الإسلام الوضوء المفروض بأعراض هذه الطبيعة المادية. وبكل ما ينشأ عن دورة الطعام في الجسم من نفايات وغازات.

ولن يتخذ الإلزام بالتطهر طريقة ألصق وأقوم من هـذه التي شرع الإسلام، لأنها تجعل المرء يعاود الغسل والوضوء ولو كان نظيفاً، وهي من قبل

(١) المائدة: ٦.

تنفي عن الأمة المسلمة أي أثر من آثار القذارة والاتساخ.

على أن الإسلام لم يدع أمر الغسل الكامل للظروف التي تفرضه فرضاً، فقد يتكاسل بعض الناس عن الاغتسال ما دامت دواعي فرضه لم تقم، لذلك وَقَّتَ للغسل يوماً في كل أسبوع.

قال رسول الله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وسواك ويمسّ من الطيب»[1].

وفي الحديث: «إن هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين، فمن جاء الجمعة فليغتسل»[2].

* * *

وقد أوجب الإسلام النظافة من الطعام، فبعد أن ندب إلى الوضوء له ـ ويكفي فيه غسل الأيدي ـ أمر بأن يتخلص الإنسان من فضلاته وروائحه وآثاره، وهذا أنقى للمرء وأطيب.

روي عن رسول الله ﷺ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده»[3].

وهذه النظافة المطلوبة يتفاوت الحث عليها باختلاف بقايا الطعام المتخلفة على البدن. فإذا تسربت هذه البقايا في الأماكن المتوارية كان حقاً على المسلم أن يتطهر منها.

قال رسول الله ﷺ: «تخللوا، فإنه نظافة! والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة»[4].

وقد اقترنت نظافة الوضوء ونظافة الطعام في هدي النبي ﷺ.

فعن أبي أيوب قال: خرج علينا رسول الله فقال: حبذا المتخللون من أمتي. قال: وما المتخللون يا رسول الله؟ قال: المتخللون في الوضوء، والمتخللون من الطعام، أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع.

---

(١) مسلم. (٢) ابن ماجه. (٣) أبو داود.

(٤) الطبراني.

وأما تخليل الأسنان فمن الطعام: «وإنه ليس شيء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلي»[1].

وعناية الدين بتطهير الفم، وتجلية الأسنان، وتنقية ما بينها لا نظير لها في وصايا الصحة القديمة والحديثة.

وقال رسول الله ﷺ: «تسوكوا؛ فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب. ما جاءني جبريل إلا وصاني بالسواك، حتى لقد خشيت أن يفرض عليّ وعلى أمتي»[2].

وفي رواية: «لقد أُمِرْتُ بالسواك حتى ظننت أنه ينزل عليّ فيه قرآن أو وحيٌ».

والذي يلحظ أمراض الفم واللثة من إهمال تطهيرهما يدرك سر مبالغة الإسلام في دلك الأسنان بالمواد الحافظة لرونقها وسلامتها، دلكاً يزيل ما يعلوها وما يختفي حولها.

قال رسول الله ﷺ: «لقد أمرت بالسواك حتى خشيت أن أدرد»[3]. أي تسقط أسناني من شدة الدلك.

والأطعمة ذات الروائح النفاذة والآثار الغليظة ـ كاللحم والسمك وغيرها ـ يجب أن يشتد حذر الإنسان من إهمالها، فإن التنظف منها ضرورة لحفظ الصحة، وضرورة لحفظ الكرامة الخاصة، والآداب العامة:

قال رسول الله ﷺ: «من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه»[4]. والغمر: زهومة اللحم.

وقد وردت آثار تفيد أن الجراثيم إنما تجد مرتعها الخصب في الأيدي والأفواه القذرة، وأوصت بالتحرز من غوائلها.

ومن احترام الإسلام للفرد والمجتمع تحريمه على من أكل ثوماً أو بصلاً أو

---

(١) أحمد. (٢) ابن ماجه. (٣) البزار.

(٤) البزار.

فجلاً أن يحضر المجتمعات؛ ذاك أن نتن الأفواه من هذه الأطعمة يؤذي المخاطبين وينفر من آكلها.

وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة في المسجد عمن تناول هذه المواد، كما أسقط سنة الجماعة عن الذين أصيبوا بعلل تجعل روائح فمهم أو جسمهم كريهة، وهذا الأدب الكريم صيانة محمودة للمرضى والأصحاء.

* * *

ويوصي الإسلام بأن يكون المرء حسن المنظر كريم الهيئة، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة.

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[1].

وكان رسول الله يعلم المسلمين أن يعنَوا بهذه الأمور، وأن يلتزموها في شؤونهم الخاصة حتى يبدو المسلم في سمته وملبسه وهيئته جيلاً مقبولاً:

قال رسول الله ﷺ: «من كان له شعر فليكرمه»[2].

وعن أبي قتادة قلت: يا رسول الله إن لي جمة أَفَأُرَجِّلُها؟ قال: «نعم، وأكرمها!!» فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين، من أجل قول رسول الله[3]. فتسريح الرأس سنة حسنة وتعطيره كذلك.

وعن عطاء بن يسار قال: أتى رجل للنبي ﷺ ثائر الرأس واللحية: فأشار إليه الرسول، كأنه يأمره بإصلاح شعره، ففعل ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان»[4].

وعن جابرٍ بن عبدالله: «رأى النبي ﷺ رجلاً رأسه شعث. فقال: «أما وجد هذا ما يسكّن به شعره؟»[5]. ورأى آخر عليه ثياب وسخة فقال: «أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه؟».

إن الأناقة في غير سرف، والتجمل في غير صناعة وتزويق، وإحسان

---

(١) الأعراف: ٣١. (٢) أبو داود. (٣) النسائي.
(٤) مالك. (٥) أبو داود.

«الشكل» بعد إحسان «الموضوع» من تعاليم الإسلام، الذي ينشد لبنيه علو المنزلة وجمال الهيئة.

قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال»(١).

وفي رواية أن رجلاً جميلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني أحب الجمال وقد أعطيت منه ما ترى. حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل! أفمن الكبر ذلك يا رسول الله؟ قال: «لا. ولكن الكبر بطر الحق وغمض الناس».

وكان رسول الله ﷺ دقيق الملاحظة في هذه الناحية، فإذا رأى مسلماً يهمل تجميل نفسه وتنسيق هيئته نهاه عن الاسترسال في هذا التبذل، وأمره أن يرتدي ألبسة أفضل.

عن جابر بن عبدالله: «نظر رسول الله ﷺ إلى صاحب لنا يرعى ظهراً لنا، وعليه بردان قد أخلقا. فقال رسول الله ﷺ: أما له غير هذين؟ فقلت: بلى، له ثوبان في العيبة كسوته إياهما. فقال: ادعه فليلبسهما، فلبسهما، فلما ولى قال رسول الله: ماله؟ ـ ضرب الله عنقه ـ أليس هذا خيراً؟ فسمعه الرجل، فقال: في سبيل الله يا رسول الله!! فقال: في سبيل الله!.. فقتل الرجل في سبيل الله»(٢).

إن هذا الرجل أدرك حقيقة المداعبة الناصحة التي ساقها النبي ﷺ إليه، فاستفاد منها، ويبدو أنه كان ممن تذهلهم المعايش عن العناية بشؤونهم الخاصة، ولكن مهما تكاثرت الأشغال والمتاعب على الإنسان، فلا ينبغي أن ينسى واجب الالتفات إلى زيه ونظافته واكتماله.

وبعض محترفي التدين يحسبون فوضى الملبس واتساخه ضرباً من العبادة، وربما تعمدوا ارتداء المرقعات والتزيي بالثياب المهملة ليظهروا زهدهم في الدنيا

(١) مسلم.

(٢) مالك.

وحبهم للأخرى. وهذا من الجهل الفاضح بالدين، والافتراء على تعاليمه.

حدثنا ابن عباس قال: «لما خرجت الحرورية أتيت علياً رضي الله عنه فقال: ائت هؤلاء القوم. فلبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، فلقيتهم فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟ قلت: ما تعيبون علي! لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل»[١].

وعن البراء: كان رسول الله ﷺ مربوعاً. وقد رأيته في حلة حمراء ما رأيت شيئاً أحسن منه قط[٢].

وقد امتد هذا التطهير والتجميل من أشخاص المسلمين إلى بيوتهم وطرقهم فإن الإسلام نبه إلى تخلية البيوت من الفضلات والقمامات، حتى لا تكون مباءة للحشرات، ومصدراً للعلل. وكان اليهود يفرِّطون في هذا الواجب فحذر المسلمون من التشبه بهم.

روي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبَّهوا باليهود»[٣].

وإماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، وقد اعتبر هذا العمل الخفيف الجليل صلاة مرة، وصدقة مرة أخرى.

ففي الحديث: «حملك عن الضعيف صلاة، وإنحاؤك الأذى عن الطريق صلاة»[٤].

وفي حديث آخر: «... بكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»[٥].

أي إزالة الأذى من حجر أو شوك أو نجاسة أو ما شابه ذلك.

* * *

(١) أبو داود. (٢) مسلم. (٣) الترمذي.
(٤) ابن خزيمة. (٥) البخاري.

إن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية؛ فهو يتطلب أجساماً تجري في عروقها دماء العافية، ويمتلىء أصحابها فتوة ونشاطاً. فإن الأجسام المهزولة لا تطيق عبئاً، والأيدي المرتعشة لا تقدم خيراً.

وللجسم الصحيح أثر، لا في سلامة التفكير فحسب، بل في تفاؤل الإنسان مع الحياة والناس... ورسالة الإسلام أوسع في أهدافها وأصلب في كيانها من أن تحيا في أمة مرهقة، موبوءة عاجزة.

ومن أجل ذلك حارب الإسلام المرض، ووضع العوائق أمام جراثيمه حتى لا تنتشر، فينتشر معها الضعف والتراخي والتشاؤم، وتستنزف فيها قوى البلاد والشعوب.

وقد وفر الإسلام أسباب الوقاية بما شرع من قواعد النظافة الدائمة ـ على ما رأيت ـ ثم بما رسم من حياة رتيبة يلتزم المسلم السير عليها، فهو يستيقظ مع الفجر، ويبتعد عن السهر، ويتحامى مزالق الشهوة، ويقتصد في أطعمته، ويستعف في معيشته وسيرته، ويجدد نشاطه بالصلوات في اليوم، والصيام في كل عام.

ولا تنسى أن البعد عن المعاصي حصانة كبرى من الأمراض الخبيثة. وإذا وقع امرؤ في براثن المرض وجب عليه أن يعالجه حتى ينجو منه. والإسلام يرشد الناس إلى التماس الأدوية الناجعة لما يحيق بهم من آلام.

قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء»[1].

وقال: «إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء؛ فتداوَوا، ولا تداوَوا بحرام»[2].

وقال: «إن لكل داء دواء، فإذا أصيب[3] دواء الداء برأ بإذن الله»[4].

---

(١) البخاري. (٢) أبو داود. (٣) أصيب: وجد، واستعمله المريض.
(٤) مسلم.

وحرم الإسلام الالتجاء إلى الخرافات في طلب الشفاء؛ فإن لكل علم أهلاً يحسنونه، ويجب الاستماع إليهم. أما الدجالون الذين يقحمون أنفسهم فيما لا ينبغي لهم فلا يسوغ لمسلم أن يقصدهم أو يصدق مزاعمهم.

عن عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من علَّق تميمة فلا أتم الله له، ومن علَّق ودعة فلا أودع الله له»[1].

ومع ذلك فإن طب التمائم والودع، والحجب المكتوبة، والتعاويذ المسحورة تلقى بين العامة رواجاً! وقد عدها الإسلام ضرباً من الشرك بالله. لأنها بقية من الجاهلية التي كانت تنسب إلى الأوهام ما لا يعقل.

روى عقبة أيضاً: أن ركباً من عشرة وفد على رسول الله ﷺ يبايعه، فبايع رسول الله ﷺ تسعة وأمسك عن رجل منهم! فقالوا: ما شأنه؟ فقال: إن في عضده تميمة، فقطع الرجل التميمة، فبايعه رسول الله ﷺ، ثم قال: «من علَّق فقد أشرك!!»[2].

ومن وسائل الوقاية المحكمة التي شرعها الإسلام إيجابه قضاء الحاجة في أماكن معزولة حتى تذهب الفضلات الحيوانية في مستقر سحيق، فلا يتلوث بها ماء ولا يتنجس طريق ولا مجلس.

ولو أن المسلمين أخذوا أنفسهم بهذا الأدب الجليل لنجوا من غوائل الأدواء التي هَدَّتْ قواهم، وأنهكت قراهم، وجشمتهم العنت الكبير.

فعن جابر: عن النبي ﷺ: «أنَّه نهى أن يبال في الماء الراكد»[3]. وعنه أيضاً: «نهى أن يبال في الماء الجاري»[4].

وعن معاذ: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[5].

أي أن هذه الأمور تجلب على فاعلها اللعنة. والشخص الذي يتخلَّى في

---

(١) الحاكم. (٢) أحمد. (٣) مسلم.
(٤) الطبراني. (٥) أبو داود.

الطريق العامة ساقط المروءة، فهو يأتي فعلاً يثير الاشمئزاز، ويستوجب السخط.

وقد قال رسول الله ﷺ: «من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»(١).

وفي رواية: «من سَلَّ سخيمته(٢) على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(٣).

وهذه المنهيات كلها أساس انتشار الأمراض المتوطنة لدينا نحن المسلمين، إذ أن العوام استهانوا بها فَجَرَّتْ عليهم الوبال.

وقد وضع الإسلام قواعد الحجر الصحي، فإذا ظهر مرض معدٍ في بلد ما ضرب حوله حصاراً شديداً، فمنع الدخول فيه والخروج منه، وذلك حتى تنكمش رقعة الداء في أضيق نطاق.

قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»(٤).

وقد واسى الإسلام سكان البلد الموبوء وحبب إليهم المكث فيه، فإن الرغبة في النجاة تزين للكثير أن يفر منه خلسة، وتلك الرغبة في إحراز السلامة الشخصية تعرض البلاد جملة لخطر جارف.

ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «.. ما من عبد يكون في بلد فيه الطاعون، فيمكث فيه لا يخرج ـ صابراً محتسباً ـ يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد»(٥).

وربما حاول بعض المغامرين أن يسافر إلى البلد الموبوء، وقد يحتج بأن الخوف من العدوى ضعف في اليقين، أو هروب من القضاء المحتوم. وهذا خطأ، فإن عمر بن الخطاب رفض السفر إلى الشام لَمَّا ظهر فيها الطاعون فقيل

---

(١) الطبراني. (٢) يعني: الغائط والنجو. (٣) البيهقي.
(٤) البخاري. (٥) البخاري.

له: تفر من قدر الله؟ قال: نفر من قدر الله إلى قدر الله.

إن الأخذ بالأسباب حق، وهو من القدر كما يقول عمر، وقد شرع الإسلام التحرز من العدوى.

فقال رسول الله ﷺ: «لَا يُورِدَنَّ مُمْرِض عَلَى مُصِحّ»[1].

وقال: «فِرَّ من المجذوم فِرَارك من الأسد»[2].

وإنه، وإن كانت العدوى حقاً، إلا أننا يجب أن نعرف أنه ليست كل عدوى تصيب. فقد يحمل الشخص جرثومة المرض ولا يصاب به، لأن فيه مناعة خاصة. بل ينجو منه وينقله إلى غيره!!

ولو أن كل عدوى تصيب لهلك أهل الأرض في يوم واحد. فهناك ـ كما يقول الأطباء ـ ظروف معقدة للإصابة عن طريق العدوى. هذا معنى الحديث: «لا عدوى» وليس النفي منصباً على إنكار حقيقة العدوى لأن آخر الحديث يمنع ذلك وهو قول الرسول ﷺ بعد ذلك مباشرة: «... وفر من المجذوم فرارك من الأسد».

* * *

(١) البخاري.

(٢) البخاري.

الحَيَاءُ

الحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه. وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغي، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حي الضمير، نقي المعدن، زكي العنصر. وإذا رأيت الشخص صفيقاً بليد الشعور، لا يبالي ما يأخذ أو يترك، فهو امرؤ لا خير فيه، وليس له من الحياء وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا.

وقد وصى الإسلام أبناءه بالحياء، وجعل هذا الخلق السامي أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل.

قال رسول الله ﷺ: «إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء»[1].

كانت الصرامة ملحوظة في تعاليم اليهودية على عهد موسى عليه السلام، وكانت السماحة ملحوظة في تعاليم المسيحية على عهد عيسى عليه السلام.. وقد تميز الإسلام بالحياء. والأديان كلها تأمر بالفضائل جملة، وتحاسب عليها جملة.

وقد أراد النبي الكريم أن يجعل من حساسية المسلم بما في الفضيلة من خير، وبما في الرذيلة من شر أساساً يدفعه إلى الاستمساك بالأولى، والاشمئزاز من الأخرى، حياء مِنْ تَرْكِ الخير ومِنْ فِعْلِ الشر، بِغَضِّ النظر عن الثواب والعقاب. كما قال ابن القيم:

(١) مالك.

هب البعث لم تــأتنـا رسله وجـاحـمة النــار لم تضــرم[1]
أليس من الـواجب المستحق حيــاء العبــاد من المنعم؟؟

وكان النبي ﷺ أرق الناس طبعاً، وأنبلهم سيرة، وأعمقهم شعوراً بالواجب، ونفوراً من الحرام:

عن أبي سعيد الخدري: «كان رسول الله أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[2].

* * *

إنَّ الإيمان صلة كريمة بين العباد وربهم، ومن حق هذه الصلة، بل أثرها الأول تزكية النفوس، وتقويم الأخلاق، وتهذيب الأعمال. ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست في النفس عاطفة حية، تترفع بها أبداً عن الخطايا، وتستشعر الغضاضة من سفساف الأمور. أما الإلمام بالمحاقر[3] دون تورع، والوقوع في الصغائر دون اكتراث، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها. ثم فقدانها لإيمانها.

قال رسول الله ﷺ: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخرة»[4].

وعلة ذلك أن المرء حينما يفقد حياءه يتدرج من سيء إلى أسوأ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل. . وقد روي عن رسول الله حديث يكشف عن مراحل هذا السقوط، الذي يبتدىء بضياع الحياء وينتهي بشر العواقب:

«إن الله عزوجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء. فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً[5]. فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة. فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً. فإذا لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة. فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيماً ملعناً. فإذا لم تلقه إلا رجيماً ملعناً نزعت منه ربقة الإسلام»[6].

---

(1) جاحمة النار: أي جهنم، وتضرم: توقد. (2) مسلم. (3) المحاقر: الأمور الحقيرة.
(4) الحاكم. (5) أي مبغضاً. (6) ابن ماجه.

وهذا ترتيب دقيق في وصفه لأمراض النفوس وتتبعه لأطوارها، وكيف تسلِّم كل مرحلة خبيثة إلى أخرى أشد نكراً. فإن الرجل إذا مزق الحجاب عن وجهه، ولم يتهيب على عمله حساباً، ولم يخشى في سلوكه لومة لائم، مَدَّ يَدَ الأذى للناس، وطغى على كل من يقع في سلطانه. ومثل هذا الشخص الشرس لن يجد قلباً يعطف عليه بل إنه يغرس الضغائن في القلوب وينميها.

وأيُّ حب لامرىء جريء على الله وعلى الناس، لا يرده عن الآثام حياء، فإذا صار الشخص بهذه المثابة لم يؤتمن على شيء قط، إذ كيف يؤتمن على أموال لا يخجل من أكلها أو على أعراض لا يستحي من فضحها، أو على موعد لا يهمه أن يخلفه، أو على واجب لا يبالي أن يفرط فيه، أو على بضاعة لا يتنزه عن الغش فيها؟

فإذا فقد الشخص حياءه وفقد أمانته أصبح وحشاً كاسراً ينطلق معربداً وراء شهواته ويدوس في سبيلها أزكى العواطف، فهو يغتال أموال الفقراء غير شاعر نحوهم برقة، وينظر إلى آلام المنكوبين والمستضعفين فلا يهتز فؤاده بشفقة. إن أثرته الجامحة وضعت على عينيه غشاوة مظلمة، فهو لا يعرف إلا ما يغويه ويغريه بالمزيد... ويوم يبلغ امرؤ هذا الحضيض فقد أفلت من قيود الدين وانخلع من ربقة الإسلام.

وللحياء مواضع يستحب فيها. فالحياء في الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فمه من الفحش، وأن ينزه لسانه عن العيب، وأن يخجل من ذكر العورات، فإن من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابىء بمواقعها وآثارها.

قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار»[1].

ومن الحياء في الكلام أن يقتصد المسلم في تحدثه بالمجالس، فإن بعض الناس لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث في المحافل الجامعة، فيملأون

(١) أحمد.

الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون، وقد كره الإسلام هذا الصنف.

قال رسول الله: «من تعلم صرف الكلام[1] ليستبي به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[2].

وقال: «إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة»[3].

وسر هذا البغض أن أخبار هؤلاء لا تخلو من التزيد، وأحوالهم لا تخلص من الرياء واستئثارهم بالمجالس متنفس لعلل خلقية كان الحياء علاجها الشافي لو أنهم استمسكوا به، ولذلك جاء في بعض الآثار أن العي أفضل من هذا الإفصاح، وهو عي اللسان لا عي القلب.

ومن الحياء أن يخجل الإنسان من أن يؤثر عنه سوء، وأن يحرص على بقاء سمعته نقية من الشوائب، بعيدة عن الإشاعات السيئة..

فإن الغيبة إنما تحرم فيمن سترت حاله، أما من كشف صفحته وأظهر سوءته فإن الناس لن يبلغوا منه ما يبلغ من نفسه، ولذلك أمر رسول الله من لوّثته قاذورات المعاصي أن يتوارى عن الأعين.

وعندما رآه بعض أصحابه مع زوجته في ناحية من المسجد استوقفهم لينبئهم بأنه ليس مع امرأة غريبة عنه.

والفارق واضح بين من يطلب بعمله السمعة، ومن يذود عن سمعته ظنون العباد. واتقاء المسلم للناس لا يَعني النفاق بإبطان القبيح وإظهار الحسن. كلا، بل المراد عدم الجهر بالقبائح والاستحياء من مقارفتها علانية.

فإن الرجل الذي يخجل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقية من خير، والرجل الذي يطلب الظهور بالفضيلة لا تزال فيه بقية من شر... على أن الإنسان ينبغي أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس، فإذا كره أن يَروه على نقيضة فليكره أن يرى نفسه على مثلها، إلا إذا حسب نفسه أحقر من أن

(١) صرف الكلام: بلاغته. (٢) أبو داود. (٣) الترمذي.

يستحي منها. وقد قيل: من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر... ومن ثم كان لزاماً على المسلم أن يبتعد عن الدنايا، ما ظهر منها وما بطن، سواء خلا بنفسه أو برز إلى الناس.

وفي الأثر: «ما أحببت أن تسمعه أذناك فأته، وما كرهت أن تسمعه أذناك فاجتنبه».

* * *

إن الحياء ملاك الخير، وهو عنصر النبل في كل عمل يشوبه، قال رسول الله: «ما كان الفحش في شيء إلاّ شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»[1].

فلو تجسم الحياء لكان رمز الصلاح والإصلاح:

عن عائشة أن رسول الله قال لها: «لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوءاً»[2].

ومن حياء الإنسان مع الناس أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم، وأن يؤتي كل ذي فضل فضله. فللغلام مع من يكبرونه، وللتلميذ مع من يعلمونه مسلك يقوم على التأدب والتقديم، فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته، ولا أن يجعل أمامهم خَطْوَهُ؟

وفي الحديث: «تواضعوا لمن تعلّمون منه»[3]... وفي الحديث كذلك: «اللهمَّ لا يدركني زمان لا يتبع فيه العليم، ولا يُستحيي فيه الحليم»[4].

وعن عبد الله بن بُسْر: لقد سمعت حديثاً منذ زمان: «إذا كنت في قوم[5] فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلاً يُهاب في الله عز وجل، فاعلم أن الأمر قد رَقَّ!!»[6].

وليس الحياء جبناً، فإن الرجل الخجول قد يفضل أن يريق دمه على أن يريق ماء وجهه، وتلك هي الشجاعة في أعلى صورها.

---

(١) الترمذي. (٢) الطبراني. (٣) الطبراني.
(٤) أحمد. (٥) القوم: عشرون رجلاً أو أقل أو أكثر. (٦) أحمد.

قد يكون في الحياء شيء من التخوف، بيد أنَّه تخوف الرجل الفاضل على مكارمه ومحامده أن تذهب ببهائها الأوضاع المحرجة. وهذا التخوف يقارن الجراءة في مواطنها المحمودة.

فعندما نكص اليهود قديماً عن محاربة الجبارين النازلين بالأرض المقدسة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾(١).

فهؤلاء الذين يتقون الله ويخافون العار ويستحيون من الفرار، هم الذين لو وقع قتال لقادوا الهجوم وقربوا الفتح.

ولا شك أن الحياء الكامل يسبقه استعداد فطري ممهد. فإن هناك طبائع تكاد الصفاقة تكون لازمة لها، في الوقت الذي ترى فيه بعض الناس شديد الخجل مرهف الإحساس إلى حد بعيد. لكن الخجل ـ مع أنه العنصر البارز في الحياء ـ يقع في الخير والشر. وقد يجر صاحبه إلى ورطات سيئة. أما الحياء فلا يكون إلا في الحدود المشروعة فالذي يتهيب تقريع المبطلين لا يعتبر حيياً! إن الحياء لا يكون تجاه الباطل. ولا موضع له مع الناس إذا ضلوا. ولا موضع له في السلوك عندما يقف المرء موقفاً يناصر فيه الحق... وقد عاب المشركون على الإسلام أنه حقر الأصنام. وفضح عجزها عن خلق ذبابة. بل عن حماية نفسها لو هاجمتها ذبابة. وقالوا: إنه ليس من الحياء أن تهاجم آلهتهم بهذا الأسلوب... فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِين كَفَرُوا فَيَقُولُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا؟﴾(٢).

فإبراز الأصنام في هذه الصورة من العجز والضعة حق: «والله لا يستحي من الحق». وفي سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحداً ولا يخشى بأساً.

* * *

والحياء في أسمى منازله وأكرمها يكون من الله عز وجل، فنحن نطعم

---

(١) المائدة: ٢٣. (٢) البقرة: ٢٦.

من خيره ونتنفس في جوه، وندرج على أرضه، ونستظل بسمائه. والإنسان بإزاء النعمة الصغيرة من مثله يخزى أن يقدم إلى صاحبها إساءة، فكيف لا يوجل الناس من الإساءة إلى ربهم، الذي تغمرهم آلاؤه من المهد إلى اللحد، وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل؟

إن حق الله على عباده عظيم، ولو قدروه حق قدره لسارعوا إلى الخيرات يفعلونها من تلقاء أنفسهم، ولباعدوا عن السيئات خجلاً من مقابلة الخير المحض، بالجحود والخسة.

عن ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء، قلنا: إنا نستحيي من الله يا رسول الله ـ والحمدلله ـ قال: ليس ذلك.. الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى. فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1].

وهذه العظة ـ ويقال إنّها لابن مسعود ـ تستوعب كثيراً من آداب الإسلام ومناهج الفضيلة، فإن على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض في باطل، وبصره أن يرمق عورة أو ينظر شهوة، وأذنه أن تسترق سراً أو تستكشف خبئاً. وعليه أن يفطم بطنه عن الحرام، ويقنعه بالطيب الميسور. ثم عليه أن يصرف أوقاته في مرضاة الله، وإيثار ما لديه من ثواب، فلا تستخفه نزوات العيش ومتعه الخادعة.

فإن فعل ذلك عن شعور بأن الله يرقبه، ونفور من اقتراف تفريط في جنب الله فقد استحيا من الله حق الحياء.

والحياء بهذا الشمول هو الدين كله، فإذا أطلق على طائفة من الأعمال الجميلة فهو جزء من الإيمان وأثرٌ له.

قال رسول الله ﷺ: و«الإيمان بضع وسبعون[2] شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[3].

(١) الترمذي. (٢) وفي رواية: بضع وستون. (٣) البخاري.

إن الإنسان في حضرة الرجال الذين يجلهم ويحرص على استرضائهم يضبط سلوكه ضبطاً محكماً، فيتكلم بقدر، ويتصرف بحذر. والمسلم الذي يعرف من تعاليم دينه أنه لا يغيب عن الله أبداً، لأنه ماثل في حضرته ليلاً ونهاراً، ينبغي أن يكون تهيبه لجلال الله أعظم، وتأدبه بشرائعه أحكم... وذلك معنى الأثر: «استحي من الله كما تستحي من أولي الهيبة في قومك».

إن اهتزاز الإنسان وتمعر وجهه في بعض المواقف دليل سمو كامن، وطبع كريم، و«الحياء خير كله»[1].

أما إذا سقطت صبغة الحياء عن الوجه، كما تسقط القشرة الخضراء عن العود الغض، فقد آذنت الحياة الفاضلة بالضمور، وتهيأ الحطام الباقي أن يكون حطباً للنار.. وذلك الذي يقال له: «إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت».

* * *

(١) مسلم.

الإخـــاءُ

ليست هناك دواع معقولة تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتاً متناكرين. بل إن الدواعي القائمة على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على البعض. وتمهد لهم مجتمعاً متكافلاً تسوده المحبة. ويمتد به الأمان على ظهر الأرض. والله عزّ وجلّ رد أنساب الناس وأجناسهم إلى أبوين اثنين. ليجعل من هذه الرحم الماسة ملتقى تتشابك عنده الصلات وتستوثق.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(1).

فالتعارف ـ لا التنافر ـ أساس العلائق بين البشر، وقد تطرأ عوائق تمنع هذا التعارف الواجب من المضي في مجراه، وإمداد الحياة بآثاره الصالحة. وفي زحام البشر على موارد الرزق، وفي اختلافهم على فهم الحق وتحديد الخير قد يثور نزاع؛ ويقع صدام، بَيْدَ أن هذه الأحداث السيئة لا ينبغي أن تنسي الحكمة المنشودة، من خلق الناس وتعمير الأرض بجهودهم المتناسقة.

وكل رابطة توطد هذا التعارف، وتزيح من طريقه العوائق، فهي رابطة يجب تدعيمها، والانتفاع بخصائصها، وليس الإسلام رابطة تجمع بين عدد قل أو كثر من الناس فحسب. ولكنه جملة الحقائق التي تقرر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم، ثم بين الناس أجمعين.

---

(1) الحجرات: ١٣.

ومن ثم فأصحاب الإسلام وحملة رسالته يجب أن يستشعروا جلال العقيدة التي شرح الله بها صدورهم، وجمع عليها أمرهم، وأن يولوا التعارف عليها ما هو جدير به من عناية وإعزاز. إنه تعارف يجدد ما دَرَس من قرابة مشتركة بين الخلق، ويؤكد الأبوة المادية المنتهية إلى آدم بأبوة روحية ترجع إلى تعاليم الأديان الملخصة في رسالة الإسلام، وبذلك يصير الدين الخالص أساس أخوة وثيقة العرى، تؤلف بين أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وتجعل منهم، على اختلاف الأمكنة والأزمنة، وحدة راسخة الدعامة سامقة البناء، لا تنال منها العواصف الهوج.

وهذه الأخوة هي روح الإيمان الحي، ولباب المشاعر الرقيقة التي يكنها المسلم لإخوانه، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة، أو روح واحد حل في أجسام متعددة.

* * *

إن الأثرة الغالبة آفة الإنسان وغول فضائله. إذا سيطرت نَزْعَتُها على امرىء محقت خيره ونمت شره، وحصرته في نطاق ضيق خسيس لا يعرف فيه إلا شخصه؛ ولا يهتاج بالفرح أو الحزن إلا لما يمسه من خير أو شر. أما الدنيا العريضة، والألوف المؤلفة من البشر، فهو لا يعرفهم إلا في حدود ما يصل إليه عن طريقهم ليحقق آماله أو يثير مخاوفه.

وقد حارب الإسلام هذه الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة، وأفهم الإنسان أن الحياة ليست له وحده. وأنها لا تصلح به وحده فليعلم أن هناك أناساً مثله، إن ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده، وتَذَكُّرُ ذلك يخلع المرء من أثرته الصغيرة، ويحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه. فلا يتزيد ولا يفتات.

من حق أخيك عليك أن تكره مضرته، وأن تبادر إلى دفعها، فإن مَسَّهُ ما يتأذى به شاركته الألم، وأحسست معه بالحزن. أما أن تكون ميت العاطفة قليل الاكتراث، لأن المصيبة وقعت بعيداً عنك فالأمر لا يعنيك، فهذا تصرف لئيم، وهو مبتوت الصلة بمشاعر الأخوة الغامرة التي تمزج بين نفوس المسلمين فتجعل

الرجل يتأوه للألم ينزل بأخيه. مصداق قول رسول الله ﷺ:

«مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[(١)].

والتألم الحق هو الذي يدفعك دفعاً إلى كشف ضوائق إخوانك، فلا تهدأ حتى تزول غمتها وتُدْبِرَ ظلمتها. فإذا نجحت في ذلك استنار وجهك واستراح ضميرك.

قال رسول الله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[(٢)].

من علائم الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك، وأن تهش لوصوله إليه كما تبتهج بالنفع يصل إليك أنت. فإذا اجتهدت في تحقيق هذا النفع فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة.

عن ابن عباس أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان أراك مكتئباً حزيناً. قال: نعم يا ابن عم رسول الله. لفلان عليّ حق ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه!!.

قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ قال: إن أحببت. قال: فانتعل ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكني سمعت صاحب هذا القبر، والعهد به قريب ـ ودمعت عيناه ـ يقول: من مشى في حاجة أخيه، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين»[(٣)]!! وفي رواية: «كل خندق أبعد مما بين الخافقين».

وهذا الحديث يصور إعزاز الإسلام لعلائق الإخاء الجميل، وتقديره

---

(١) البخاري. (٢) البخاري ومسلم. (٣) البيهقي.

العالي لضروب الخدمات العامة، التي يحتاج إليها المجتمع لإرساء أركانه وصيانة بنيانه.

لقد آثر ابن عباس أن يدع اعتكافه. والاعتكاف عبادة محضة رفيعة الدرجة عند الله لأنها استغراق في الصلاة والصيام والذكر، ثم هو في مسجد رسول الله، حيث يضاعف الأجر ألف مرة فوق المساجد الأخرى.

ومع ذلك فإن فقه ابن عباس في الإسلام جعله يدع ذلك ليقدِّم خدمة إلى مسلم يطلب العون: هكذا تعلَّم من رسول الله ﷺ.

* * *

إن أعباء الدنيا جسام، والمتاعب تنزل بالناس كما يهطل المطر فيغمر الخصب والجدب. والإنسان وحده أضعف من أن يقف طويلاً تجاه هذه الشدائد. ولئن وقف إنه لباذل من الجهد ما كان في غنى عنه لو أن إخوانه هُرعوا لنجدته وظاهروه في إنجاح قصده؛ وقد قيل: «المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه».

ومن حق الأخوة أن يشعر المسلم بأن إخوانه ظهير له في السرَّاء والضرَّاء وأن قوته لا تتحرك في الحياة وحدها. بل إن قوى المؤمنين تساندها وتشد أزرها.

وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(١).

ومن ثَمَّ كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة، لا نعمة التجانس الروحي فحسب، بل نعمة التعاون المادي كذلك.

وقد كرر الله عزّ وجلّ ذكر هذه النعمة مرة ومرة في آية واحدة: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾(٢).

وأخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين، لا تناصر العصبيات

(١) البخاري.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

العمياء، بل تناصر المؤمنين المصلحين لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع المعتدي وإجارة المهضوم، فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده في معترك، بل لا بد من الوقوف بجانبه على أي حال، لإرشاده إن ضل، وحجزه إن تطاول، والدفاع عنه إن هوجم، والقتال معه إذا استبيح. . وذلك معنى التناصر الذي فرضه الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قال: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تحجزه عن ظلمه فذلك نصره»[1].

إن خذلان المسلم شيء عظيم، وهو ـ إن حدث ـ ذريعة خذلان المسلمين جميعاً، إذ سيقضي على خلال الإباء والشهامة بينهم، وسيخنع المظلوم طوعاً أو كرهاً لما وقع به من ضيم. . . ثم ينزوي بعيداً وتتقطع عرى الأخوة بينه وبين من خذلوه.

وقد هان المسلمون أفراداً، وهانوا أمماً يوم وَهَتْ أواصر الأخوة بينهم ونظر أحدهم إلى الآخر نظرة استغراب وتنكر، وأصبح الأخ يُنْتَقَصُ أمام أخيه فيهز كتفيه ويمضي لشأنه، كأن الأمر لا يعنيه!.

إن هذا التخاذل جر على المسلمين الذلة والعار، وقد حاربه الإسلام حرباً شعواء، ولعن من يقبعون في ظلاله الداكنة الزرية.

قال رسول الله: «لا يقفن أحدكم موقفاً يُضرب فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه»[2].

فإذا رأيت إساءة نزلت بأخيك أو مهانة وقعت عليه، فَأَرِهِ من نفسك الاستعداد لمظاهرته، والسير معه حتى ينال بك الحق ويرد الظلم.

روي عن النبي ﷺ: «من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام»[3].

وهذا الواجب العظيم يزداد تأكيداً إذا كنت ذا جاه في المجتمع أو

(١) البخاري. (٢) الطبراني. (٣) الأصبهاني.

صاحب منصب تَحُفُّهُ الرغبة والرهبة. . إن للجاه زكاة تؤتى كما تؤتى زكاة المال، فإذا رزقك الله سيادة في الأرض أو تمكيناً بين الناس فليس ذلك لتنتفخ بعد انكماش، أو تزدهي بعد تواضع. إنما يسر الله لك ذلك ليربط بعنقك حاجات لا تقضى إلا عن طريقك، فإن أنت سهلتها قمت بالحق المفروض، وأحرزت الثواب الموعود، وإلا فقد جحدت النعمة وعرضتها للزوال:

روي عن رسول الله: «إن لله عند أقوام نعماً أقرها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين، ما لم يملوهم، فإذا ملوهم نقلها إلى غيرهم»(١).

واستخدام المرء جاهه لنفع الناس ومنع أذاهم ينبغي أن يتم في حدود الإخلاص والنزاهة. فإن فعل أحد ذلك لقاء هدية ينتظرها فَقَدَ أجره عند الله، وتَأَكَّلَ بعمله السحت.

قال رسول الله: «من شفع شفاعة لأحد، فأهدى له هدية عليها، فقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر»(٢).

* * *

وهناك رذائل حاربها الإسلام لأنها تناقض آداب الأخوة وشرائطها.

إن القاعدة التي تسوى بها الصفوف تسوية، ترد المتقدم إلى مكانه، وتقدم المتأخر عن أقرانه، هي الأخوة. فإذا نشب نزاع أو حدث هرج ومرج طبقت قوانين الإخاء على الكافة ونفذ حكمها.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ. وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٣).

وقد حذر رسول الله من هذه الرذائل في حديثه الجليل، وهي رذائل تبدو للنظر القاصر تافهة الخطر، غير أنها لمن تدبر عواقبها تصدع القلوب وتجفف عواطف الود منها:

قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث. ولا تجسسوا، ولا

(١) الطبراني. (٢) أبو داود. (٣) الحجرات: ١٠.

تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى... المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: ماله ودمه وعرضه.... إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.. التقوى ها هنا. التقوى هاهنا. التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ـ ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض،وكونوا عباد الله إخواناً... ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»[1].

في المجتمع المتحاب بروح الله الملتقي على شعائر الإسلام، يقوم إخاء العقيدة مقام إخاء النسب، وربما رَبَت رابطة الإيمان على رابطة الدم.

والحق أن أواصر الأخوة في الله هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت رايته، وعليها اعتمد رسول الله في تأسيس أمة صابرت هجمات الوثنية الحاقدة وسائر الخصوم المتربصين، ثم خرجت بعد صراع طويل وهي رفيعة العماد وطيدة الأركان، على حين ذاب أعداؤها وهلكوا.

إن الأمور تذكر بأضدادها، وفي عصرنا هذا يذكرنا تجمع اليهود حول باطلهم وتطلعهم إلى إقامة مُلك لهم، ومجيئهم من المشرق والمغرب نافرين إلى الأرض المقدسة، تاركين أوطانهم الأولى وما ضمت من ثروات وذكريات، يذكرنا هذا الانبعاث عن عقيدة باطلة بالانبعاث الأغر الذي وقع من أربعة عشر قرناً، حين يَمَّم المسلمون من كل فج شطر «يثرب» وهاجروا من مواطنهم الأولى إلى الوطن الذي اختاروه ليقيموا فيه أول دولة للإسلام...

كانت المدينة التي احتضنت الإسلام ومجدت كلمته تقيم العلاقات بين القاطنين والوافدين على التباذل في ذات الله، والإيثار عن سماحة رائعة، والمساواة بين الأنساب والأجناس، وتبادل الاحترام والحب، وإشاعة الفضل وتقديس الحق، وإسداء المعروف عن رغبة فيه لا عن تكليف به:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، يُحِبُّونَ مَنْ

---

(١) مسلم.

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(١).

وهذه علائم الإخاء الصحيح، إخاء العقيدة الخالصة لوجه الله، لا إخاء المنافع الزائلة، ولا إخاء الغايات الدنيا.

وكانت تعاليم الإسلام ترعى هذا الإخاء حتى لا يعدو عليه ما يكدره، فلا يجوز لمسلم أن يسبب لأخيه قلقاً، أو يثير في نفسه فزعاً.

قال رسول الله: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً»(٢). وروي عن رسول الله: «من نظر إلى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة»(٣).

وما يؤدي إلى إيذاء المسلم أو يقرب من العدوان عليه يعتبر جريمة غليظة، فكيف بإيذائه والاعتداء عليه؟.

قال رسول الله ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه»(٤).

وبهذه الوصايا كانت الأخوة تأميناً شاملاً، بَثَّ في أكناف المجتمع السلام والطمأنينة...

وشد من أزر هذه الأخوة تحريم الإسلام للاستكبار والافتخار. فإن الإخوة الشاعرين بالشركة في أب واحد والموالاة على دين واحد لن تجعلهم حظوظ الدنيا أعداء.. ولا مكان لافتخار باطل بين قوم يعلمون أن الكرامة للتقوى! وأن التقوى في القلوب، وأن القلوب إلى الله، ما يدري سرها أحد!.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»(٥).

ورهب الإسلام من يلعب بهم الشيطان ويغريهم بالتطاول على إخوانهم طلباً للاستعلاء في الأرض، فبين أن هؤلاء المتطاولين سوف يتضاءلون يوم

---

(١) الحشر: ٩. (٢) أبو داود. (٣) الطبراني.
(٤) مسلم. (٥) أبو داود.

القيامة، وعلى قدر ما انتفخوا ينكمشون حتى يصيروا هباء ينضغط في مواطىء النعال:

وفي الحديث: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان»[1].

ومما يمزق أواصر الأخوة التهكم والازدراء والسخرية من الآخرين. إن هذه الأخلاق تنشأ عن جهالة سادرة، وغفلة شائنة؛ فإن من حق الضعيف أن يُحْمَل لا أن ينال منه، ومن حق الحائر أن يرشد لا أن يضحك عليه. وإذا وجدت بشخص عاهة أو عرضت له سيئة، فآخر ما يتوقع من «المسلم» أن يجعل ذلك مثار تندره واستهزائه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ... ﴾[2].

وعن الحسن: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة. فيقال له: هلم. فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه. ثم يفتح له باب آخر. فيقال: هلم هلم. فيجيء بكربه وغمه فإذا جاءه أغلق دونه.. فما يزال كذلك حتى إن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة. فيقال له: هلم.. فما يأتيه من الإياس»[3].

ذلك جزاء الساخرين، وهي عقوبة من جنس الذنب المقترف، كأنها توبيخ للمستهزئين وتذكير لهم بما كانوا يعملون.

* * *

ومما اتخذه الإسلام لصيانة الأخوة العامة، ومحو الفروق المصطنعة، توكيد التكافؤ في الدم والتساوي في الحق وإشعار العامة والخاصة بأن التفاخر بالأنساب باطل، لأن أبوة آدم لفَّت أعقابه كلهم في شعار فذ، فما يفضل أحد صنوه إلا بميزة يحرزها لنفسه بكده وجده، فمن لا امتياز له بعمل جليل لم ينفعه أسلافه ولو كانوا ملوك الآخرة.

---

(١) الترمذي. (٢) الحجرات: ١١. (٣) البيهقي.

عن أبي هريرة: قال رسول الله: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا إني جعلت نسباً، وجعلتم نسباً. فجعلت أكرمكم أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم!!»[1].

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[2].

والغريب أن عادة العرب في الاستعلاء بالنسب والازدهاء بالأبوة غلبت في مجتمعهم تعاليم الإسلام، فكان ذلك من أسباب الفتوق الخطيرة في ماضينا وحاضرنا. . .

ومن وسائل الإسلام كذلك في المحافظة على الإخاء بين بنيه مهما اختلفت أوطانهم وعشائرهم، إماتته للنزعات العنصرية والعصبيات الجنسية.

إنه من الطبيعي أن يحب المرء وطنه وقومه. لكن لا يجوز أبداً أن يكون ذلك سبباً في نسيان المرء لربه وخلقه ومثله:

قال رسول الله: «خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم»[3].
وسئل: ما العصبية؟ قال: «أن تعين قومك على الظلم»[4].

إن الأخوة في الإسلام تعني الإخلاص له، والسير على سبيله، والعمل بأحكامه وتغليب روحه على الصِّلات الخاصة والعامة، واستفتاءه فيما يعرض من مشكلات، وغض الطرف عما عدا ذلك من صيحات ودعوات.

* * *

(١) البيهقي. (٢) المؤمنين: ١٠١ ـ ١٠٣. (٣) أبو داود.
(٤) أبو داود.

الاتِّحــادُ

تقوم شرائع الإسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءاً لا ينفصم من كيان الأمة، وعضواً موصولاً بجسمها لا ينفك عنها، فهو ـ طوعاً أو كرهاً ـ يأخذ نصيبه مما يتوزع على الجسم كله من غذاء ونمو وشعور.

وقد جاء الخطاب الإلهي مقراً هذا الوضع، فلم يتجه للفرد وحده بالأمر والنهي، وإنما تناول الجماعة كلها بالتأديب والإرشاد، ثم من الدرس الذي يلقى على الجميع يستمع الفرد وينتصح. وهكذا اطَّرد سياق التشريع في الكتاب والسنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حق جِهَادِهِ ﴾[1].

فإذا وقف المسلم بين يدي الله ليناجيه ويتضرع إليه لم تجر العبادة على لسانه كعبد منفصل عن إخوانه، بل كطرف من مجموع متسق مرتبط يقول:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لا إياك أعبد وإياك أستعين!.

ثم يسأل الله من خيره وهداه فلا يختص نفسه بالدعاء، بل يطلب رحمة الله له ولغيره، فيقول: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

إن الله عزّ وجلّ لم يخلق الناس لينقسموا ويختلفوا.. لقد شرع لهم ديناً

(١) الحج: ٧٧، ٧٨.

واحداً وأرسل أنبياءه تترى ليقودوا الناس كافة في طريق واحد، وحرم عليهم من الأزل أن يصدعوا الدين، وأن يتفرقوا حوله عِزِين.

بيد أن الشهوات المتنزية تناست هذه الوصية الكريمة، وتنكرت للتراث الإلهي العظيم، فانقسم الناس أحزاباً، وصار كل حزب يكيد للآخر ويتربص به.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴾[1].

وَبَيَّنَ اللَّهُ عزّ وجلّ أن اتباع الهوى ومتابعة البغي هو سر هذا الافتراق الواسع.

والحق أن العلم عندما ينفصل عن الخلق، ويفارقه الإخلاص يمسي وبالاً على أهله وعلى الناس.. وقد كان الناس قبل الدين يضلهم الجهل في شعابه الحائرة. فلما جاء الدين واستبد به دهاقينه، وتاجروا بعلومه لأنفسهم ومطامعهم تاهت جماهير العامة في سبل جائرة!.

وقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع. وقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي منافق عليم اللسان»[2].

أجل، إن القلب الخرب يجعل من العلم سلاحاً للفساد. وقد تأذى العالم في القديم والحديث من هذا العلم المدمر. ونبأنا الله عزّ وجلّ أن العلماء بألسنتهم لا بأفئدتهم هم الذين مزقوا شمل البشر:

قال جلّ شأنه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾... ثم قال: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[3].

---

(١) المؤمنون: ٥١ - ٥٤. (٢) البزار. (٣) الشورى: ١٣، ١٤.

قال: ﴿ ... وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[1].

فانظر إلى ضراوة العلم عندما يفقد الإخلاص لله والرفق بالعباد، كيف يثير الفرقة ويقطع ما أمر الله به أن يوصل.

إن اختلاف الأفهام واشتجار الآراء ليس بمستغرب في الحياة، ولكن ليس هذا سبب التقاطع والشقاق. يعود سبب الشقاق إلى انضمام عوامل أخرى، تستغل تباين الأنظار والأفكار للتنفيس عن أهواء باطنة.

ومن ثمَّ ينقلب البحث عن الحقيقة إلى ضرب من العناد لا صلة له بالعلم البتة.

ولو تجردت النيات للبحث عن الحقيقة، وأقبل رُوّادها وهم بعداء عن طلب الغلب، والسمعة، والرياسة، والثراء؛ لصفيت المنازعات التي ملأت التاريخ بالأكدار والمآسي.

وقد لحظنا أن هناك توافه ضَخُمَ الخلاف فيها وامتد، لأن هذا الخلاف اقترن ابتداءً بمنافع سياسية. على حين انكمش الخلاف في مسائل هامة، وتركت وجهات النظر ترسو حيث شاءت، لأن نتائج هذا الخلاف نظرية بحتة!.

ولما كان هذا الاختلاف المريب مفسداً لدين الله ودنيا الناس اعتبره الإسلام انفصالاً عنه وكفراً:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ. ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2].

وحذر الله المسلمين من الخلاف في الدين والتفرق في فهمه شيعاً متناحرة متلاعنة كما فعل الأولون:

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ،

---

(١) البقرة: ٢١٣. (٢) الأنعام: ١٥٩.

وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ. يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ، فأما الذين اسودّت وجوهُهُم: أكفرتُم بعد إيمانكُم؟ فذوقوا العذاب بما كُنتُم تكفُرُون. وأمّا الذين ابيضّتْ وجوهُهُمْ ففي رحمةِ اللهِ هُمْ فيها خالدُون﴾[1].

إن ائتلاف القلوب والمشاعر، واتحاد الغايات والمناهج، من أوضح تعاليم الإسلام وألزم خلال المسلمين المخلصين.. ولا ريب أن توحيد الصفوف واجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة، ودوام دولتها، ونجاح رسالتها ولئن كانت كلمة التوحيد باب الإسلام، إن توحيد الكلمة سر البقاء فيه، والإبقاء عليه، والضمان الأول للقاء الله بوجه مشرق وصفحة نقية.

* * *

إن العمل الواحد في حقيقته وصورته يختلف أجره اختلافاً كبيراً حين يؤديه الإنسان وحيداً، وحين يؤديه مع آخرين.

إن ركعتي الفجر أو ركعات الظهر هي هي لم تزد شيئاً عندما يُؤْثِرُ المرء أداءها في جماعة عن أدائها في عزلة. ومع ذلك فقد ضعَّف الإسلام أجرها بضعاً وعشرين مرة أو يزيد عندما يقف الإنسان مع غيره بين يدي الله.

وهذا إغراء شديد بالانضواء إلى الجماعة ونبذ العزلة، ودفعٌ بالإنسان إلى الانسلاخ من وحدته، والاندماج في أمته؛ إن الإسلام يكره للمسلم أن ينحصر في نطاق نفسه وأن يستوحش في تفكيره وإحساسه، وأن ينأى بمصلحته عن مصلحة الجماعة وحياتها:

وفي الحديث: «.. ثلاث لا يغل عليهن قلب امرىء مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين. ولزوم جماعتهم، فإن دعاءهم يحيط من ورائهم»[2].

ولكي يمتزج المسلم بالمجتمع الذي يحيا فيه شَرَعَ الله الجماعة للصلوات اليومية ورغب في حضورها وتكثير الخُطا إليها. ثم ألزم أهل القرية الصغيرة أو الحي الآهل أن يلتقوا كل أسبوع لصلاة الجمعة. ثم دعا إلى اجتماع أكبر في

(١) آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٧. (٢) البزار.

صلاة العيد، جعل مكانه الأرض الفضاء خارج البلد وأمر الرجال والنساء - حتى الحُيَّض - بإتيانه، إتماماً للنفع وزيادة في الخير.

ثم أذن إلى حشد أضخم يضم الشتات من المشرق إلى المغرب، ففرض الحج، وجعل له مكاناً معلوماً وزماناً معلوماً، حتى يجعل اللقاء بين أجناس المسلمين أمراً محتوماً.

وكان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال والفرقة وكان في حله وترحاله يوصي بالتجمع والاتحاد.

عن سعيد بن المسيب: قال رسول الله ﷺ: «الشيطان يهم بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم»[1].

وقد رأى في سفره أن القافلة عندما تستريح يتفرق أهلها هنا وهناك، كأنما ليس بينهم رباط، فكره هذا المنظر ونفر منه.

عن أبي ثعلبة: كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية فقال النبي ﷺ: «إن تفرقكم هذا من الشيطان. فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض. حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لَعَمَّهُمْ»[2].

وذلك أثر امتزاج المشاعر، وتبادل الحب وانسجام الصفوف.

* * *

إن الناس إن لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل، وإذا لم توحدهم عبادة الرحمن مزقتهم عبادة الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعيم الآخرة تخاصموا على متاع الدنيا. . ولذلك كان التطاحن المر من خصائص الجاهلية المظلمة، وديدن من لا إيمان لهم.

قال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

يعني أن هذا العراك الدامي شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم أحزاباً متناحرة.

---

(١) مالك. (٢) أبو داود. (٣) الترمذي.

وقد لان الإسلام لاختلاف العقول في الفهم، ومنح المخطىء أجراً والمصيب أجرين. ثم وسع الجميع في كنفه الرحب، ما داموا مخلصين في طلب الحق، حرصاً على معرفته والعمل به.

قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»[1].

فأنت ترى رحمة الله ترتبط بنتائج الفكر قدر ارتباطها بصلاح القصد. فلِمَ يضيق ذرع البشر بما وسعه دين الله؟ ولِمَ القسوة بينهم والجفاء؟

عندما أمر رسول الله المجاهدين الخارجين من المدينة الا يُصَلُّوا العصر إلا في «بني قريظة» تأول بعضهم الأمر على أن ذلك ما لم يضع الوقت وصلَّى في الطريق، وأمضى الآخرون النص على ظاهره فصلوا العصر في العتمة. وقبل الرسول فهم الفريقين، ثم صفهم بإزاء العدو جيشاً واحداً.

ذلك روح الإسلام في علاج الخلاف العلمي، وذلك ما لا محيص عنه عندما تستقيم الضمائر والعقول.. أما يوم يجعل الخلاف مصيدة للدنيا ينصبها العناد والبغض فقد ضاعت الدنيا وضاع قبلها الدين.

قيل لأحد الشيوخ: أدرك المصلين في المسجد. يوشك أن يتقاتلوا، قال: علام؟ قيل: بعضهم يريد أن يصلي التراويح ثماني ركعات، والبعض يريد صلاتها عشرين. قال: ثم ماذا؟ قيل: هم في انتظار فتواك.

قال: الفتوى أن يغلق المسجد فلا تصلى فيه تراويح ألبتة، لأنها لا تعدو أن تكون نافلة ووحدة المسلمين فريضة، ولا قامت نافلة تهدم الفريضة!! إن الإخلاص لله والنصح للدين وللعامة، أبعد ما يكون عن الشغب الذي يحدث في أمثال هذه الشؤون.

وتمشياً مع تعاليم الإسلام في وقاية الأمة غوائل الشقاق، أفتى العلماء أن تغيير المنكر لا يلزم إذا كان سيؤدي إلى مفسدة أعظم، فإن بقاء المنكر ضرر

---

(١) البخاري.

ووقوع هذه المفسدة ضرر أبلغ، فيرتكب أخف الضررين!! ألا ترى الطبيب لا يقدم على جراحة بالجسم إلا إذا رأى الجسم يطيق إجراءها؟ فإذا رأى فيها خطراً على الحياة توقف، ولو بقيت العلة.

وكان رسول الله يبايع الأنصار «على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره. وعلى أثرة علينا. . .»[1].

يعني أن المرء الصالح ينبغي ألا يكترث لفقدان حظه من الدنيا، فإذا أهمل في إسناد منصب، أو بخس في تقدير راتب لم يملأ الآفاق صياحاً وشغباً، فإن الغضب للدنيا على هذا النحو الشائن شيمة المنافقين الذين قال الله فيهم:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[2].

ولو غلغلت النظر في كثير من الانقسامات لرأيت حب الدنيا، والأثرة العمياء تكمن وراء هذه الحزازات. . . والاتحاد قوة. . . وليس ذلك في شؤون الناس فقط، إنه قانون من قوانين الكون. فالخيط الواهي إذا انضم إليه مثله أضحى حبلاً متيناً يجر الأثقال. وهذا العالم الكبير ما هو إلا جملة ذرات متحدة!

وقد شرح حكيم لأولاده هذا المعنى عند وفاته ليلقنهم درساً في الاتحاد، قدم إليهم حزمة من العصي قد اجتمعت عيدانها، فعجزوا عن كسرها، فلما انفك الرباط وتفرقت الأعواد كسرت واحداً واحداً.

تأبى الرماح إذا اجتمعنَ تكسراً وإذا افترقنَ تكسرت آحاداً

إن الشقاق يضعف الأمم القوية، ويميت الأمم الضعيفة. . . ولذلك جعل الله أول عظة للمسلمين ـ بعدما انتصروا في معركة «بدر» ـ أن يوحدوا صفوفهم، ويجمعوا أمرهم.

لَمّا تطلعت النفوس للغنائم، تشتهي حظها وتتنافس على اقتسامها، نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ؟ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) مسلم. (٢) التوبة: ٥٨.

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

ثم أفهمهم أن الاتحاد في العمل لله هو طريق النصر المحقق والقوة المرهوبة:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2].

وحذرهم من أن يسلكوا في التكالب على الدنيا، والحرص على غثائها مسلك الذين لا يرجون عند الله ثواباً، فقال: ﴿.. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3].

ثم تلقى المسلمون في «أحد» لطمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلاً، وردتهم إلى المدينة وهم يعانون الأمرّين من خزي الهزيمة وشماتة الكافرين.

ولم ذلك؟ مع أن إيمانهم بالله ودفاعهم عن الحق يرشحانهم للفوز المبين. ذلك لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ، إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[4].

ولو عقل المسلمون أحوالهم في هذه المرحلة العصيبة من تاريخهم، لأحسوا بأن ما لحقهم من عار يعود إلى انحلال عراهم وتفرق هواهم.

إن الهجوم الصليبي المعاصر، والهجوم الصهيوني الذي جاء في أذياله.. لم ينجحا في ضعضعة الدولة الإسلامية وانتهاب خيرها، إلا عقب ما مهدا لذلك بتقسيم المسلمين شيعاً منحلة واهية، ودويلات متدابرة، يثور بينها النزاع وتتسع شقته لغير سبب... وسياسة الغرب في احتلال الشرق وتسخيره تقوم على قاعدة «فَرِّقْ تَسُدْ».

---

(١) الأنفال: ١. (٢) الأنفال: ٤٦. (٣) الأنفال: ٤٧.

(٤) آل عمران: ١٥٢.

إن الإسلام حريص على سلامة أمته وحفظ كيانها، وهو لذلك يطفىء بقوة بوادر الخلاف، ويهيب بالأفراد كافة أن يتكاتفوا على إخراج الأمة من ورطات الشقاق ومصايره السود. «يد الله على الجماعة ومن شذَّ شذَّ في النار».

وأعداء الإسلام يودون أن يضعوا أيديهم على شخص واحد ليكون طرفاً ناتئاً يستمكنون منه ويجذبون الأمة كلها عن طريقه! فلا جرم أنه يستأصل هذا النتوء لينجي الجماعة كلها من أخطار بقائه، ولذلك يقول رسول الله: «ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً مَنْ كان»[1].

والخروج على إجماع الأمة ـ وهذا عقابه في الدنيا ـ يدخل بعدئذ في حدود قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾[2].

ولا يَسْتَغْرِبَنَّ أحد هذا الوعيد، فإن جرثومة الشقاق لا تولد حتى يولد معها كل ما يهدد عاقبة الأمة بالانهيار.

وفي الناس طبائع سيئة قد تموت وحدها في ظل الوحدة الكاملة. فإذا نجمت بوادر الفرقة رأيت المتربصين والمتهزين يلتفون حول أول ثائر، ظاهر أمرهم التجمع حول مبدأ، وباطنه دون ذلك:

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»[3].

وفي حديث آخر: «. . . من خرج على أمتي يضرب برَّها وفاجرهَا، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي بعهد ذي عهدها، فليس مني ولست منه»[4].

* * *

من حق الفاضل أن يقدم، ومن حق ذي الكفاية أن تستفيد الأمة منه. على أن الرجل مهما أوتي من فضل وكفاية فلن ينفع نفسه، ولن تنتفع به أمته

(١) مسلم. (٢) النساء: ١١٥. (٣) البخاري.
(٤) مسلم.

إذا كان مريضاً بحب الرياسة. فطالب الزعامة يفوته توفيق الله، والمرء الذي يفوته توفيق الله مشؤوم ولو كان عبقرياً.

ومن ثَمَّ قرر الإسلام حرمان طلّاب الرياسة من المناصب التي يعشقونها:

عن أبي موسى: «دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمِّرْنا على بعض ما ولاك الله تعالى، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، أو أحداً حرص عليه»(١).

والغريب أن الفتوق الشنعاء التي انهدت لها أركان الإسلام وأمته بدأت وتكررت، وما زالت تبدأ وتتكرر، من الأفراد والأسر المصابة بحب الرياسة.

ولو كان هيامها بالملك والسيادة نتيجة تَفَوُّقٍ هائل في المزايا والملكات ما أعطاها ذلك حق التقدم كما قال رسول الله ﷺ. فكيف وهؤلاء المتملكون من حثالات الخلق وأدنئهم خُلُقاً؟؟.

وصفهم المتنبي قديماً فقال:

سادات كل أناس من نفوسهمو   وسادة المسلمين الأعبد البهم

فليحذر كل مسلم هذا الانحراف أين وجده، يضع في وحدة أمته لبنة.

* * *

---

(١) البخاري.

اختيار الأصدقاء

للصداقات الخاصة أثر عميق في توجيه النفس والعقل. ولها نتائج هامة فيما يصيب الجماعة كلها من تقدم أو تأخر، ومن قلق أو اطمئنان.

وقد عني الإسلام بهذه الصلات التي تربطك بأشخاص يؤثِّرون فيك ويتأثرون بك، ويقتربون من حياتك اقترابا خطيراً لأمد طويل.

إن هذه الصلات إن بدأت ونمت نبيلة خالصة تقبَّلها الله وباركها. وإن كانت رخيصة مهينة ردها في وجوه أصحابها.

﴿ الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ. يَا عِبَادِ: لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[1].

إن الإسلام - كما علمت - دين تجمع وإلفة. ونزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليمه. وهو لم يقم على الاستيحاش، ولا دعا أبناءه إلى العزلة العامة، والفرار من تكاليف الحياة. ولا رسم رسالة المسلم في الأرض على أنها انقطاع في دير، أو عبادة في صومعة. كلا، كلا، فإن الدرجات العالية لم يعدها الله عزّ وجلّ لأمثال أولئك المنكمشين الضعاف:

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[2].

لِمَنْ شرعت الجماعات؟ وعلى من فرضت الجمعة؟ ومن الذي يحمل أعباء

(١) الزخرف: ٦٧، ٦٨.

(٢) الترمذي.

الجهاد ويعين في أزماته الكالحة؟ إن ذلك كله يستلزم أمة توثقت فيها العلاقات الخاصة والعامة إلى حد بعيد.

ولذلك أجاب ابن عباس عندما سئل مراراً عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولكنه لا يحضر الجمعة ولا الجماعات. فقال: خبروه أنه من أهل النار[١].

ذلك أن الإسلام شديد الحرص على أن تكون شعائره العظمى مثابة يلتقي المسلمون عندها ليتعاونوا على أدائها، ويستوحوا من جوها الطهور عواطف الود المصفى، والإخلاص العميق.

وكلما ضخم العدد الذي ينتظم المسلم مع إخوانه تكاثرت عليه بركات الله.

في الحديث: «... صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده. وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وكلما كثر فهو أحب إلى الله عزّ وجلّ»[٢].

وفي رواية أخرى: «صلاة الرجلين يؤم أحدهما صاحبه أزكى عند الله من صلاة أربعة تترى. وصلاة أربعة أزكى عند الله من صلاة ثمانية تترى. وصلاة ثمانية يؤمهم أحدهم أزكى عند الله من صلاة مائة تترى»[٣].

وهذه السنن تشير إلى رغبة الإسلام في تكثير سواد المسلمين ورؤيتهم حشوداً متضاعفة؛ لا فرادى منقطعين.

على أن أمر العزلة والاختلاط وما يتبعه من إنشاء الصلات وتكوين الصداقات يخضع لأحكام شتى.

فكل اعتزال عن الأمة يُفَوِّتُ جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يضعف من جانب الدفاع عن الإسلام أمام خصومه.. فهو جريمة ولا يقبل من صاحبه عذر.

---

(١) الترمذي. (٢) أحمد. (٣) الطبراني.

والناس بعدئذ طبائع. منهم الذي يهرع إلى المجامع الحافلة، وسرعان ما يتصل بهذا وذاك. ويستأنس بتصفح الوجوه ومحادثة القريب والبعيد، ومنهم من تزج به في الأحفال المائجة فإذا هو يقيم حول نفسه سوراً، يطل منه على الناس بحذر، ويتوارى خلفه إن قصده قاصده.

كلتا الطبيعتين هداها الإسلام نهجها السوي. فيقال للأول: «خالط الناس، ودينك لا تكلمنَّه».

ويقال للآخر: «المؤمن هَيِّنٌ لَيِّنٌ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ».

على أن الإسلام أوجب اعتزال الفتن. فإذا اضطربت البلاد وتهارش أهلها على الدنيا، وانتقضت عرا الفضائل فإن مقاطعة الفساد لون من استنكاره وذلك في حدود مراتب التغيير التي شرعها الله لخصومة المنكر من تغيير اليد، فاللسان، فالقلب.

أي أن اعتزال الفساد لا يقبل ممن يملك تغييره بلسانه فضلاً عن يده؛ والمقاطعة سلاح استخدم في هذا العصر بحكمة. جربته الأمم المستضعفة مع عدوها القاهر... ومنزلة المقاطعة من أسلحة الكفاح الأخرى هي منزلة الاعتزال من أساليب الإصلاح الكثيرة. أي أنها مهرب العجزة عندما لا يجدون وسيلة غير الفرار بدينهم. فأما عند كثرة الوسائل التي يمكن بها إطفاء الفتن فالاعتزال ـ كما بينا ـ جريمة نكراء.

وعلى ضوء هذا البيان تفهم قول رسول الله وقد سئل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. قيل: ثم من؟ قال: رجل معتزل في شِعْب من الشعاب يعبد ربه»[1].

ثم إن العزلة والاختلاط لا يمكن أن يكونا وصفين دائمين للإنسان. فليقسم المسلم وقته بين الخلوة النافعة والاختلاط الحسن، ليخرج من الحالين بما يصلح شأنه كله.

* * *

وعلى هذا الأساس نتخير الأصحاب، ونرغب في الصداقات أو

(١) البخاري ومسلم.

نزهدها.. وأول شرائط الصحبة الكريمة أن تبرأ من الأغراض، وأن تخلص لوجه الحق، وأن تولد وتكبر في طريق الإيمان والإحسان، وهذا هو معنى الحب لله.

إن الإنسان إذا رسخ في فؤاده اليقين، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه، وأحس بحلاوته في مذاقه أصبح ينظر للأحياء قاطبة على ضوء العقيدة التي تمحض لها. فهو يحب لمبدأ، لا لشهوة، ويكره لمبدأ، لا لحرمان.

وقد تتجمع القطعان على مورد عذب أو كدر، وقد يلتقي الناس على دنيا عارضة أو دائمة، وربما تأسست بينهم علاقات متينة، بيد أن هذا الضرب من التعارف والتوادّ لا يقاس بما ينشأ بين أصحاب المثل العليا من محبة وصفاء، وتعاون وتفان..

ولذلك احتفى الإسلام بمشاعر الصداقة النقية ورغب المؤمنين في إخلاصها لله، وإبقائها لوجهه، وجعل لها من جميل المثوبة ما هي له أهل:

قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزّ وجلّ: المتحابون بجلالي في ظل عرشي، يوم لا ظل إلا ظلي»[1] وعن عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله، فخبرنا: من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها: فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾»[2].

والحب في الله لايزعمه كل أحد، ولا يصدق من كل دعي: فلا بد أن يعرف الإنسان ربه أولاً معرفة صحيحة، ثم يغالي بهذه المعرفة حتى ترجح في نفسه ما عداها، ثم ترقى هذه المعرفة إلى حب الله ذاته، وإيثار العمل له. وعندئذ يصدق على المرء، إذا أحب أو كره، أنه أحب لله وكره لله.

---

(١) أحمد. (٢) أبو داود.

أما أن يعجب المرء بموهبة عظيم أو يستلطف سيرة آخر فيحبه، فذلك لون آخر من الصداقة غير ما نحن بإزائه.

قال رسول الله: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب في الله ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئاً»(١).

ولما كان الحب في الله خاتمة مراحل تسبقه في مراقي الإيمان، وكانت ثمرته لا تبدو إلا عند من أنضجتهم حرارة الإخلاص، كان فيض هذا الحب دليل كمال ونقاء، يستحقان أَجَلّ الجزاء.

قال رسول الله ﷺ: «ما من رجلين تحابا في الله بظهر الغيب إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه»(٢).

* * *

وكلا الأخوين المتحابين في حماية الله وكنفه. روي عن رسول الله ﷺ، عن الله عزّ وجلّ قال: «قد حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي. وقد حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي. وقد حقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي. وقد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجلي»(٣).

وأثر الصديق في صديقه عميق. ومن ثَمَّ كان لزاماً على المرء أن ينتقي إخوانه وأن يبلو حقائقهم حتى يطمئن إلى معدنها.

قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم إلى من يخالل»(٤).

فإن كانوا رجالاً يعينونه على أداء الواجب وحفظ الحقوق ويحجزونه عن السوء واقتراف الحرام، فهم قرناء الخير، الذين يجب أن يستمسك بهم، ويحرص على مودتهم. وإلا فليحذر الانخداع بمن يزينون له طرق الغواية، أو يسترسلون معه في أسباب اللغو واللهو.

---

(١) مسلم. (٢) الطبراني. (٣) أحمد والطبراني.
(٤) أبو داود.

إن الصديق العظيم قد يقود صديقه إلى النجاح في الدنيا والفلاح في الأخرى، أما الصديق الغبي المفتون فهو شـؤم على صاحبه. وكم من غِرٍّ قرَعَ سِنَّ الندم على هذه الصحبة السيئة، لأنها وضعته على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَا، لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسانِ خَذُولاً ﴾[1].

إن الطبع يسرق من الطبع. وما أسرع أن يسير الإنسان في الاتجاه الذي يهواه صاحبه، وللعدوى قانونها الذي يسري في الأخـلاق كما يسـري في الأجسام. بل إن الروح الذي يسود المجلس قد يكون مصدره من شخص قوي، يغمر من حوله بفيض مما يتفجر من باطنه.

وقد شوهد أن عدوى السيئات أشد سرياناً وأقوى فتكاً من عدوى الحسنات. ففي أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى البريء منها. ويندر أن يقع العكس.

وتقديراً لهذه الآثار، وحمايةً للخلق الحسن والعادات الكريمة أمر رسول الله بتَخَيُّر الجليس. فقال: «مثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبكَ منه شيء أصابك من ريحه. ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه»[2].

فإن كانت تلك حال الجليس الذي قد تجتمع به في لقاء عابر، في ساعة يسيرة من ليل أو نهار، فكيف بك مع صاحب العمر الذي يخالطك في السرّاء والـضرّاء؟ إن صداقة الأذكياء الأتقياء قد ترفع إلى القمة. أما صداقة السفهاء البله فهي منزلق سريع إلى الحضيض.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ واللَّهُ وليُّ الْمُتَّقِينَ. هذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3].

---

(١) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩. (٢) أبو داود. (٣) الجاثية: ١٩ ـ ٢٠.

إن الصداقة يجب أن تعتمد على قوة العقائد وسمو الأعمال. وخير من يستديم المرء عشرتهم، ويستبقي للدنيا والآخرة مودتهم، أولئك الذين عناهم الأثر: «من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته، ووجبت أخوته».

وإذا نشأت الصداقة لله فلن تبقى إلا بطاعته، ولن تزكو إلا ببعد الصديقين معاً عن النفاق والفساد؛ فإذا تسربت المعصية إلى سيرة أحدهما أو سيرتهما، تغيرت القلوب وغاض الحب.

وفي الحديث: «... والذي نفسي بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما».

من أجل ذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يجعلون من التواصي بالحق والتعاون على الخير سياجاً يحفظ ما بينهم من ود، ويقربهم من غفران الله ورضوانه.

عن أبي قلابة قال: «التقى رجلان في السوق فقال أحدهما للآخر: تعال نستغفر الله في غفلة الناس، ففعلا. فمات أحدهما، فلقيه الآخر في النوم، فقال: علمتَ أن الله غفر لنا عشية التقينا في السوق»[١].

وعن أنس بن مالك: كان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله قال: تعال نؤمن بربنا ساعة[٢]، فقال ذات يوم لرجل! فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟ فقال النبي: «يرحم الله ابن رواحة. إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة»[٣].

وينبغي أن يتعارف الأصدقاء حتى يكون تواصلهم عن بينة، وأن يذكر أحدهم للآخر ما يكنه له من إعزاز وحب:

قال رسول الله: «إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه»[٤]. وعن

---

(١) ابن أبي الدنيا. (٢) يعني: نذكره. (٣) أحمد والطبراني.
(٤) أحمد.

أنس: كان رجل عند النبي ﷺ، فمر رجل، فقال: يا رسول الله إني أحب هذا. قال: أعلمته؟ قال: لا. قال: فأعلمه، فلحقه، فقال: إني أحبك في الله. فقال. أَحَبَّكَ الذي أحببتني له»[1].

وقال رسول الله: «إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو؛ فإنه أوصل للمودة»[2].

ولا شك أن لتجانس المزاج والتفكير مدخلاً كبيراً في تأسيس الصداقات وتوثيق الأواصر، وقد قيل: «رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك». فقد يلتقي المرء في زحام الحياة بمن يحس سرعة التجاوب معه والانجذاب إليه. وكأنما سبقت المعرفة به من سنين.

وهذا مصداق الحديث: «الأرواح جنود مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[3].

لكن هذه العاطفة يجب أن يحكمها سلطان العقيدة، ونظامها؛ هذا السلطان الذي يستوحيه المؤمن في اتجاهات قلبه كلها، فيجعله يحب في الله من لم يطالع لهم وجهاً، لبعد الشقة أو لسبق الزمن. ويكره كذلك من لم يخالطهم في حضر أو سفر، لا لشيء إلا لأنه يود الأخيار ويكره الأشرار، واتجاهات القلب على هذا النحو الخالص ترفع صاحبها درجات فوق منزلته.

عن أبي ذر: قلت: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم. قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت» .

ومن سنن الإسلام في الصداقة أنّ التزاور يجب أن يكون خالياً من كل غرض، خالصاً لوجه الله.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً. فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها. قال: لا. غير أني أحببته في

(١) أبو داود. (٢) الترمذي. (٣) البخاري.
(٤) الترمذي.

الله تعالى. . . قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[(١)].

إن هذه الخطوات غالية. إنها كخطا المجاهدين في سبيل الله تحظى بأجَلِّ الثواب.

قال رسول الله: «من عاد مريضاً، أو زار أخاً له في الله، ناداه منادٍ: بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً»[(٢)].

وقال: «ما من عبد أتى أخاه يزوره في الله إلا ناداه منادٍ من السماء أن طبت وطابت لك الجنة. وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زار فيَّ وعليَّ قِراه، فلم يرضَ له بثواب دون الجنة»[(٣)].

والمسلم، وإن كان يحب النفع للناس كافة، فهو لنفع أصدقائه أحب، ولما يصلهم من خير أفرح، ولا بأس إن وجد فضلاً أن يذكر منه أصحابه:

﴿ وَلَا تَنْسَوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(٤)].

وقد استحب رسول الله تبادل الهدايا بين الأصدقاء فقال: «تهادَوا فإن الهدية تذهب وحر[(٥)] الصدر»[(٦)].

وعن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»[(٧)].

على أن هذا الأدب العالي إذا خرج به التكلف عن حدوده أصبح مكروهاً، فإن الإسلام قام على محاربة التصنع، وإشاعة البساطة، وكل مسلك ينطوي على الإحراج والمداهنة فالإسلام منه بريء، إنما يهدف الإسلام إلى إحاطة الصداقة بألوان من المجاملة التي تحسن مظهرها بعد أن يطمئن إلى سلامة جوهرها، وأن يجعل منها وسيلة لتيسير الحياة وتخفيف متاعبها «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»[(٨)].

إن الإسلام أباح للشخص أن يأكل من طعام صديقه كما يأكل من طعام

(١) البخاري. (٢) أبو داود. (٣) مسلم.
(٤) البقرة: ٢٣٧. (٥) وحر الصدر: غشه ووسواسه. (٦) الترمذي.
(٧) البزار. (٨) الحاكم.

والديه وإخوته والأقربين منه: ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ﴾ إلى أن قال: ﴿ .. أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾[1].

ولا غرو، فعقد الصداقة كبير القيمة جليل الأثر حتى إنه ليكون مظنة النجدة في الأزمات الطاحنة.

ولو كانت هذه الأزمات النجاة من عذاب جهنم!!.

قال تعالى في وصف حال المشركين حين يقاسون العذاب: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ. فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[2].

ولما يرتبط بهذه الصداقات من حقوق عظام، قال رسول الله ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[3].

وقلت: أخ!! قالوا: أخ من قرابة؟ فقلت لهم: إن الشكول أقارب
صديقي في حزمي وعزمي ومذهبي وإن باعدتنا في الأصول المناسب

---

(1) النور: ٦١. (2) الشعراء: ٩٧ - ١٠١. (3) أبو داود.

العِـــزَّة

الكبرياء على العباد صفة رب العباد الذي خلق فسوّى، والذي قدَّر فهدى، والذي إذا ظهر قهر، وإذا تجلى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر:

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ، رَبِّ السَّمواتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الْحَكِيم ﴾[1].

وذلة العباد لربهم ذلة بالحق لا بالباطل. فإن الخلق والأمر والغنى والملك له وحده. ومصاير العباد رهن مشيئته وطوع إرادته. وهم إنما يكونون في أزكى أحوالهم ساعة تعنو جباههم لرب العزة في السجود الخاضع الطويل. عندئذٍ يعرفون وضعهم ويلزمون حدهم، ويعطون الخالق الكبير حقه الذي لا مرية فيه ولا عدوان في تقريره..

أما ذلة العبد لعبد مثله فباطل لا ريب. والمتكبر هنا متطاول مبطل يزعم لنفسه ما ليس لها. والوضيع المستعبد جاهل بقدره، تحمل من الأوزار ما لا يطيق. وقد حرم الإسلام الكبر، وحرم الذل وأوجب العزة..

قال رسول الله ﷺ: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كَبَّهُ الله لوجهه في النار»[2].

وقال: «بينما رجل يمشي في وحلة، تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[3].

---

(١) الجاثية: ٣٦ ـ ٣٧. (٢) أحمد. (٣) البخاري.

ذلك أن الكبر وصف الله. ولا ينبغي لبشر أن ينازع الله وصفه المستحق له، وتكبر الناس إنما يعني جملة من الخصال الخسيسة، في طليعتها جحد الحق وجهل الواقع، وسوء العشرة، وتجاوز القَدْرِ، وتحقير الفضل، إلى غير ذلك.

وقد حرَّم الإسلام على المسلم أن يهون، أو يستذل، أو يستضعف، ورمى في قلبه القلق والتبرم بكل وضع يخدش كرامته ويجرح مكانته.

روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه. ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فإنما يشكو الله تعالى. ومن تضعضع لغني لينال مما في يديه أسخط الله، ومن أعطي القرآن فدخل النار، فأبعده الله»[1].

وفي رواية: «من جلس إلى غني فتضعضع له، لدنيا تصيبه؛ ذهب ثلثا دينه، ودخل النار».

وهذا الحديث يستنكر الضراعة التي تظهر على بعض الناس حين يؤزمون؛ فيبكون ما فقدوا من حطام، ويصيحون بالخلق طالبين النجدة، ويتمرغون في تراب الأغنياء انتظار عَرَض يفرضونه لهم أو يقرضونه إياهم.

والتألم من الحرمان ليس ضعة، ولكن تحول الحرمان إلى هوان هو الذي يستنكره الإسلام، فقد مضت سُنَّةُ الرجولة من قديم أن يتحامل الجريح على نفسه حتى يشفى فيستأنف المسير بعزم، لا أن يخور، ثم يتحول إلى كسيح، ثم ينتظر الحاملين، وفي معنى الحديث يقول الشاعر:

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري على مبتغي قرضي
وأعسر أحياناً فتشتد عسرتي ... وأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي
وما نالها حتى تجلت وأسفرت ... أخو ثقة مني بقرض ولا فرض

يعني أن يتماسك على ما به من ضائقة حتى تنجلي، دون أن يذل بها لأحد ولو كان أخا ثقة!!.

وفي الحديث: «من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا».

---

(١) الطبراني.

والإسلام يدع المؤمن مستقراً في المكان الذي ينبت العز ويهب الحرية الكاملة، ويجب على المؤمن أن يوفر هذه المعاني في بيئته، فإن استحال عليه ذلك فليتحول عن دار الهوان ولينشد الكرامة في أي مكان.

وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا: فِيمَ كُنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾(١).

وقد عذر الله العجزة من الرجال الذين يفقدون القدرة على الانتقال ولا يجدون وسيلة للنجاة، وضم إليهم النساء والأطفال فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾(٢)، وهذا التعبير يشعر بكراهية الإسلام لاحتمال الهوان، ويستنهض الهمم حتى تبذل الجهد كله في التخلص منه.

إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه هو كبرياء إيمانه، وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان، إنها أَنَفَةُ المؤمن أن يصغر لسلطان، أو يتضع في مكان، أو يكون ذنباً لإنسان. هي كبرياء فيها من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التطامن، فيها الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأباطيل الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، واطِّلاب العظمة من أصدق سبلها.

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً. إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ. وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾(٣).

العزة والإباء والكرامة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام، وغرسها في أنحاء المجتمع وتعهد نماءها بما شرع من عقائد وسن من تعاليم، وإليها يشير

(١)، (٢) النساء: ٩٧ ـ ٩٩.
(٣) فاطر: ١٠.

عمر بن الخطاب بقوله: أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملء فيه: لا.

علام يصيح المؤذن خمس مرات كل يوم منادياً بتكبير الله وحده في بداية الأذان ونهايته؟ ولماذا يتكرر هذا التكبير فيكتنف حركات الصلاة كلها من قيام وقعود؟

ذلك لكيما يوقن المسلم يقيناً لا يهتز ولا يزيغ، أن كل متكبر بعد الله فهو صغير، وأن كل متعاظم بعد الله فهو حقير، فكأنما وكل إلى هذا النداء أن يرد الناس إلى الصواب كلما أطاشتهم الدنيا، وضللتهم متاهاتها الطامسة.

وتوكيداً لهذه المعاني اختار الله عزّ وجلّ اسمَيْ: العظيم والأعلى من أسمائه الحسنى ليكررهما المسلم في أثناء ركوعه وسجوده، فتشرب روحه إفراد رب العالمين بالعظمة والعلو...

والعزة حق يقابله واجب، وليس يسوغ لامرىء أن يطالب بماله من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب، فإذا كلفت بعمل ما فأديته على أصح وجوهه فلا سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع من فوقك ولا من دونك مرتبة أن يعرض لك بلفظ محرج، وتستطيع أن تحتفظ بعزة نفسك أمام رؤسائك حين تسد الثغرات التي ينفذ منها إليك اللوم والتقريع. إن ألد أعدائك حينئذ يتهيبك.

قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ. وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ. مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(1).

وارتكاب الآثام سبيل السقوط والإهانة، ومزلقة إلى خزي الفرد والجماعة. وقد بيّن الله أن الهزيمة في غزوة أُحُدٍ سببها ما ارتكبه البعض من مخالفات.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ

---

(1) يونس: ٢٦ - ٢٧.

مَا كَسَبُوا، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنهْم إنَّ الله غَفُورٌ حَلِيم ﴾[1].

فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة هداه إلى أسبابها، ويسر له وسائلها، وأفهمه أن الكرامة في التقوى، وأن السمو في العبادة، وأن العزة في طاعة الله. والمؤمن الذي يعلم ذلك ويعمل به يجب أن يأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص في الحياة الرفيعة المجيدة. فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغٍ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهاداً في سبيل الله، وليس ذياداً عن الحق الشخصي فقط، بل إقراراً للحقوق العامة والمثل العالية.

ومن ثَمَّ فإن موت المسلم دون حقه شهادة:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي[2]؟ قال: لا تعطه مالك! قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله! قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد! قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار[3].

نعم. فمن عزة المؤمن ألا يكون مستباحاً لكل طامع، أو غرضاً لكل هاجم بل عليه أن يستميت دون نفسه وعرضه، وماله وأهله. وإن أريقت في ذلك دماء، فإن هذا رخيص لصيانة الشرف الرفيع.

وإنما شرع الله الثأر من الظالم، إعزازاً لجانب المهضوم وإيهاناً لجانب العادي فعلق المسلم بحقوقه وملأ بها يديه، وأغراه أن يتشبث بها فلا ينزل عنها إلا عفواً كريماً، أو سماحة تزيده عزاً على عز.

وقد لقنه أولاً دروس الإيمان وشرائع الكمال، ووقفه على نهج الفضل والرفعة بقوله: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُون، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقونَ ﴾[4].

---

(1) آل عمران: ١٥٥. (٢) أي اغتصابه. (٣) مسلم.
(٤) الشورى: ٣٦ - ٣٨.

بعد هذه التعاليم التي توفر لأصحابها العزة الكاملة، فرادى وجماعات قال:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ. وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

فمن خلق المسلم أن يغفر إذا استغضبه مَنْ دونه. ومن خلقه كذلك أن يؤدِّب المجترئين عليه، حتى يفل حَدَّهم ويكسر شوكتهم. وهو في هذه الحال مكلف أن يبرز قوته حتى يرهب المجرمين، وله وهو في هذا المكان العالي أن يعفو، فإن عفو المقتدر ـ بعد أن تنتفي علائم الضعف ـ لون آخر من تأديب المجرمين وكرامة المؤمنين.

فالخلق الذي تضمنته الآيات الأخيرة، يغاير الخلق الذي تضمنته الآيات الأولى..

الأولى تعني التجاوز عن هفوات العاثرين: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

أما الأخرى فتقدم الجاني إلى القضاء، وتصدر عليه العقاب، وتمكن سيف القصاص من عنقه، إذا انكسرت سطوته واختفت جرأته، جاء الفضل، بعد استطالة العدل! فكان زيادة في انقماع المستخفين وزيادة في عزة المسلم.

ولما كان في النفس الإنسانية شيء من الضعف أو القلق، ربما حملها على الخنوع لمن يملك الفصل في أمورها وقضاء مطالبها. وربما انزلق بها إلى مواقف تجافي الكرامة. لذلك علمنا رسول الله ألا نستكين في هذه الأمور وأن تبقى جباهنا عالية ونحن نسعى إلى ما نبغي فقال: «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير».

وبَيَّنَ لنا أن البشر ـ ولو اجتمعوا بأسرهم ـ أذل من أن يمنعوا شيئاً أعطاه الله، وأقل من أن يعطوا شيئاً منعه الله. ومن ثم فعلى المسلم أن يَرُدَّ مصاير الأمور إلى مدبرها الأعظم، وأن يجعل فيه الثقة وعليه المعوَّل.

---

(١) الشورى: ٣٩ ـ ٤٠.

وليكبر دينه فلا يذل به. وليملك نفسه فلا يعطي فرصة لأحمق كيما يستعلي ويستكبر، فإن قراراً ما لن يَتِمَّ إلا إذا أمضاه الله.

وقال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

ومظهر السلطة الذي يمنحه الله طائفة من العباد لا يغير قيد شعرة من إرادة القاهر فوق العباد. إننا في أحيان كثيرة نحس أننا مغلوبون على أمرنا. لكن هذا الإحساس منتفٍ في حق الله الذي لا يمكن أن يعجزه شيء:

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

فالأدنى إلى الحق، والأقرب إلى النفع، والأرشد في علاج المشاكل أن يظل المسلم منتصب القامة مرتفع الهامة، لا تدنيه حاجة ولا تطويه شدة، يجأر إلى مولاه بالدعاء ويكشف انكساره لربه وحده، فلا يبدي صفحته لمخلوق، فاقهاً قول الله له: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٣).

وقد علمتَ كيف علَّم الرسول أصحابه الاستغناء والاكتفاء، وفطم النفوس عن أن تسأل الناس شيئاً حتى التافه الذي لا يضير «فكان أحدهم ينزل عن ناقته ليلتقط سوطه، ويرفض أن يكلف أحداً مناولته إياه».

* * *

إن الناس يذلون أنفسهم، يقبلون الدنية في دينهم ودنياهم، لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم. والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعاً، فليس لأحد إليهما من سبيل. فالناس في الحقيقة يستذلهم وَهْم نشأ من أنفس مريضة بالحرص على الحياة والخوف على القوت. والناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر. مع أن الإسلام بنى حقيقة التوحيد على الصلة بالله تبارك وتعالى فيما ينوب ويروع، واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله بتاً، ولا يقدمون نفعاً ولا ضراً.

---

(١) فاطر: ٢. (٢) يوسف: ٢١. (٣) يونس: ١٠٧.

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾(١).

ويقول ابن القيم في مناجاة الله:

يا من ألوذ به فيما أؤمله! ومن أعوذ به مما أحاذره!
لا يجبر الناسُ عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره!

ذلك هو التوحيد الكامل. وذلكم ما يجب أن يستشفي به أولئك الضعاف المساكين، الذين يريقون ماء وجوههم في التسكع على الأبواب والتمسح بالثياب، والزلفى على الأعتاب.

يريد الإسلام ليجتث عوامل القلق في النفوس وأن يكشف عنها الضيق حتى تَتَنَفَّسَ في جو طليق، فيقول رسول الله: «إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله»(٢).

إنه يقول ذلك لا ليقعد الناس عن التكسب الواجب: فهذا ظن الجهلة. لكنه يقول ذلك ليجمل الناس في الطلب، ويخففوا من الإلحاح الشائن والتملق المعيب، وذلك سر القسم: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ. فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾(٣).

عن ابن مسعود أن رسول الله قال: «ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، فلا يستبطئن أحد منكم رزقه. فإن جبريل ألقى في روعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه. فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب، فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله لا يُنال فضله بمعصيته»(٤).

بهذه الوصايا الحارة رفع الإسلام قدر المستمسك به، وجعله ينقل أقدامه على الأرض مكيناً كريماً. ثم أوضح له أن هؤلاء الذين نتردد عليهم في حاجاتنا إنما هم ممرّ للعطاء، أو مظهر للمنع.

---

(١) الملك: ٢٠ - ٢١. (٢) الطبراني. (٣) الذاريات: ٢٢ - ٢٣.
(٤) الحاكم.

روي عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لا تُرضين أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على فضل الله. ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله. فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص. ولا ترده عنك كراهية كاره. وإن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرج في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في السخط»[1].

وهذا الحديث لا يعني جحود الصنيع، ولا ازدراء الفضل لمن أسدوا الفضل. فإن الحديث يقول: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[2].

ولكن معناه، ألا يُستعبد المرء بمنة وصلة حتى تداس كرامته! فإن المنة لله أسبق. ولا يجوز للمعطي أن يقصد بهبته شراء الأنفس والتصرف فيها كما يحب. فإن هذا يحبط أجره. وكان ذلك القصد ـ ولا يزال ـ شأن الذين يؤتون لغير الله. ولذلك تأفف الأحرار من عطاياهم:

لاهِ ابن عمك، لا أفضلت في نسب عني ولا أنت ديَّاني فتخزوني[3]!

أما الذين يعطون لله، ويؤدون حقوق العباد ابتغاء وجهه، فقد قال رسول الله في بيان مكافآتهم: «من أُعطي عطاء فليجز به إن وجد، فإن لم يجد فليثنِ به، فإن من أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»[4].

أما تهيب الموت وتحمل العار طلباً للبقاء في الدنيا على أية صورة فذلك حمق؛ فإن الفرار لا يطيل أجلاً والإقدام لا ينقص عمراً، كيف؟ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[5].

إن القضاء يصيب العزيز وله أجره، ويصيب الذليل وعليه وزره، فكن عزيزاً ما دام لن يفلت من محتوم القضاء إنسان.

---

(١) الطبراني. (٢) الترمذي. (٣) يقال خزاه: قهره وملكه.
(٤) أبو داود. (٥) الأعراف: ٣٤.

الرَّحْـــمَة

للرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم فيتمنى لهم الهدى. هي كمال في الطبيعة؛ لأن تبلد الحس يهوي بالإنسان إلى منزلة الحيوان ويسلبه أفضل ما فيه، وهو العاطفة الحية النابضة بالحب والرأفة. بل إن الحيوان قد تجيش فيه مشاعر مبهمة تعطفه على ذراريه، ومن ثَمَّ كانت القسوة ارتكاساً بالفطرة إلى منزلة البهائم، بل إلى منازل الجماد الذي لا يعي ولا يهتز.

والرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت. فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة. ولذلك كان من صلاة الملائكة له:

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيم ﴾[1].

وعن عمر بن الخطاب: قُدم على رسول الله بسَبْي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلَّب ثديها. إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته. فقال رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله ـ وهي تقدر على أن لا تطرحه! ـ قال: «فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها»[2].

---

(١) غافر: ٧.	(٢) البخاري.

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معاني الرحمة والكرم والفضل والعفو. وقد جاء في الحديث القدسي: «إن رحمتي تغلب غضبي»[1]، أي أن تجاوزه عن خطايا البشر يسبق اقتصاصه منهم وسخطه عليهم وبذلك كان أفضل الرحماء:

﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[2].

ما ترى في الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثر من رحمة الله التي أودع جزءاً منها في قلوب الخلائق؛ فأرقُّ الناس أفئدة أوفرهم نصيباً من هذه الرحمة وأرهفهم إحساساً بحياة الضعفاء.

أما غلاظ الأكباد من الجبارين والكازّين والمستكبرين فَهُمْ في الدرك الأسفل من النار. وفي الحديث: «.... إن أبعد الناس من الله تعالى القاسي القلب»[3].

وكان رسول الله يعد جمود العين واستغلاق القلب من الشقاء.

ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه، ويخفف أحزانه، ويرثي لخطاياه، ويستميت في هدايته، ويأخذ بناصر الضعيف، ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها. ويخضد شوكة القوي حتى يرده إنساناً سليم الفطرة لا يضرى ولا يطغى.. فأرسل «محمداً» عليه الصلاة والسلام، وسكب في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرفق، وفي يده من السخاوة والندى، ما جعله أزكى عباد الله رحمة، وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدراً.

ولذلك قال فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[4].

وقد لازمته هذه الفضائل العذبة في أعصب الساعات عندما حاول المشركون في «أحد» اغتياله، وألجأوه إلى حفرة ليكبَّ فيها، ونظر إلى زهرة

(١) مسلم. (٢) المؤمنون: ١١٨. (٣) الترمذي.
(٤) آل عمران: ١٥٩.

أصحابه فوجدهم مضرجين بدمائهم على الثرى. ونظر إليه بقية أصحابه فإذا خده قد شق وسنه قد سقطت. وفي هذه الأزمة قيل له: ادع على المشركين؛ فغلبه رفقه وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر، فكان دعاؤه: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة فهي أبداً إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والاضطغان.

إن القسوة في خلق إنسان دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير. فلا عجب إذا حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله وسر الشرود عن صراطه المستقيم:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].

وقد أمر الإسلام بالتراحم العام. وجعله من دلائل الإيمان الكامل، فالمسلم يلقى الناس قاطبة وفي قلبه لهم عطف مذخور وبر مكنون، فهو يوسع لهم ويخفف عنهم جهد ما يستطيع:

قال رسول الله: «لن تؤمنوا حتى ترحموا، قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[2].

أجل، فإن الرجل قد يهش لأصدقائه حين يلقاهم، وقد يرق لأولاده حين يراهم. وذلك أمر يشيع بين الكثير. بيد أن المفروض في المؤمن أن تكون دائرة رحمته أوسع، فهو يبدي بشاشته، ويظهر مودته ورحمته لعامة من يلقى...

وقد جاءت الأحاديث تترى حاثة على هذه الرحمة الشاملة. فقال رسول الله: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[3] زاد في رواية «ومن لا يغفر لا يغفر له».

(١) الحديد: ١٦. (٢) الطبراني. (٣) البخاري.

وقال: «من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء»[1].

وقال: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذلَّ في نفسه من غير مسألة، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»[2].

والذلة في غير مسكنة تعني السكينة للمؤمنين والليونة معهم. وقد وصف الله المجتمع المسلم أنه متماسك بهذا العطف المتبادل فقال عن أهله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[3] وقال: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[4].

وقد تسأل: ما معنى ذكر الشدة في سياق الحديث عن الرحمة؟ والحق أن الإسلام يوصي بالرحمة العامة لا يستثني منها إنساناً ولا دابة ولا طيراً. والنصوص التي سلفت تؤيد هذا الشمول. بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر على غيره ومثار رعب وفزع، فيكون من رعاية الصالح العام للجماعة كلها أن يحبس شره، ويحاصر ضرره. وقد تكون الشدة معه رحمة به كذلك وتقويماً لعوجه.

والإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم. وقد قال الله لرسوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[5] وسور القرآن الكريم مفتّحة كلها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

لكن ذئاب البشر أبوا إلا اعتراض الرحمة المرسلة، ووضع الجنادل في مجراها حتى تنقطع عن الناس مواردها، فيهلكوا بعيداً عنها في أودية الحيرة والجهالة. فلم يكن بدٌّ من إزالة هذه العوائق، والإغلاظ لأصحابها، ويوم ينقطع تعرضهم وتحديهم تشملهم هذه الرحمة الجامعة، فليس في هذه الرحمة قصور؛ وإنما القصور فيمن حرم نفسه منها، ألست ترى أن رحمة الله وسعت كل شيء! ومع ذلك فلن ينالها مشرك ولا جَحود:

---

(1) الطبراني. (2) الطبراني. (3) المائدة: ٥٤.
(4) الفتح: ٢٩. (5) الأنبياء: ١٠٧.

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا للّذينَ يَتّقونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، والّذينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ. الذينَ يَتّبِعُونَ الرَّسُول النَّبيَّ الأُمِّيَّ ﴾[1].

كما تقول: هذه القاعة تسع ألف جالس. ولكن لا يؤذن بدخولها إلا لمن يحمل بطاقة، فإذا رفض البعض حمل البطاقة المعهودة فحرموا من الدخول وبقوا في الخارج، فليس ذلك قدحاً في سعة القاعة.

ومثل ذلك قول رسول الله: «كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى، فقالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[2].

وقد تأخذ الرحمة الحقة طابع القسوة وليست كذلك. إن الأطفال عندنا يساقون إلى المدارس كرهاً، ويحفظون الدروس زجراً. ولو تُركوا وأهواءهم لقتلهم اللهو واللعب ولشبوا لا يحسنون صنعاً، ولذلك قال الشاعر:

فقَسَا ليزدجروا ومن يك راحماً فليقسُ أحياناً على من يرحم

والطبيب عندما يجري بالجسم جراحة يستخدم مبضعه لتمزيق اللحم، وقد يضطر لتهشيم العظام وبتر أعضاء. وما يفعل ذلك إلا رحمة بالمريض!!.

فليست الرحمة حناناً لا عقل معه، أو شفقة تتنكر للعدل والنظام. كلا إنها عاطفة ترعى هذه الحقوق جميعاً. إن منظر المشنوق وجسمه يتأرجح في الهواء وعيناه تعشقان الضوء وتطلبان النجاة؛ منظر قد يستدر العطف، ولو أجيبت هذه العاطفة السريعة، وأطلق سراح القاتل لامتلأت الأرض فوضى.. والرحمة الحقة في كبت هذا الشعور.

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الألبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقون ﴾[3].

إن القسوة التي استنكرها الإسلام جفاف في النفس لا يرتبط بمنطق ولا عدالة. إنها نزوة فاجرة تتشبع من الإساءة والإيذاء، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى.. أما الرحمة فهي أثر من الجمال الإلٓهي الباقي في طبائع الناس يحدوهم إلى البر، ويهب عليهم في الأزمات الخانقة ريحاً بليلة ترطب الحياة وتنعش الصدور.

---

(١) الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧. (٢) البخاري. (٣) البقرة: ١٧٩.

قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الرحمة مائة جزء. وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1].

وفي رواية أخرى: «إن الله تعالى خلق ـ يوم خلق السموات والأرض ـ مائة رحمة. كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رحمة واحدة. فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض»[2].

وكما يُنَمِّي العقل بشتّى المعارف فيزكو. تُنَمَّى هذه الرحمة بشتى الأساليب لتتسع وتربو. أما إذا تركت لتذوي وتموت فقد أصبح صاحبها حطباً لجهنم:

عن أبي هريرة: سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[3].

ونبه الإسلام إلى أن هناك أقواماً مخصوصين ينبغي أن يحظوا بأضعاف من الرحمة والرعاية.

من هؤلاء ذوو الأرحام، والرحم مشتقة من الرحمة في مبناها، فيجب أن تستقيم معها في معناها.

قال رسول الله: «الراحمون يرحمهم الله تعالى؛ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. الرحم شجنة[4] من الرحمن. من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله»[5].

وعلى المسلم أن يؤدي حقوق أقربائه وأن يقوِّي بالمودة الدائمة صلات الدم القائمة..

وأجدر الناس بجميل بره أَمَنُّهم عليه وأولاهم به، وهم والداه، قال الله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[6].

---

(١) البخاري. (٢) مسلم. (٣) أبو داود.
(٤) الشجنة: القرابة المشتبكة اشتباك العروق. (٥) الترمذي. (٦) الإسراء: ٢٤.

ثم أولاده. فعن البراء رضي الله عنه قال: «أتى أبو بكر عائشة وقد أصابتها الحمَّى فقال: كيف أنت يا بنية وقبل خدها»[1].

والمشاهد في أجلاف الناس أن عواطفهم لا تأخذ هذا الطابع من الرقة والحنو ففي أخلاقهم وألفاظهم جفوة مستكرهة.

عن أبي هريرة: «قبَّل رسول الله الحسن أو الحسين بن علي وعنده الأقرع ابن حابس التميمي. فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً قط! فنظر إليه رسول الله وقال: «من لا يَرحم لا يُرحم» وفي رواية «أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟»[2].

وعن أنس: «دخلنا مع رسول الله على أبي سيف القَينْ وكان ظئراً لإبراهيم ابن رسول الله، فأخذ رسول الله ﷺ ابنه فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله تذرفان فقال ابن عوف: وأنت يا رسول الله؟ ـ كأنه استغرب بكاءه ـ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى. فقال: إن العين تدمع، وإن القلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].

ولا يجوز للمسلم أن يوصد قلبه وبيته دون أقاربه. وأن يبت علائقهم، فيحيا بعيداً عنهم، لا يواسيهم في ألم ولا يسدي إليهم عوناً، إن هذه القطيعة تحرم الإنسان من بركة الله وتعرضه لسخطه:

عن أبي هريرة سمعت رسول الله يقول: «الرحم شجنة من الرحمن تقول: يا رب إني قطعت! يا رب إني أسيء إليّ! يا رب إني ظلمت! يا رب يا رب، فيجيبها: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟»[4].

وممن تجب الرحمة بهم اليتامى. فإن الإحسان إليهم والبر بهم وكفالة عيشهم وصيانة مستقبلهم من أزكى القربات، بل إن العواطف المنحرفة تعتدل في هذا المسلك وتلزم الجادة.

---

(١) البخاري. (٢) البخاري. (٣) مسلم.
(٤) أحمد.

فعن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله قسوة قلبه، فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين»[1].

وفي رواية: أن رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه فقال له: «أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك»[2].

وذلك أن القلب يتبلد في المجتمعات التي تضج بالمرح الدائم، والتي تصبح وتمسي وهي لا ترى من الحياة غير آفاقها الزاهرة، ونعمها الباهرة، والمترفون إنما يتنكرون لآلام الجماهير، لأن الملذات التي تيسر لهم تغلف أفئدتهم، وتطمس بصائرهم، فلا تجعلهم يشعرون بحاجة المحتاج وألم المتألم وحزن المحزون، والناس إنما يرزقون الأفئدة النبيلة والمشاعر المرهفة عندما يتقلبون في أحوال الحياة المختلفة ويبلون مس السراء والضراء.. عندئذ يحسون بالوحشة مع اليتيم، وبالفقدان مع الثكلى، وبالتعب مع البائس الفقير.

وتجمل الرحمة مع المرضى وذوي العاهات، فإن أولئك المصابين يستقبلون الحياة بوسائل منقوصة تعجزهم عن المسير فيها وإدراك لبانتهم منها، وقد عذرهم الله عزّ وجلّ فلا يجوز أن نؤاخذهم بما أعفاهم الله منه.

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[3].

والمريض شخص قيدته العلة ونغصه حر الداء ومر الدواء. وهو في صبره على أوجاعه قريب من الله حقيق برحمته. وإذا كان مس الشوكة يكفر من سيئات المؤمن، فما بالك بمن برحت به الأوصاب وأذاقته أشد العذاب؟ إن ذلك يجعله بعين الله! ولذلك يجب أن نحاذر من الإساءة إلى المرضى، والاستهانة براحتهم، فإن القسوة معهم جرم غليظ.

* * *

(١) أحمد. (٢) الطبراني. (٣) الفتح: ١٧.

ومن مواطن الرحمة أن نحسن معاملة الخدم، وأن نرفق معهم فيما نكلفهم من أعمال، وأن نتجاوز عن هفواتهم. وألا نحس سطوة التصرف فيهم فنعبث بتسخيرهم فإن الله إذا ملّك أحداً شيئاً فاستبد به وأساء، سلبه ما ملك وأعد له سوء المنقلب.

عن أبي مسعود البدري: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط. فسمعت صوتاً من خلفي: اعلم أبا مسعود. فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ. فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام. فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ: «حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم»[(٢)].

وجاءه رجل يسأله: كم أعفو عن الخادم؟ قال ﷺ: «كل يوم سبعين مرة!».

إن هناك نساءً ورجالاً ينتهزون فرصة ضعف الخدم فيوقعون بهم ألوان الأذى وقد رهب الإسلام من هذه الفظاظة وتوعد عليها.

قال رسول الله ﷺ: «من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة»[(٣)].

* * *

ومن الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان. رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال: ويلك قدها إلى الموت قوداً جميلاً.

وقال رجل: يا رسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «إن رحمتها رحمك الله»[(٤)].

والإسلام شديد المؤاخذة لمن تقسو قلوبهم على الحيوان ويستهينون بآلامه، وقد بين أن الإنسان على عظيم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء.

---

(١) مسلم. (٢) أبو داود. (٣) البزار.
(٤) الحاكم.

قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[1].

كما بَيَّنَ أن كبائر المعاصي تمحوها نزعة رحمة تغمر القلب، ولو بإزاء كلب!.

قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كل كبد رطب أجر».

وفي رواية: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها[2] فغفر لها به!»[3].

لئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا، فإن الرحمة بالبشر تصنع العجائب!.

---

(١) البخاري. (٢) موقها: خفها. (٣) مسلم.

العِلمُ وَالعَقل

طبيعة الإسلام تفرض على الأمة التي تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين.

ذلك لأن حقائق هذا الدين ـ من أصول أو فروع ـ ليست طقوساً تنقل بالوراثة، أو تعاويذ تشيع بالإيحاء، وتنتشر بالإيهام. كلا. إنها حقائق تستخرج من كتاب حكيم، ومن سنة واعية! وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة، بل لا بد من أمة تتوفر فيها الأفهام الذكية والأساليب العالية، والآداب الكريمة. ولا شك أن مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أي أمة تعنى بها جوّاً من الفقه التشريعي القائم على الأوامر والنواهي ـ أي بالحقوق والواجبات ـ وجوّاً من الآداب الاجتماعية الدقيقة المتعلقة بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجوّاً من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص، لمد رواق الإسلام على ما تفد به الأعصار من أقضية شتى وشؤون متجددة.

فإذا قَلّت هذه العناصر في بيئة ما اضمحل أمر الإسلام وذبلت أغصانه كما تبلى الشجرة الباسقة في أرض ذَهَبَ خصبها وجَفَّ ماؤها.

وهناك بعد ذلك التفكير في الكون اطّرد الأمر به في سور القرآن واعتبر الأساس الأول لإقامة إيمان ثابت وطيد. إن هذا التفكير هو الذي فتق الأذهان عن روائع الحضارة الحديثة، ويسّر للدنيا هذه الكشوف الجليلة لأسرار الوجود، وسخر للناس ما لم يكونوا يحلمون به. ثم هناك أيضاً التوصية باتباع الحق وحده والبحث عنه مهما خفي، واستنكار الظنون العائمة، والنهي عن الجري وراءها

ووضع رقابة محكمة على السمع والبصر والفؤاد. إن هذا كفيل بإيجاد مجتمع بعيد عن الخرافات منزه عن الأوهام والمساخرة لا مجتمع يفيض بالشعوذة تتركز فيه الأراجيف والترهات، وتحكمه تقاليد غامضة ما أنزل الله بها من سلطان.

إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان. ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلا عند أصحاب المعارف الناضجة والألباب الحصيفة.

ولأمر مّا يقول الله عنه: ﴿هذا بَلاغٌ للناس، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[1] ويقول مصوِّراً أحاديث أهل جهنم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2].

ويقول فيمن طمست مشاعرهم وماتت مواهبهم واستغلقت أذهانهم:

﴿وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاّ دعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعقلون﴾[3].

إن الله شرف الحياة بالإسلام بعد ما بلغت رشدها ونمت قواها واستعدت لأن تتلقى منه أزكى التعاليم وأرقاها فكان جميعه ملائماً لتطور الحياة نحو الكمال، بل كان هو شوطاً واسعاً في الخطو بها نحو الرقي المادي والأدبي.

وأنت إذا نظرت إلى الصلاة ـ وهي العبادة الأولى في الإسلام ـ وجدت أداءها والأذان لها عملاً عقلياً بحتاً، فالدعوة إلى الصلاة كلمات تقرع العقل وتوقظ القلب؛ تكبير لله، وشهاد بتوحيده، وحث على الفلاح. وليست جرساً يرسل رنينه في الفضاء ويخاطب المشاعر المبهمة. والصلاة نفسها آيات تتلى من كتاب جامع لعزائم الخير ودلائل الرشد، ومدى قبولها مقرون بصحو الفكر في إقامتها وتدبر العقل لمعانيها..

والحق أنه على قدر ذكاء الشخص واستنارته واستقامة فطرته يكون رسوخ قدمه في الإسلام. وهيهات أن يسبق في هذا الدين بليد الرأي سقيم الوجدان.

إن أول ما نزل من آيات القرآن قول الله لنبيه:

---

(١) إبراهيم: ٥٢.   (٢) الملك: ١٠.   (٣) البقرة: ١٧١.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

وهذه أول صيحة تسمو بقدر القلم وتنوه بقيمة العلم وتعلن الحرب على الأمية الغافلة. وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم. وسما الله عزّ وجلّ بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيته، والإقرار بعدالته: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

ولا غرو، فأنى للعقول الكليلة والمعارف الضيقة أن تدرك جلال الكبير المتعال؟ وأنى لمن يعيش على هامش الحياة ـ بجهله وظلمته ـ أن يعرف الحق عن رب الحياة، أو يلمح طرفاً من صفاته العظمى وآياته الكبرى؟؟.

لذلك أعز الله العلماء وآثرهم بكرامته وفضله قال رسول الله: «يقول الله عزّ وجلّ للعلماء يوم القيامة، إذا قعد على كرسيه للفصل بين العباد: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي»[3].

قال الحافظ المنذري: انظر إلى قوله سبحانه وتعالى «علمي وحلمي»، وأمعن النظر فيه يتضح لك من إضافته إليه عزّ وجلّ أنه ليس المراد به علم أكثر أهل زماننا المجرد عن العلم به والإخلاص.

وفي عطف الحلم على العمل ما يشير إلى أنه علم لم يستبد به النزق ولم تسخره الشهوات.

* * *

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافة المشوبة بالجهل والقصور.

قال رسول الله: «فضل العلم خير من فضل العبادة»[4] وقال: «قليل

(١) العلق: ١ ـ ٥. (٢) آل عمران: ١٨. (٣) الطبراني.
(٤) البزار.

العلم خير من كثير العبادة»(١). . وقال: «أفضل العبادة الفقه»(٢) وقال رسول الله: «يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة. ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة»(٣).

والسر في هذا الحكم أن عبادة الجهَّال ـ كصداقتهم ـ قليلة الجدوى، وهم يضرون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون راحتهم. وجهلة العباد يستمسكون بالدين استمساكاً شديداً ويتعصبون لـه تعصباً ظاهراً. ولكنهم في ساعة رعونة وغباء يقفون منه الموقف الذي يلحق به الأذى والمعرة، ويجر عليه المتاعب الجمة، أما أولو العلم فإن بصيرتهم الذكية تحكم مسلكهم وتلهمهم الرشد، فلو قل عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»(٤).

ويقول: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً»(٥).

وروي عن رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد سبعون درجة، ما بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً. وذلك لأن الشيطان يدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها. والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها»(٦).

وعَجْز هذا الحديث يشبه أن يكون مدرجاً من كلام الرواة تفسيراً لما تضمنه الحديث من حكم.

ولما كان ضيق الأفق لا يدع للإيمان امتداداً، ولا للاحسان منفذاً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ الأَمثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُها إلاّ العالِمُونَ﴾(٧) وبينّ أن الضمير الدافع إلى الخير، الوازع عن الشر، المراقب له، الحريص عَلَى

---

(١) الطبراني. (٢) الطبراني. (٣) ابن ماجه.
(٤) الترمذي. (٥) الترمذي. (٦) الأصبهاني.
(٧) العنكبوت: ٤٣.

مرضاته، هو ضمير العالِم المستنير الخبير بربِّه. . . ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ. قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[1].

* * *

والعلم الذي يقبل المسلِم عليه، ويستفتح أبوابه بقوة، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب، ليس علماً معيناً محدود البداية والنهاية. فكل ما يوسع منادح النظر، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود، ويفتح له آماداً أبعد من الكشف والإدراك، وكل ما يتيح له السيادة في العالم، والتحكم في قواه، والإفادة من زخائره المكنونة، ذلك كله ينبغي التطلع له والتضلع فيه، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه. وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنن.

فأما الأحاديث المشيرة إلى التزود من المعارف أياً كانت فكثيرة، منها قول رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً التمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[2].

وقال: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عقله!»[3].

وقال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[4].

وقال: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في جوف البحر ليصلُّون على معلم الناس الخير»[5].

فالسياق في هذه السنن يوجه إلى أي علم يطلب: تعلم الخير، الحكمة، ما يقي من الضرر، ما يقرب من النفع. وتخصيص العلم بلون معين من الثقافة كتخصيص المال بنوع معين من الأملاك لا وجه له. ولا شك أن في طليعة ما

---

(١) الزمر: ٩. (٢) مسلم. (٣) الطبراني.
(٤) البخاري. (٥) الترمذي.

تجب معرفته حق الله على الناس. وحق الناس بعضهم على بعض. فإن هداية السلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر في تنظيم الجماعات وتوجيه السياسات لكن من الخطل أن نظن العلم المحمود هو دراسة الفقه والتفسير وما شابه ذلك من الفنون فحسب. وأما ما وراءها فهو نافلة يؤديها من شاء تطوعاً أو يتركها وليس عليه من حرج...!!

هذا خطأ كبير. فإن علوم الكون والحياة، ونتائج البحث المتواصل في ملكوت السماء والأرض لا تقل خطراً عن علوم الدين المحضة. بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل معرفتها أولى بالتقديم من الاستبحار في علوم الشريعة.

وحسبنا أن القرآن الكريم عندما نوَّه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق، وإنما عنى العلم الذي ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشؤون الطبيعة الأخرى.

قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وِمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(١).

وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ، وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِين ﴾(٢).

إن علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجلية حقائقه، غاية ما هنالك أن علوم الطبيعة تحتاج دراسات أطول. أما العلم بالدين فميسور لمن أخلص له أياماً معدودات. وإذا كان التوسع في فروع الشريعة يحتاج مُدداً فسيحة، فهذا التوسع وظيفة اجتماعية كسائر الوظائف التي تستكثر منها الدولة أو تستقل وفق المصلحة التي تنجح رسالتها العليا. وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف في ذاتها من دراسات الطب مثلاً، ولو بلغ صاحبها مبلغ أبي حنيفة. وإنما يرجح الرجل صاحبه في علمه بمقدار ما يسخر هذا العلم

---

(١) فاطر: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الروم: ٢٢.

لنفع الناس ابتغاء وجه الله، وانتظار ما لديه من مثوبة.

* * *

إن الحاجز رقيق جداً وكثيف جداً بين ما هو دين محض وما هو دنيا محضة والمرجع ـ كما أسلفنا البيان ـ إلى سلامة القصد ونبل الغاية. فالشيء الواحد قد يكون فاحشة كبيرة بما يلابسه من هوى، وقد يكون جهاداً مبروراً بما يصاحبه من إخلاص.

والناس قد يقرأون قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1] فينظرون إلى المال والبنين على أنهما انتفاع فحسب! وما دروا أن المال والبنين هما إمداد الجهاد المفروض. وأن تثمير الأموال وتكثير الأولاد قد جعلهما الله عدة النصر للأمم التي غلبت على أمرها حيناً، ثم أمكنها أن تستعيد مجدها المفقود، بم؟ وكيف؟.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾[2] فبالمال والبنين امتدت هذه الأمة بعد انكماش وتقدمت بعد تقهقر، واستعادت رضا الله بعد ما فقدته.

والقول كذلك في دائرة العلم، فلو اشتغل رجل بعلوم السماد يبتغي إخصاب أرض الله ما نقصه أجره ذرة؛ بل لعله يزيد على رجل صف قدميه في المحراب وأخذ يحيي الليل في الصلاة!!.

إن الإسلام ارتفع بمنازل العلماء وقدر جهودهم، وكرم ثمارهم إلى حد بعيد:

عن معاذ بن جبل: (تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزّين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً،

---

(١) الكهف: ٤٦. (٢) الإسراء: ٦.

فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار في الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)[1].

* * *

وتعلم اللغات الأخرى من سنن الإسلام، وقد سبق رسول الله ﷺ إلى الانتفاع بهذا العلم فأمر كاتبه «زيد بن ثابت» بإجادة السريانية. قال زيد: أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية. وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي! قال زيد: فوالله ما مَرَّ بي نصف شهر حتى تعلمته وجِدْتُ فيه، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ له كتبهم إليه[2].

وفهم لغات الشعوب يعد من ضرورات الإسلام، فإن رسالة محمد ﷺ إلى الناس قاطبة، وجمع الناس على لسان واحد مستحيل. كيف؟ واختلاف الألسنة من آيات الله؟ فنقل تعاليم الإسلام إلى أمم الأرض بالألسنة التي يفهمون، أقرب إلى العقل والواقع من نقل أجناس البشر إلى لسان العرب.

وقد قال المفسرون في شرح قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[3]:

إن رسول الله ﷺ بعث من العرب وبلسانهم، ولكنه يرسل مبعوثيه إلى الأطراف فيترجمون بألسنتهم، ويدعونهم إلى الله بلغاتهم!! وقالوا: إما أن ينزل القرآن بجميع الألسنة، أو بواحد منها، ولا حاجة لنزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فتعين أن ينزل بلسان واحد، فكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم إليه أقرب، ولأن التحريف عنه أبعد..

---

(١) ابن عبد البر. (٢) البخاري. (٣) إبراهيم: ٤.

وهذا الكلام قاطع في أن المسلمين يجب أن يتعلموا اللغات الأخرى وإلا خانوا الرسالة التي حملوها، وجهلوا الناس عمداً بها. ثم إن العلم ليس له وطن خاص، ولا ينفرد به جيل بعينه، ولو نقلنا البصر في مصادر المعرفة التي عمّت العالم قديماً وحديثاً لوجدنا منابع العلم كالسحب السيارة في الفضاء، لا تحتبس في أفق ولا يحتكرها قطر، وكم من أمة عالمة أعقبت جهالاً، وكم من أسلاف جهال نسلوا المهرة الحاذقين، وقد كانت (أوروبا) قبل بضعة قرون تغص بالصم البكم الذين لا يعون شيئاً، وهي الآن تهيمن على وراث الحضارات القديمة!! والمسلم مكلف بارتياد المواطن القصية لنيل العلم من أي يد، ومن أي بلد.

قال رسول الله ﷺ: «لن يشبع مؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة»[1].

وقال: «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[2].

وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[3].

* * *

إن التعلم والتعليم روح الإسلام، لا بقاء لجوهره ولا كفالة لمستقبله إلا بهما، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين: إما متعلم يطلب الرشد، وإما عالم يطلب المزيد، وليس بعد ذلك من يؤبه له. قال رسول الله ﷺ: «العالم والمتعلم شريكان في الخير، ولا خير في سائر الناس»[4].

* * *

---

(١) الترمذي. (٢) الترمذي. (٣) الترمذي.
(٤) ابن ماجه.

الانتفاع بالوقت
والاتعاظ بالزمن

كل مفقود عسى أن تسترجعه، إلا الوقت. فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل، ولذلك كان الوقت أنفس ما يملكه إنسان، وكان على العاقل أن يستقبل أيامه استقبال الضنين للثروة الرائعة، لا يفرط في قليلها بَلْه كثيرها، ويجتهد أن يضع كل شيء، مهما ضَؤل بموضعه اللائق به.

عندما يحس أحدنا أنه موجود، ويلقي نظرة وراءه يتبين بها اللحظة التي بدأ منها المسير في هذه الحياة، ليحصي ما مر به من أيام وأعوام. لن يطول به فكره، لأنه لا يرى إلا بداية غامضة، ثم تتجمع السنون الطوال والليالي العراض، فإذا هي وكأنها يوم واحد مائع الطول والعرض متلاحق الأحداث.

إن هذا ما يستشعره الإنسان الآن. وما قد يستشعره يوم القيامة عندما يوقف للحساب: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ. . . ﴾[1].

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ عَشْراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولونَ. إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاّ يَوْماً ﴾[2].

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾[3].

إن هذا الإحساس ـ على ما به ـ يلذع الذين توهموا الخلود في الأرض وربطوا مصيرهم بترابها، وهو إحساس صادق إذا قيست أيام الدنيا بأيام

---

(١) يونس: ٤٥.   (٢) طه: ١٠٣ ـ ١٠٤.   (٣) النازعات: ٤٦.

الآخرة.. ولكنه إحساس مخدوع مضلل لمن مرت به الأصباح والأمسية وكرت عليه الشهور والدهور، وغدا وراح، وتعب واستراح. ومع ذلك فهو في غفلة عن يومه وغده. ظل يعبث ويسترسل في عبثه حتى إذا استرخت أجفانه على عينيه، ودخل ظلام الموت، تيقظ بعنف! وهيهات!! لقد صحا بعد فوات الوقت...

إن شأن الناس في الدنيا غريب: يلهون والقدر معهم جاد، وينسون وكل ذرة من أعمالهم محسوبة.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلوا، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ، واللَّهُ عَلَى كلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

إن المسلم الحق يغالي بالوقت مغالاة شديدة. لأن الوقت عمره، فإذا سمح بضياعه، وترك العوادي تنهبه فهو ينتحر بهذا المسلك الطائش.

إن الإنسان ليسير حثيثاً إلى الله. وكل دورة للفلك تتمخض عن صباح جديد ليست إلا مرحلة من مراحل الطريق الذي لا توقف فيه أبداً. أفليس من العقل أن يدرك المرء هذه الحقيقة وأن يجعلها نصب عينيه وهو يستبين ما وراءه وما أمامه، من الخداع أن يحسب المرء نفسه واقفاً والزمن يسير! إنه خداع النظر حين يخيل لراكب القطار أن الأشياء تجري وهو جالس. والواقع أن الزمن يسير بالإنسان نفسه إلى مصيره العتيد.

* * *

الإسلام دين يعرف قيمة الوقت، ويقدر خطورة الزمن، يؤكد الحكمة الغالية «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك». ويجعل من دلائل الإيمان وأمارات التقى أن يعي المسلم هذه الحقيقة ويسير على هداها:

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[2].

(١) المجادلة: ٦. (٢) يونس: ٦.

ويعتبر الذاهلين عن غدهم، الغارقين في حاضرهم، المسحورين ببريق الدار العاجلة، قوماً خاسرين سفهاء:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(١).

وقد وزع الإسلام عباداته الكبرى على أجزاء اليوم وفصول العام. فالصلوات الخمس تكتنف اليوم كله. وأوقاتها تطّرد مع سيره. والمقرر في الشريعة أن «جبريل» نزل من عند الله ليرسم أوائل الأوقات وأواخرها ليكون من ذلك نظام محكم دقيق يرتب الحياة الإسلامية ويقيسها بالدقائق من مطلع الفجر إلى مغيب الشفق:

﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ. وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾(٢).

إن النظر القاصر يعرف من الزمن آثاره المحدودة، ومظاهره المحسوسة فهو يقول:

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشي

ويقول:

يسر المرء ما ذهب الليالي ... وكان ذهابهن له ذهابا

لكن الزمن الذي يغضّن(٣) الجباه ويطوي الآجال ويفني الحضارات ويقف الناس مشدوهين بإزاء عجائبه. هذا الزمن نفسه هو فرصة لإيقاظ الأذكياء لفعل الخير وإسداء المعروف وادّخار ما يجدي.

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾(٤).

فالليل يخلف النهار، ويخلفه النهار مع حركات الأفلاك الدائرة السائرة،

---

(١) يونس: ٧ ـ ٨. (٢) الروم: ١٧ ـ ١٨. (٣) يجعل فيها الغضون من الكبر.
(٤) الفرقان: ٦١ ـ ٦٢.

ورب العالمين لم يخلق ذلك عبثاً. وقبيح بالناس أن يظنوا محياهم في هذا الوجود الرتيب سدى. إنه الميدان الذي أعد للسباق الطويل، السباق الذي لا يتقدم فيه إلا من يعرف ربه ويذكر حقه، ويشكر نعمه، ومن يجعل من تواصل السنين تواصل دأب ونصب لإحراز الراحة الكبرى.

أما الذاهلون عن هذه المعاني، الهائمون وراء منافعهم المعجلة، فهم حمقى لا ينتصحون من حكمة، ولا يستفيدون من درس.

﴿ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[(1)].

إن عمرك رأس مالك الضخم. ولسوف تسأل عن إنفاقك منه، وتصرفك فيه. قال رسول الله: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟»[(2)].

والإسلام نظر إلى قيمة الوقت في كثير من أوامره ونواهيه. فعندما جعل الإعراض عن اللغو من معالم الإيمان، كان حكيماً في محاربة طوائف المتبطلين الذين ينادي بعضهم بعضاً: تعال نقتل الوقت بشيء من التسلية!! وما درى الحمقى أن هذا لعب بالعمر، وأن قتل الوقت على هذا النحو إهلاك للفرد، وإضاعة للجماعة.

* * *

ومن الحكم التي تغيب عن بال الجماهير: «الواجبات أكثر من الأوقات»، «الزمن لا يقف محايداً، فهو إما صديق ودود، أو عدو لدود».

ومن كلمات الحسن البصري: (ما من يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد. فتزود مني بعمل صالح فإني لا أعود إلى يوم القيامة).

وهذه الحكم تنبع من روح الإسلام ومن تفقه تعاليمه العظيمة في الإفادة

(١) التوبة: ١٢٦. (٢) الترمذي.

من الحياة الأولى للحياة الكبرى. وإنه لمن فضل الله ودلائل توفيقه أن يلهم الرجل استغلال كل ساعة من عمره في العمل، والاستجمام من جهد استعداداً لجهد آخر.

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾[1].

ومن المؤسف أن العوام لا يبالون بإضاعة أوقاتهم سدى، ويضمون إلى هذه الجريمة السطو على أوقات غيرهم لإراقتها على التراب، وإنهم ليقتحمون على رجال الأعمال خلواتهم الجادة ليشغلوهم بالشؤون التافهة.

وصدق رسول الله: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[2].

ومن استغلال الإسلام للوقت بأفضل الوسائل حثه على مداومة العمل وإن كان قليلاً. وكراهيته للكثير المنقطع. وذلك أن استدامة العمل القليل مع اطِّراد الزمن وسيره الموصول يجعل من التافه الضئيل زنة الجبال من حيث لا يشعر المرء.

أما أن تهيج بالإنسان رغبة سريعة فتدفعه إلى الإكثار والإسراف، ثم تغلب عليه السآمة فينقطع، فهذا ما يكرهه الإسلام.

وفي الحديث: «يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا. وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»[3].

وفي رواية: «سددوا، وقاربوا، واغدوا، وروحوا، وشيئاً من الدلجة. والقصد القصد تبلغوا»[4].. وعن عائشة: دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وعندي امرأة من بني أسد، فقال: «من هذه؟ قلت: فلانة، لا تنام الليل. فقال: مه، عليكم من الأعمال ما تطيقون، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه»[5].

---

(١) القصص: ٧٣. (٢) و (٣) و (٤) البخاري ومسلم.
(٥) مسلم.

ومن محافظة الإسلام على الوقت حثه على التبكير، ورغبته في أن يبدأ المسلم أعمال يومه نشيطاً طيب النفس مكتمل العزم، فإن الحرص على الانتفاع من أول اليوم يستتبع الرغبة القوية في ألا يضيع سائره سدى.

ونظام الحياة الإسلامية يجعل ابتداء اليوم من الفجر ويفترض اليقظة الكاملة قبل طلوع الشمس ويكره السهر الذي يؤخر صلاة الصبح عن وقتها المسنون. وفي الحديث: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[1].

وإنه لمن الغفلة والحرمان أن يألف أقوام النوم حتى الضحى، فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون، على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون في وسائل معاشهم ومصالح معادهم. وروي عن فاطمة بنت محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالت: مر بي رسول الله ﷺ وأنا مضطجعة متصبحة. فحركني برجله، ثم قال: «يا بنية قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين. فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[2].

إذ إن الجادين والكسالى يتميزون في هذا الوقت، فيُعْطَى كل امرىء حسب استعداده، من خير الدنيا والآخرة.

* * *

وكما أن الزمن يستغرق التكاليف التي نيطت بأعناق العباد، فهو يستوعب الأقضية التي يرسلها الله على الناس من خير وشر، وهي أقضية تفيض بالعظات الحقة، والدروس القيمة لمن يلقي إليها باله: ﴿ يقلب الله اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾[3].

والناس ينظرون إلى الأحداث ويذهلون عن مرسلها، ويذوقون السراء والضراء، ويجهلون من يذيقهم طعومها، فإذا ضاقوا ذرعاً بأمر ما، لعنوا الأيام وما تفد به، وهذا ضرب من الجهل بالله، والغفلة عن أقداره في عباده:

قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزّ وجلّ: يؤذيني ابن آدم. يسب الدهر.

---

(1) أبو داود. (2) البيهقي. (3) النور: ٤٤.

وأنا الدهر بيدي الأمر. أقلب الليل والنهار»[1]. يعني أن الزمن لا يصنع بالناس خيراً ولا شراً مما يفرح الناس به أو يحزنون له. وإنما يسوق ذلك رب الزمان والمكان: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ. وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[2].

والله سبحانه وتعالى: لا يسوق الأحوال المختلفة على الناس إلا لحكم يتدبرها العارفون فيزدادون بالله إيماناً وبلقائه يقيناً: ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[3].

والسفهاء من الناس تمر بهم الأحوال الحسنة والسيئة فلا يستفيدون من اختلافها شيئاً وفي الحديث: «.. إن المنافق إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير، عقله أهله ثم أرسلوه. فلم يدر لِمَ عقلوه؟ ولم يدر لِمَ أرسلوه»[4].

أجل فليس بمؤمن من لم تهذبه التجارب وتقومه الأيام. وهل تعترض الآلام الناس إلا ليتعلم بها الجاهل ويصحو الذاهل ويتوب إلى الله من نأى عنه؟.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾[5].

وطبيعة البشر أن يعرفوا ربهم ساعة الشدة، وأن يلجأوا إليه عندما تستحكم أزماتهم. والرجل ذو اللب إن أصابته ضائقة فعطفته على الله، يجب أن يستبقي صلته بربه قوية فتية بعدما تزول ضائقته وتستجد العافية. فإن من الخسة جحد فضل الله ـ مظنة الاستغناء عنه ـ!!

أما المسرفون الذين يجهلون القيم ويقل اكتراثهم لما يصابون به واتعاظهم بالحوادث المختلفة فهم وقت الخطر يجأرون لله، وفي الأمن يفرون منه!

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ، أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[6].

---

(1) أبو داود. (2) الأنبياء: ٣٥. (3) الرعد: ٢.
(4) أبو داود. (5) الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣. (6) يونس: ١٢.

وهذه سيرة طائشة لا يليق أن يسلكها امرؤ نبيل مع ولي نعمته.

* * *

ومن الاتعاظ بالزمن دراسة التاريخ العام، وتتبع آيات الله في الآفاق وتدبر أحوال الأمم: كيف تقوم وكيف تنهار؟ وكيف تتقلب بين ازدهار وانحدار؟ والله عزّ وجلّ يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة، وأن يكون لهم وعي حصيف يوجههم إلى الانتفاع بها.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1].

فالرجل بين حالتين: إما أن تكون له تجارب خاصة يستغلها في تصحيح أفكاره وتدعيم إيمانه، وإما أن يكون لا علم له، فليستمع من غيره وليستفد من معارف الآخرين وتجاربهم. أما فتح الأعين على الدنيا المائجة بالأحداث الهائلة دون تفكر أو فقه أو اعتبار فهذا هو العمى والظلام، وهذا ما لا يليق بمؤمن.

إن العمر قصير، والحاضر الذي يحيا الإنسان في نطاقه ضيق، والعقل لا يستمد كيانه وتألقه ونفاذه من وراء الانكماش والقصور. بل لا بدّ أن يتعدى مكانه إلى رحاب الملكوت الواسعة، وزمانه إلى عصور الحياة المتطاولة..

ومن التطواف الممحص هنا وهناك يعود بثروة طائلة من الأفكار والقصص، والآراء والوقائع تزيد خبرته بالعالم، وتزيد معرفته برب العالمين، والإسلام يبني الإيمان الراسخ على هذه الدعائم المكينة من التروي، والتأمل، والبحث والتنقيب.

من أجل ذلك ندب أبناءه للرحلات الطويلة والسياحات الواسعة، وحبب إليهم الضرب في مشارق الأرض ومغاربها، لا للهو واللعب، ولكن للعلم والإفادة، لا للتسلية وتزجية الفراغ، بل للبحث والدرس واستقصاء العبر عن الأحياء والهامدين.

---

(١) الحج: ٤٦.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ، فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ﴾[2].

وكذلك يدعو القرآن الكريم إلى دراسة الحضارات البائدة وعلل فنائها، حتى يتجنب الأخلاف مواطن الزلل التي هوت بالأولين، وكم تكشف مطالعة التواريخ من غرائب:

والليالي من الزمان حُبالى مثقلات يلدن كل عجب!

إن الزمن آية يعجز العقول كنهها. وما نعرفه إلا بما يخلفه في المادة من آثار. ولعل سر الخلود والفناء مطوي فيه، لا يعرفه إلا المحيط بظواهره وخوافيه:

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[3].

والذي يجب أن نعقله أن حياتنا هذه ليست سدى! وأن الله أجل من أن يجعلها كذلك.

وإذا انتفعنا بمرور الزمن على خير وجه، سجلنا لأنفسنا خلوداً لا يناوشه الزمن بهرم ولا بلى.. عند الرفيق الأعلى.

* * *

(١) آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨. (٢) غافر: ٢١. (٣) المؤمنون: ٧٩ ـ ٨٠.

ختــام

لم أستقص في هذا الكتاب عناصر الخلق النبيل، ومعالم السلوك الطيب، التي يجب أن تتوافر في المسلم. واكتفيت هنا بذكر ما تيسرت لي كتابته بعد مطالعات يسيرة في مراجع الإسلام الأولى، واستغنيت عن تكرار ما سبق لي الكلام فيه من فضائل أخرى يجب أن يتحلى المسلم بها.

فالعلم الدائب ـ تحصيلاً للمعاش وقياماً بحق الحياة ـ خلق أشبعت الكلام فيه، عند البحث في المال ووسائل كسبه وإنفاقه[1].

وجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد بالقوى المختلفة لإعلاء كلمة الله، أخلاق أطلت شرحها عند الحديث عن سياسة الإسلام في الداخل والخارج[2].

وكذلك فضائل التعاون، وإكرام الجيرة والضيفان، وإسداء المنافع والطمأنينة لكل إنسان...

وذكر الله، والمتاب إليه، والإقلاع عن الخطأ، وإحسان العبادة، وإصلاح العمل، سجايا حسنة، وصلتها بالعقيدة، وتحدثت عنها في موضعها[3].

والتدرج إلى بحوث الخلق عند معالجة أي موضوع إسلامي ليس

(١) راجع كتبنا «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه».

(٢) «الإسلام والاستبداد السياسي» و«كفاح دين».

(٣) «عقيدة المسلم».

استطراداً فإن الأخلاق لحمة الإسلام وسداه، وليست إطاراً يصون حدوده ومنتهاه.

فليكن هذا الكتاب ضميمة إلى إخوته في الدعوة إلى الخير والبر. والله الموفق والمستعان.

الفهرس

تمهيد ٣
مقدمة ٧
أركان الإسلام ومبادىء الأخلاق ٧
ضعف الخلق دليل على ضعف الإيمان ١٠
نحو عالم أفضل ١٣
الإنسان بين الخير والشر ٢١
الحدود على الجرائم الخلقية ٢٨
دائرة الأخلاق تشمل الجميع ٣١
الصدق ٣٥
الأمانة ٤٦
الوفاء ٥٦
الإخلاص ٦٩
أدب الحديث ٧٩
سلامة الصدر من الأحقاد ٨٩
القوة ١٠٣
الحلم والصفح ١١٣
الجود والكرم ١٢٣
الصبر ١٣٧
القصد والعفاف ١٤٨

النظافة والتجمّل والصحة ١٥٨
الحياء ١٦٩
الإخاء ١٧٧
الاتحاد ١٨٧
اختيار الأصدقاء ١٩٧
العزة ٢٠٧
الرحمة ٢١٦
العلم والعقل ٢٢٦
الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن ٢٣٥
ختام ٢٤٥